مِنْ نُورِ القُرْآنِ

مِن نورِ القرآن

تفسير موضوعي حركي يقتبس من القرآن الكريم
ما يلقي ضوءاً على قضايا عقائدية أو أخلاقية
أو فكرية أو اجتماعية

سماحة المرجع الديني
الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

الجزء السادس

دار الصادقين

هوية الكتاب

اسم الكتاب:... من نور القرآن

تأليف: ....سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

الموضوع:... التفسير

الجزء:.. السادس

عدد الصفحات:.. ٣٤٩

الطبعة: .... الرابعة

التاريخ:.. ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

طبع ونشر

دار الصادقين للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - النجف الأشرف - شارع الرسول (ص)

هاتف: ٠٠٩٦٤ ٧٨١٠١٩٥٤٨٠

دار الصادقين

القبس/١٨٦

البقرة: ١٠٩

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾

موضوع القبس: سبب عداء الكفار للمسلمين

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٩).

الوُدّ: الميل إلى الشيء ومحبته وتمني وقوعه والحصول عليه، فالتمني يتضمن معنى الود لأن التمني هو تشهّي حصول ما تودّه ـ قاله الراغب ـ وقيل في الفرق بين الحب والود أن الأول أشدّ وأصدق من الثاني فالآية الكريمة تخبر المؤمنين بحقيقة لا يمكنهم التعرف عليها الا بإخبار الله سبحانه، لأنها مرتبطة بمكنونات الضمير وما انعقد عليه القلب، وهي أن الأعداء يتمنون ويرغبون بشكل أكيد أن تتخلّوا عن إسلامكم وتعودوا إلى جاهليتكم بما تتضمن من كفر وشرك وفسق وفجور وانحراف وظلم وجور وانحطاط وتجرد عن الفطرة والمبادئ الإنسانية.

وقد أكّدت آيات أخر هذه الحقيقة لأهمية الالتفات إليها والحذر منها قال تعالى ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (آل عمران:٦٩) ، وقال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء:٨٩) وقال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم:٩) وقال تعالى ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة:١٢٠).

كما حذرت الآيات الكريمة من الانخداع بالعناوين البراقة التي يغلّفون بها مشروعهم هذا كالمدنية والانفتاح والتحرر والتقدم والتحضّر ونحو ذلك، وليس لهم هدف الا إبعادكم عن هذا الدين العظيم ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة:٤٩) ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧)◉ وهكذا يفعل شياطين الإنس فأنهم يسعون لإخراج الناس من جنة الإيمان وينزعون عنهم لباس الورع والتقوى والعفاف والفضيلة، ويظهروا عورات الفسق والفجور والرذيلة والانحطاط والفساد، حتى وصل بهم الحال إلى سن قوانين للشذوذ الجنسي وزواج المثليّين وتغيير الجنس وقتل الأجنة.

ورغبتهم هذه ليست الا تمنّياً بعيد المنال عبّر عنه ب ﴿لَوْ﴾ فهو وهم باطل يتخيّلونه، فأن الله تعالى قد تكفّل بحفظ هذا الدين وجماعة المؤمنين، وليس هذا التمني ناشئاً من جهلهم بالحق الذي أنتم عليه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل:١٤)، ولا عن تصديق واعتقاد

بحقانية ما هم عليه، بل هم يعرفون أن الحق معكم ويتمنون أن يكونوا من أهله ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر:٢)، ولو كانوا مؤمنين وأهل كتاب حقاً لما ودّوا رجوعكم إلى الجاهلية والشرك والكفر ولكانوا قريبين منكم لأنكم من أهل التوحيد، ولكنهم يفعلون ذلك حسداً من عند أنفسهم، وخوفاً على دنياهم التي حصلوا عليها ظلماً قال تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء:٥٤).

روي في أسباب النزول: أن حيي بن أخطب وأخاه أبا ياسر دخلا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قدم المدينة، فلما خرجا قيل لحيي: أهو نبي؟ فقال: هو هو، فقيل: ما له عندك، قال: العداوة والبغضاء إلى الموت، وهو الذي نقض العهد وأثار الحرب يوم الأحزاب[1].

والحاسد يعرف قيمة النعمة التي عند المحسود ولذلك فأنه يحسده ويتمنى أن تكون هذه النعمة له، قال تعالى ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر:٢) ولكنه لضعف ارادته وانصياعه لشهوته يعجز عن نيل تلك النعمة فيتمنى حرمان المحسود منها، قال تعالى ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة:١٠٥).

فسبب عدائهم لكم وسعيهم لتجريدكم من الإسلام لأنهم يعرفون الحق

(١) مجمع البيان: ١/١٨٠.

الذي أنتم عليه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ ويعلمون أي جوهرة ثمينة بأيديكم فيريدون سلبها منكم ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٥٤)، روي في الحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال (إن لنعم الله أعداء، قيل: وما أولئك؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله)[١]، وأعظم هذه النعم هي الإسلام وولاية أهل البيت (عليهم السلام).

وهم بذلك يتبعون إبليس الذي حسد آدم (عليه السلام)، لثباته على طاعة ربّه بينما طُرد هو منها فلذلك أقسم على إغواء بنيه وإضلالهم ليتساووا معه في اللعن والطرد.

وهذا يفسّر لنا المساعي المحمومة التي يقوم بها شياطين الإنس من الفسقة والمنحرفين والملحدين وعبدة الشهوات للتأثير على الناس وإبعادهم عن الحق تحت مسميات عديدة، والا لو كانوا مجرد أنهم يتبنون عقيدة أو أيديولوجية ما فليعتقدوا ما يشاؤون ويتركوا الناس تعمل بقناعاتها، لكن حسدهم للحق وأهله لا يدعهم حتى يرجعوا الناس إلى الكفر.

وإنصافاً من القرآن الكريم فأنه لم يعمم إلى الجميع وإنما قال ﴿كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران:٦٩) لأن من هؤلاء من لا يسعى إلى التأثير على غيره، وربما يكون

---

(١) تفسير الفرقان: ١٥٠/٢ عن تفسير الفخر الرازي: ٢٣٧/٣

مسالماً للمؤمنين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ (المائدة:٨٢).

ثم تذكر الآية العلاج المرحلي لهذه الحالة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ باحتوائهم واستيعابهم، والتعرف على ما عندهم من شبهات وما يفكرون به، واعطائهم الفرصة الكافية ليثوبوا إلى رشدهم ويذعنوا للحق، فربما يكون هذا العفو والصفح وحسن الخلق في التعامل معهم سبباً لهداية بعضهم وهذا انتصار كبير.

لكن هذا العلاج مؤقت ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وقد أمر الله تعالى بمدافعتهم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:٢٥١)۞ ومواجهتهم بمثل أساليبهم فتُفَنَّد حججُهم، وتُدحَض شبهاتهم وضلالاتهم، وتُكشَف معايبُهم وتُفضَح سرائرُهم، وتبيَّن خططهم، وتُحذَّر الأمةُ من مكائدهم، وتسدَّ الثغرات التي يحدثونها في المجتمع المسلم، وتصان عناصر القوة في الأمة وهي الإسلام وولاية أهل البيت (عليهم السلام)، والقضية المهدوية والمرجعية النائبة عن الإمام (عليه السلام)، ووحدة الأمة وعزتها وهويتها، والشعائر الدينية، والأسرة الصالحة، والعفاف وسائر الأخلاق الاجتماعية الفاضلة، والثروة البشرية خصوصاً الشباب وغير ذلك، فلابد من عدم السماح بإضعاف هذه القوى أو تشويهها أو حرمان الناس منها وغير ذلك.

فالأعداء إذن لا يتوقفون عن الكيد لكم حتى يخضعوكم لسلطتهم ويذوّبوا هويتكم وثقافتكم وفق رؤيتهم مما يُعرف بالعولمة، ويستعبدوكم بعد

تجريدكم عن أسلحتكم المادية والمعنوية التي ذكرنا بعضها آنفاً ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء:١٠٢)، فلهذه الآية معنى واسع يجب الالتفات إليه إذ عنوان الأسلحة شامل لكل العناوين التي ذكرناها وغيرها،

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حقيقة كبرى يجب على المؤمنين أن يذعنوا لها ويسلّموا بها ويستحضروها، ليثبّتوا إيمانهم ويعزّزوا قدراتهم، ويحيوا آمالهم بالنصر والتمكين بإذن الله تعالى، وليعلموا ان الله تعالى قادر على أن ينصر المؤمنين وأن يبيد أعدائهم بأقرب من لمح البصر ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ولكن ارادته سبحانه شاءت أن تسير الأمور بأسبابها الطبيعية وبحسب استحقاقات الناس.

ورد في تفسير العسكري للآية ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ بما يوردونه عليكم من الشبهة ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ لكم بأن أكرمكم بمحمد وعلي وآلهما الطيبين ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ المعجزات الدالات على صدق محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وفضل علي (عليه السلام) وآلهما ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ عن جهلهم وقابلوهم بحجج الله وادفعوا بها باطلهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولقدرته على الأشياء قدّر ما هو أصلح لكم في تعبّده إياكم من مداراتهم ومقابلتهم بالجدال

بالتي هي أحسن)[1].

والخلاصة أن الآية الكريمة تدعو إلى الانتباه والحذر من الخطط الشيطانية للأعداء التي تستهدف إبعادكم عن الدين وان تتسلحوا بما يثبّت هذا الدين في قلوبكم وبما يمكنكم من مواجهة هذه الخطط ويحبطها بحول الله تعالى وقوته.

(١) البرهان: ٢٣٨/١ عن تفسير العسكري: ٣١٥/٥١٥.

القبس/١٨٧

البقرة: ﴿١٩٥﴾

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥)

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أمرٌ بالإنفاق في سبيل الله -أي طلباً لثوابه ونيل رضوانه تعالى- ، والسبل الموصلة إلى الله تعالى والمقرِّبة إليه سبحانه كثيرة يلّخصها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، فلا يختص بمورد سياق الآية وهو الإنفاق في لوازم وتكاليف الجهاد والمجاهدين في سبيل الله تعالى لردّ المعتدين والمفسدين، ونشر الدين وإعزاز المؤمنين وحفظ عقائدهم وأخلاقهم.

والآيات الكريمة الآمرة بالإنفاق كثيرة ومتنوعة فبعضها جاءت مقترنة بالترغيب في الإنفاق وما فيه من خير الدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١) وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة:

(٢٧١)) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (فاطر: ٢٩) وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣)، فالانفاق سبب لنيل الرحمة الإلهية والتطهير والتزكية وغفران الذنوب ومضاعفة البركات والفوز بالتجارة الخالدة مع الله تبارك وتعالى.

وبعضها عن طريق بيان سوء عاقبة المتخلفين عن الإنفاق كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤_٣٥) وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ*ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ*ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ*إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الحاقة: ٣٠-٣٤) وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الماعون: ١-٣) وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾(المدثر ٤٢-٤٤)، فهذه صور لعواقب فضيعة يكفي مجرد تصورها للإصابة بالذعر والهلع الشديدين، ومنها الآية الكريمة التي نقتبس من نورها فقد جعلت عدم الانفاق سبباً للوقوع في التهلكة

كما سنبين ان شاء الله تعالى.

أما الأحاديث الشريفة فإنها تفوق حد الإحصاء ولا يسع المجال لذكرها نذكر أحدها في جانب الترغيب وهو قول النبي (صلى الله عليه وآله) (ارض القيامة نار، ما خلا ظلَّ المؤمن فان صدقته تظلّهُ)[1] والثاني في التخويف وهو قول الإمام الباقر (عليه السلام): (الذي يمنع الزكاة يحوّل الله ماله يوم القيامة شجاعاً (أي ثعبان) من نار له ريمتان[2] فيطوقه إياه ثم يقال له: ألزمه كما لزمك في الدنيا، وهو قول الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٠))[3].

ولأن النفس الإنسانية مجبولة على حب المال ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ٢٠) ويصعب عليها الإنفاق ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (الإسراء : ١٠٠)، فقد عرضت الآيات الكريمة عدة محاولات للدخول في أعماق النفس الإنسانية وإقناعها بالإنفاق، كالوعد بأن الله تعالى يخلف على الإنسان ما ينفقه في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ:

---

(١) الكافي: ٣/٤،ح٦

(٢) كذا في جميع النسخ، وهكذا نقله في المستدرك أيضا، والصحيح " زبيبتان " تثنية زبيبة وهما نقطتان سوداوان فوق عيني الحية والكلب. يخيل للرائي أن لها أربعة أعين وإذا كانت كان عضها قتالاً.

(٣) بحار الأنوار: ج ٩٣ – ص ٨.

(٣٩))، مضافاً الى أنّ له أجر ما أنفق[1] قال تعالى ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٢٧٢) وهذا الإيفاء متحقق في الدنيا والآخرة وغير ذلك من الأساليب التي سنبينها في قبس مستقل ان شاء الله تعالى.

ومن الواضح أن بعض الإنفاق واجب كزكاة الأموال والأبدان _أي زكاة الفطرة_ والخمس والكفارات المالية وردّ المظالم ونفقة الحج الواجب وغير ذلك، وبعضها مستحب كالإنفاق في وجوه البر والإحسان وما أكثرها، وبعضها محرم كالذي ينفق في المعاصي كشرب الخمر وحضور حفلات المجون، او كان انفاقه سبباً لإدخال الأذى على الآخرين بالإذلال والتحقير، كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣) وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ (البقرة: ٢٦٢) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٤) أو كالذي يسرف في إنفاق كل ما عنده ولا يبقي شيئاً لمن يعول بهم فإنه منهي عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩) والمطلوب

(١) يوجد في إحدى الدول الأوروبية بنك للوقت تسجِّل فيه حساباً للوقت الذي تنفقه في خدمة الآخرين على نحو المداراة الصحية أو الأعمال المنزلية وغير ذلك وهذا الرصيد يُستفاد منه عند الاحتياج إلى المساعدة في الشيخوخة أو المرض أو أي سبب آخر فيأتي من يخدمك مدة تستقطع من الرصيد فهذا تطبيق لما افادته الآية الكريمة من أن الله تعالى يخلف على المنفق.

الوسطية والاعتدال، قال تعالى في مدح عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧)،وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة: ٢١٩) أي الفضل الزائد عن احتياجاتكم المعاشية ، وعن جابر – رضي الله عنه– قال : جاء رجل بمثل بيضه من ذهب، فقال : يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها. فأعرض عنه رسول الله (ﷺ) – ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك فأعرض عنه. فأتاه من قبل ركنه الايسر فقال مثل ذلك، فأعرض عنه. ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك، فأخذها – (ﷺ) فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته. وقال (يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة. ثم يقعد يتكفف الناس! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)[(١)]

وحثّت الآيات الكريمة على أن يكون الإنفاق من المال الجيد الذي ترغب فيه النفس، قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢) وليس مما لا تقبله النفس إلا مرغمة كالذي يخرج خمسه من بضاعة كاسدة انتهى موسمها أو يخرج في الزكاة والفدية والكفارة نوعية رديئة من الطعام، قال تعالى: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

(١)في ظلال القران: ج١ / ص٣٢٢ ،سنن ابي داود ٢/ ص١٢٨ /ح ١٦٧٣.

(البقرة: ٢٦٧).

ومن كرم المولى على عبده أنه أعطى نفس أجر الصدقة لمن يتوسط في إيصالها، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (لو أن الصدقة جرت على يدي سبعين ألف ألف إنسان، كان أجر آخرهم مثل أجر أولهم)[1].

وينبغي الالتفات الى أن الانفاق لا يقتصر على تمليك المال للمحتاج بل يمكن ان يكون من خلال مصنع او شركة تجارية فيوفّر للفقير العاطل فرصة عمل يكسب منه مالاً حلالاً او يسلّفه مالاً لينشئ متجراً خاصا به وبذلك يتحّول الفقير من شخص مستهلك الى منتج، وهذا من مصاديق الآية الشريفة ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة : ٢٤٥)◉ ومن معاني الحديث الشريف عن الامام الرضا (عليه السلام) (أحسن الناس معاشاً من حسن معاش غيره في معاشه، واسوأ الناس معاشاً من لم يعيّش غيره في معاشه)[2].

أبواب الإنفاق ومساحاته كثيرة:

وقد أطلقت الآية الكريمة متعلق الإنفاق ولم تُحدِّد ماذا ينفقون لنلتفت إلى أن موارد الإنفاق كثيرة لا تقتصر على المال، وأوضح موارده الأخرى:

١- العلم النافع في سائر حقول المعرفة والفنون والتجارب قال أمير

---

(١) ميزان الحكمة: ٧٧/٥ ح ١٠٥٨٨، ح ١٠٥٩٠.

(٢) تحف العقول: ٣٢٩، بحار الانوار: ٣٤١/٧٨ وقد شرحنا الحديث في موسوعة خطاب المرحلة: ٣٣٧/١١.

المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة) [١]، وقال (صلى الله عليه وآله): (تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأي يسدده)[٢]، وقال (صلى الله عليه وآله): (أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم) [٣].

وبشّرت من ينفق العلم بالزيادة والانفتاح على علم جديد ففي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (يا كميل: ..... العلم يزكو على الإنفاق) [٤] وفي الحديث (ما أهدى المرء المسلم على أخيه هدية أفضل من كلمة حكمة، يزيده الله بها هدى، ويرده عن ردى) [٥].

٢- الأخلاق الحسنة ومعاشرة الناس بالمعروف، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة: ٢١٩) بناءً على أن معنى العفو هنا هو الصفح، و في الحديث النبوي الشريف (يا أبا ذر الكلمة الطيبة صدقة)[٦] وقال (صلى الله عليه وآله): (كل معروف صدقة إلى غني أو فقير)[٧] وقال (صلى الله عليه وآله) (ترك الشر صدقة) [٨]

---

(١) بحار الأنوار: ج ١ /ص ١٦٦.

(٢)بحار الأنوار: ٧٥ / ١٠٥ ح ٤٠.

(٣) ميزان الحكمة: ج ٢ /ص ١٥٩٩، كنز العمال: ١٦٣٥٧.

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٥ /ص ٧٦.

(٥) ميزان الحكمة: ج ٤ /ص٣٤٥٣.

(٦) بحار الأنوار: ج ٨٠ /ص٣٦٩.

(٧) أمالي الطوسي: ٤٥٨ / ١٠٢٣.

(٨) بحار الانوار: ٧٧/١٦٠ح١٦٨.

وقال (صلى الله عليه وآله) (تَبسُّمك في وجه اخيك صدقه)[1] وروي أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال لعمه العباس: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)[2] وروي عنه (صلى الله عليه وآله) قوله: (إن على كل مسلم في كل يوم صدقة، قيل من يطيق ذلك؟ قال: إماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وردك السلام صدقة)[3] وقال (صلى الله عليه وآله): (إن أفضل الصدقة صدقة اللسان، تحقن به الدماء، وتدفع به الكريهة، وتجرّ المنفعة إلى أخيك المسلم)[4].

٣- الجاه والمكانة الاجتماعية: وهذا رصيد كبير يمنحه الله تعالى لبعض الناس يمكن استثماره في الخير، ولا يجعل شأنيته ومكانته الدينية او الاجتماعية مانعاً من القيام بما يريده الله تعالى، فيستطيع الإنسان الوجيه أن يسعى بوجاهته لدى الناس لقضاء الحوائج وتيسير الأمور وإصلاح المتخاصمين فيكون ممن أنفق جاهه في سبيل الله تعالى، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين في نكاح حتى يجمع الله بينهما)[5]، وفي حديث

---

(١) كنز العمال: ١٦٣٠٥، ميزان الحكمة: ٧٠/٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٨ /ص ٣٨٤.

(٣) بحار الأنوار: ج ٩٣ /ص ١٨٢.

(٤) ميزان الحكمة: ج ٥ /ص ٧٢.

(٥) وسائل الشيعة: ج ٢٠/ ص ٤٥، حكى بعض السادة المعروفين ان احد الشباب تعلق بفتاة وطلب من اهله خطبتها فردّهم والد الفتاة بعنف لأمر يخصّه فوسّطوا هذا السيد فردّه الوالد بنفس الطريقة ثم طلبوا منه إعادة المحاولة فلاقى نفس الرد وتكررت العملية ووالد الفتاة يقول له الا=

آخر عن رسول الله (ﷺ): (إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصوم) [١]، وقال الامام الصادق (عليه السلام) (صدقة يحبهّا الله: إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا) [٢] واهم موارده اليوم إطفاء نائرة الحرب والصراع بين العشائر التي تشتعل بين حين وآخر وتخلّف الكوارث فمن واجب الجميع معالجة أسبابها قبل وقوعها وإغلاق هذا الباب للشر والفساد نهائياً.

٤- بذل النفس في سبيل الله وهي أكمل درجات الإنفاق، قال رسول الله (ﷺ): (فوق كل ذي برّ برٌّ حتى يقتل في سبيل الله فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر) [٣] ونظم الشاعر هذا المعنى بقوله:

يجود بالنفس إن ضنَّ الجواد بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وغير ذلك من موارد الإنفاق كالوقت والراحة والجهد قال النبي (ﷺ) (أفضل الناس رجل يعطي جهده) [٤] بناءاً على هذا المعنى من الجهد وليس القليل الذي هو غاية ما يتيسر له، وهكذا أي شيء يمكن أن يتحوّل إلى عمل

=تستحي من كثرة الرد العنيف، فقال السيد انا اعمل بتكليفي وفي النهاية لان قلب والد الفتاة وأذِن بمناقشة الموضوع وتم الزواج بفضل الله تعالى.

(١) أمالي الطوسي: ج ٢ /ص ١٣٥.

(٢) الكافي: ٢/٢٠٩/ح ١.

(٣) الكافي: ج٢/ص٣٤٨/ح ٤.

(٤) كنز العمال: ١٦٠٨٤.

مثمر ينفع الناس.

كيف يؤدي عدم الانفاق الى التهلكة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥) تحذير من مغبّة عدم الإنفاق في موارد رجحانه بخلاً او خوف العيلة ومن عاقبة سوء الإنفاق كالإسراف او إعطاء الردي او في غير مورده ومن دون هدف راجح ولا تخطيط محكم بأنَّ ذلك سيؤدي بكم إلى الهلاك وسيجعلكم عرضه للفناء لأن التهلكة مصدر[1] على وزن تفعُلة بضم العين وتعني ((كل شيء تصير

(١) قال الطبرسي في مجمع البيان: (٢/ ٢١) وفاقا لجمع من اللغويين كلسان العرب (ليس في كلام العرب مصدر على تفعُله- بضم العين- إلا هذا) وهكذا قال المفسرون كالآلوسي والطباطبائي، واذا أرادوا بذلك انه شاذ فاننا لا نرى في ذلك شذوذاً لأن السمع لا ينفر منه إذا ألقي إليه وهذا معيار مقبوليته، مع إمكان أن تكون بالأصل مكسورة العين وضمَّت بتعدد القراءات، وحكي عن سيبويه احتمال أن يكون أصلها بكسر اللام فأبدلت الكسرة ضمة (روح المعاني: ١/ ٦٤٨) وعلى كسر العين فإن هذا المصدر موجود كما في قوله تعالى ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ (التحريم : ٢) نحو (تبصرة وتذكرة وتجربة وتهنئة وتزكية وتربية وتقوية، وبفتح العين نجد (تُؤدّة) كما في قول النبي (ﷺ) (التُؤَدةّ في كل شيء خير الا في عمل الاخرة) كنز العمال: ٥٧٦٣، وعلى أي حال فإن النص القرآني حاكم على اللغة وميزان سلامتها وليس العكس قال الفخر الرازي: (إني لأتعجب كثيراً تكلّفات هؤلاء النحويين في أمثال هذه المواضع، وذلك أنّهم لو وجدوا شعراً مجهولاً يشهد لما أرادوه فرحوا به، واتخذوه حجة قوية، فورود هذا اللفظ في كلام الله تعالى المشهود له من الموافق والمخالف بالفصاحة، أولى بأن يدل على صحة هذه اللفظة واستقامتها) المجلد: ٣، ٥/ ١٤٦.

عاقبته إلى الهلاك)) [١] أو يكون في معرض الهلاك ويكون مصيره مجهولاً، ومن مصاديقها المفازة لأنه يهلك فيها كثيرون.

والباء سببية أي بسببكم وسوء افعالكم وماجنته أيديكم واليد كناية عن فعل الإنسان نفسه لأن أكثر ظهور أفعالها بها كما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (هذِهِ يَدايَ وَما جَنَيْتُهُ عَلى نَفْسِي)[٢] وهي شاملة لجنايات نفسه كلها، وفي الحديث النبوي الشريف (على اليد ما أخذت حتى تؤدي)[٣] الشامل لجميع الضمانات حتى لو حصلت بغير اليد، فيكون معنى الآية لا تكونوا انتم سبباً للألقاء في التهلكة وعلى هذا فإن المفعول به أي الملقى غير مذكور في الآية فهو مطلق شامل لأنفسكم كأفراد وللمجتمع ككل، فلا تلقوا قوتكم وكيانكم وتقدّمكم وحضارتكم وأخلاقكم وعلاقاتكم ونظامكم الاجتماعي والأخلاقي وحتى دينكم في التهلكة والفناء إن لم تنفقوا في ما يتطلبه حفظ كل ذلك من مال وجهد وفكر ووقت وطاقة وإمكانية قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)، لذا فإن الشعوب الكسولة الخاملة التي تركت ما يجب عليها من الإنفاق المناسب من المال او الجهد او النفس تُستعَبد وتتخلّف

(١) لسان العرب مادة هلك، قال اليزيدي: التَّهْلُكة من نوادر المصادر ليست مما يجري على القياس.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٤ / ص٨٩ قال الصادق (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ليلة النصف من شعبان عند سجوده صلى الله عليه وآله (سجَدَ لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي هذه يداي وما جنيتُه على نفسي يا عظيم تُرجى لكل عظيم ...).

(٣) سنن ابن ماجة: ج ٢ /ص ٨٠٢.

وتُصادَر خيراتها وتُمتَهن كرامتها وتخسر أضعاف ما بخلت به، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦) ،أي انهم وإن لم ينفقوا أموالهم في طاعة الله تعالى الا أنهم في النتيجة سينفقونها في معصية الله ثم تكون عليهم حسرة[١].

وحينئذ يمكن أن تكون الباء للمصاحبة كما في قوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ (المؤمنون: ٢٠) وفي زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) ليلة شهادته: (فَطِرْتَ وَالله بِنعْمائِها) [٢]، فيكون المعنى ولا تأخذوا أنفسكم وقوتكم بأيديكم وتلقوها في الهلاك ولا تدمرّوا إمكانياتكم وقدراتكم المتنوعة بترك الإنفاق في سبيل الله.

وقال جمع من المفسرين كالطبري في جامع البيان والطبرسي في المجمع والطباطبائي في الميزان أن الباء زائدة كقولك جذبت بالثوب أي جذبت الثوب باعتبار أن ألقى يتعدى بنفسه كما في ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾ (الشعراء: ٤٥) وزيدت لتأكيد معنى النهي ويكون المعنى ولا تلقوا أيديكم كناية عن أنفسكم في التهلكة.

وهذه التهلكة يمكن تصورها من عدة جهات:

١- دينية وأخلاقية فإن البخل يميت روح الإنسانية لدى الغني ويمسخ فطرته،

---

(١) راجع تفسير هذا القبس في الجزء الثاني من تفسير (من نور القرآن).

(٢) ضياء الصالحين: ٦٤، زيارة أمير المؤمنين عليه السلام في يوم استشهاده ٢١ من شهر رمضان.

وبالمقابل فإن الفقير الذي لا يجد من يوفّر له ولعياله القوت يتخلى عن إيمانه ويسلك الطرق المنحرفة والمحرمّة، للحصول على ضرورات حياته، وكم من امرأة تخلّت عن عِفّتها وحيائها وسيلة لكسبها مدعيّه أن الحاجة ألجأتها إلى ذلك، وقد اشتهرت كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام): (كاد الفقر أن يكون كفراً) [(١)] وإن كثيراً من الجياع لما تتحدث لهم عن ضرورة الالتزام بالدين فإنه يطالبك بإشباع بطنه أولاً، قال رسول (صلى الله عليه وآله) في دعائه: (بارك لنا في الخبز ولا تفرق بيننا وبينه فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا ولا أدّينا فرائض ربنا) [(٢)] وقد اشتهرت الكلمة (لولا الخبز لما عُبِدَ الله تعالى).

٢- اقتصادية: فإن وجود طبقة فقيرة لا تمتلك المال لشراء احتياجاتها يؤدي إلى كساد السوق، فإذا أنفق الموسرون عليهم فإن هؤلاء سيحرّكون السوق والمصانع والتجارة ويعود بالنفع على أصحاب المعامل والتجار أنفسهم، وهذه من أهم النظريات الاقتصادية، ومن تطبيقاتها أن الدول التي تتراكم عليها الديون ويصيبها العجز والإفلاس وتنذر بالسقوط فإن الدول الغنية تمدُّ إليها يد المساعدة والإقراض لتقويم اقتصادها وتحريك سوقها فتحرِّك اقتصاديات تلك الدول المانحة كما حصل لليونان في أزمتها المالية قبل عدة سنوات، حتى أعلنت مؤسسات الإفلاس.

٣- سياسية: فإن من أهم وسائل إخضاع الأفراد والشعوب والدول هو تجويعهم

(١) بحار الأنوار: ٧٠ / ص ٢٤٦.

(٢) الكافي: ج ٥ /ص ٧٣.

وفرض الحصار عليهم، فتضطر الدول المحاصرة إلى التنازل عن سيادتها واستقلالها وكرامتها، وترضى بالتبعية والذل والخضوع من أجل الحصول على المساعدات الموعودة، وتجارب دول العالم الثالث كما يسمونها كثيرة، وشعارهم في ذلك المثل القائل (جوّع كلبك يتبعك) وهذا المنهج يتخذّه الطغاة والمستكبرون لإخضاع شعوبهم بحرمانهم من الحقوق والخدمات الأساسية ليبقى الشعب خانعاً مستسلماً لإرادة الطاغية طمعاً في الحصول على الفتات منه، وقد استعملت قريش هذا الأسلوب حينما حاصرت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبني هاشم في شعب ابي طالب عدة سنوات، وسياسة خلفاء السقيفة مع علي وفاطمة (عليهما السلام) حينما صادروا فدك وغير ذلك.

٤- أيديولوجية: فقد استعمل الإنفاق المالي لتبديل أفكار الناس وقناعاتهم كالذي يفعله المبشرون المسيحيون خصوصاً في افريقيا لتنصير الفقراء، أو ما يبذله المرشحون في الانتخابات لكسب أصوات الناس مع علمهم بفساد المرشح وعدم أهليته، ولو وجد هؤلاء الناس ما يكيفهم لما اضطروا إلى تبديل عقائدهم والعمل على خلاف قناعاتهم.

٥- أمنية واجتماعية: فإن المحرومين من حقوق الحياة الأساسية يصبحون قنابل موقوتة في المجتمع جاهزة للانفجار في أي لحظة حينما يفقدون الصبر على حالتهم التعيسة، وإن التمايز الطبقي ووجود طبقة قليلة ثرية مترفة مقابل طبقة واسعة محرومة من أكثر أدوات الحرب الناعمة اليوم فاعلية من خلال اثارة روح الانتقام لدى هذه الطبقة وتوزيع الأموال عليهم لتأجيج

الشارع بهم واتخاذهم وقوداً في الفتن والحروب الأهلية وإحداث الخراب والدمار، وأمثلتها من الواقع العراقي ليست بعيدة. وقد اختصر أمير المؤمنين (عليه السلام) المشكلة وحلّها بقوله: (حصّنوا أموالكم بالزكاة)[1].

هذه صور من التهلكة التي تحصل لو بخل الناس بأموالهم ولم ينفقوا في ما أمرهم الله تعالى به، وهو شاهد آخر على ما عرضناه في محاضرة سابقة من أن الإسلام يُقدِّم مشروعه كبرنامج إصلاحي شامل في الدنيا، ولا يكتفي بوعود السعادة والنعيم في الآخرة، لأن الإنسان بطبعه يرغب في الأجر العاجل، ويحفزّه على العمل ما يلمسه من نتائج على أرض الواقع، وتخوّفه بالمخاطر والعقوبات المنظورة، وهكذا هو الإسلام في كل تشريعاته حتى العبادية فلم يكتف في الصوم أن يقول أن فيه ثواب الجنة ومغفرة الذنوب ونحو ذلك وإنما قال أيضاً في الحديث النبوي الشريف: (صُومُوا تَصِحُّوا) [2] وقال (صلى الله عليه وآله) أيضاً: (المعدة بيت كل داء، والحمية رأس كل دواء)[3] وقد أثبتت الدراسات الطبية حاجة الإنسان إلى صوم أيام في السنة لتصحيح وظائف جسمه وتنظيم عمل أجهزته وغدده وهرموناته.

وبهذا عُرِف وجه الإتيان بهذا التحذير عقب الأمر بالإنفاق للملازمة بينهما، واتضح انسجام وقوع الآية ضمن سياق الأمر بالقتال لحفظ الدين ورد عدوان المعتدين والمفسدين، ومنع وقوع الناس في الفتنة والفساد والانحراف

(١) نهج البلاغة: قصار الكلمات/ رقم ١٤٦، وسائل الشيعة: ٩/ ١٥ ح ١١٤٠٢.

(٢) بحار الأنوار ٩٣ /ص ٢٥٥.

(٣) موسوعة الأحاديث الطبية: ج ٢ /ص ٤٠٦.

والذي بدأ من الآية ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠) إلى أن قال تعالى في الآية ١٩٣: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الى ان وصل الى الاية ١٩٥ وهي التي نقتبس من نورها الآن، فان امتناع الأمة عن بذل المال والجهد والنفس يؤدي إلى اضمحلالها بتسلّط الأعداء عليها وسيطرتهم على مقدراتها. ففي هذا الإنفاق إنقاذ للأمة من التهلكة وليس العكس.

هل ألقى الامام الحسين (عليه السلام) نفسه في التهلكة:

فلا يبقى حينئذ وجه للإشكال على حركة الإمام الحسين (عليه السلام) بأنها من إلقاء النفس في التهلكة، لأنه (عليه السلام) حفظ الأمة من التهلكة بتضحياته الجسيمة، وإن النهي عن التهلكة ورد في سياق الأمر بالقتال في سبيل الله فكيف يكون هذا القتال من إلقاء النفس في التهلكة؟ فسياق هذا الآيات يجعل هذا الإشكال غريباً ولا معنى له، وحينئذ لا نحتاج إلى ما أجاب الطبرسي (قدس سره) فإنه بعد أن استدل بالآية على تحريم الإقدام على ما يخاف منه على النفس، وعلى جواز ترك الأمر بالمعروف عند الخوف، لأن في ذلك إلقاء النفس في التهلكة قال: (فإن عورضنا بأن الحسين عليه السلام قاتل وحده؟ فالجواب: إنّ فعله يحتمل وجهين أحدهما: إنه ظن أنهم لا يقتلونه لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والآخر: إنه غلب على ظنه أنه لو ترك قتالهم قتله الملعون ابن زياد صبراً، كما فعل بابن عمه مسلم، فكان القتل مع عز

النفس والجهاد، أهون عليه)[١].

نعم تتحقق التهلكة لو كانت التضحية بلا هدف يستحق ذلك، فالشهادة في سبيل الله تباين تماماً إلقاء النفس في التهلكة لان هدفها اسمى الأهداف وهو اعلاء كلمة الله تعالى، والمعصوم (عليه السلام) أعلم بتمييز هذه الموارد روى الشيخ الصدوق في الإكمال بسنده عن سلمان الفارسي عن النبي (صلى الله عليه وآله): يقول فيه لعلي (عليه السلام): (يا أخي أنت ستبقى من بعدى وستلقى من قريش شدة ومن تظاهرهم عليك وظلمهم لك، فإن وجدت عليهم أعواناً فجاهدهم وقاتل من خالفك بمن وافقك، وإن لم تجد أعواناً فاصبر وكف يدك ولا تلق بها إلى التهلكة)[٢].

وروى في العيون خبراً طويلاً عن إجبار المأمون للإمام الرضا (عليه السلام) على ولاية العهد وفيه (قال له المأمون: فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجبرتك على ذلك فإن فعلت وإلا ضربت عنقك، فقال الرضا عليه السلام: قد نهاني الله عز وجل أن ألقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك فأنا أقبل على أن لا أولّي أحداً ولا أعزل أحداً ولا أنقض رسماً ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً فرضي منه بذلك، وجعله ولي عهده على كراهة منه عليه السلام لذلك)[٣].

وفي رسالة الحقوق للإمام السجاد (عليه السلام): (وحق السلطان أن تعلم أنك

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٢٢/٢.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج ١ / ص ١٨٠/ح٦٣٦.

(٣) تفسير نور الثقلين: ج ١ / ص ١٨٠/ح٦٣٤.

جُعلت له فتنة وأنه مبتلى فيك بما جعله الله عز وجل له عليك من السلطان، وأن عليك ألا تتعرض لسخطه فتلقي بيدك إلى التهلكة، وتكون شريكاً له في ما يأتي إليك من سوء)[1].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥) فالمطلوب منّا تحسين العمل والإتيان به بأحسن وجه، وليس الاتيان بالعمل على أي نحو كان لأن التفاوت في الدرجات يكون بحسب حسن العمل قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود: ٧)[2] ويتحقق حسن عمل المعروف عموماً ومنه الإنفاق بإخلاص النية وإجادته وإتقانه طبق الموازين الشرعية واجباً كان او مستحباً، وعدم إتباعه بالمنّ والعجُب والرياء، وإخفائه إذا كان إعلانه سبباً لهذه القبائح، وتعجيله قال تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨) وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣) وروي عن الامام الباقر (عليه السلام) قوله (من هَّم بشيء من الخير فليعجلّه فإن كل شيء فيه تأخير فإنَّ للشيطان فيه نظرة)[3] وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (تعجيل البر من البر)[4]، وقال (عليه السلام): (خير الأمور أعجلها عائدة وأحمدها عاقبة)[5]، وقال (عليه السلام): (رأس السخاء تعجيل

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ /ص ٦٢٠.

(٢)القبس ٦٤ : موسوعة من نور القران – ج٢ / ص٢٦١

(٣) الكافي: ١٤٣/٢ح٩.

(٤) غرر الحكم: ح ٥٠٣٣.

(٥) غرر الحكم: ح ٥٢٥٠.

العطاء)[١] ومن الإحسان وضع البِّر في موضعه، وعدم الاكتفاء بالواجب ما دام المستحب متيسّراً، واختيار المورد الأمثل والأفضل عند التزاحم، والتوازن في الإنفاق بين الإفراط وهو الإسراف والتفريط وهو الإقتار كما نصّت عليه آية الفرقان المتقدمة.

وهذا معنى جارٍ حتى في إنفاق النفس فإن التهور والاندفاع من دون حسابات صحيحة وخطط محكمة يجعله من موارد التهلكة ويحرم المسلمين من أحد عناصر القوة فيه، كما أن التفريط يتحقق بالجبن والانهزام والتخاذل عن أداء العمل المكلف به مما يضعف جبهة الحق، فالفعلان محرمان.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): (لو أن رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل الله ما كان أحسن ولا وفق، أليس يقول الله عز وجل: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) يعني المقتصدين)[٢].

(١) غرر الحكم: ح ٦٧٤١.

(٢) الكافي: ج ٤ /ص ٥٣ / ٧.

القبس/١٨٨

البقرة: ١٦٧

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾

موضوع القبس: لنحذر الحسرة يوم القيامة

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة:١٦٧).

تصوِّر الآية مشهداً من مشاهد القيامة حيث يتبرأ الزعماء والرؤساء والقادة والمتبوعون عموماً من اتباعهم ويتنصّلون عما سبّبوه لهم من ضلال وانحراف وفساد، والتضحية من أجلهم بالأموال والأنفس وتنفيذ قراراتهم الحمقاء، فيتمنى الأتباع لو يرجعون الى الدنيا ليتبرأوا من هؤلاء الزعماء بعد أن انكشف لهم خداعهم ومكرهم والسراب الذي توهمّوه ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ (البقرة:١٦٧) وفي آية أخرى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف:٣٨) وهي أماني لا تتحقق اذ لا رجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما سلف منهم كما أخبر تعالى في نهاية الآية ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة:١٦٧)، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:٩٩ – ١٠٠) وهم ليسوا

صادقين أصلاً حتى في تمنيهم هذا وقد أخبر الله تعالى عنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (الأنعام:٢٨) فهم لا يتعظون ولا بصيرة لهم تهديهم إلى الطريق الصحيح.

فتصف الآية الكريمة حالهم بأنهم ستنكشف لهم حقيقة أعمالهم وسيرونها حسرات وقد ذكر تعالى أمثلة لهذه الحسرات في آيات أُخر ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٢٧) ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ (الفرقان:٢٨- ٢٩) ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ (الأنفال:٣٦) حتى كان من أسماء يوم القيامة يوم الحسرة ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم:٣٩).

والحسرة ـ في فهم العرف بغضّ النظر عن أصلها اللغوي ـ أشد مراتب الندامة والأسف المصحوبة بغم شديد على ما مضى وفات من أفعال سيئة ارتكبوها، أو أعمال خير تركوها وقصّروا فيها وأوهام زائفة تعلّقوا بها وفرص للطاعة لم يغتنموها.

ومفتاح كل ذلك اتباع زعامات وقيادات على خلاف ما أمر الله تعالى به وهم الذين وصفتهم الآية السابقة عليها بالأنداد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥) سواء اتخذوهم على مستوى التأليه والربوبية أم على مستوى الحب والاتباع والطاعة، روى العياشي في تفسيره عن جابر عن الامام الباقر (عليه السلام) أنه قال

(والله يا جابر، هم أئمة الظلم وأشياعهم)[١]، ثم انكشف لهم يوم القيامة أن اتباعهم لهؤلاء الناشئ من حبهم لهم وطلب تحصيل القوة والعزة منهم هو في حقيقته حسرة وندامة مؤلمة، وسيندمون أشد الندم على جعل أنفسهم وأموالهم وكرامتهم والأهم من ذلك آخرتهم بيد هؤلاء المتبوعين، وورد في الحديث الشريف (ان أشد الناس ندامة يوم القيامة رجل باع آخرته بدنيا غيره)[٢] حيث ساهموا بشكل وآخر في تقوية طغيان وظلم زعمائهم .

وتزداد حسرتهم حينما يرون ما أعدَّ الله تعالى من الجزاء الحسن لمن اغتنم عمره ووجوده في الدنيا لاكتساب الصالحات، فقد تكون الحسرة لأنه اختار طريق الضلال والفساد بدل الهداية والصلاح، أو لأنه حصل على درجات دانية وحُرم من الدرجات العليا ومرافقة أولياء الله تعالى.

ويظهر من الآية أن هؤلاء الناس كانوا قادرين على أن يكونوا أخياراً وفي حال أفضل مهما ادّعوا من عدم استطاعتهم ذلك، أو قدّموا من أعذار ومبررات ولذا أصابتهم الحسرة ولو كان الذي حصل منهم خارجاً عن اختيارهم وفوق استطاعتهم لما صحّ التحسر عليه كأي فعل يستحيل عليه القيام به، فالإنسان لا يتحسر لأنه لم يستطيع القفز ليكون على سطح القمر مثلاً.

وتذكر الروايات أمثلة لما يوجب الحسرة يوم القيامة، فقد روى الشيخ الكليني بسنده عن الامام الصادق (عليه السلام)قَالَ: (هُوَ الرَّجُلُ يَدَعُ الْمَالَ لاَ يُنْفِقُهُ فِي

(١) تفسير العياشي: ٧٢/١ ح ١٤٢، البرهان: ٣٠/٢ ح ٣.

(٢) كنز العمال: ج ٣ / ص ٥١٠ / ح ٧٦٦٠.

طَاعَةِ اللَّهِ بُخْلاً، ثُمَّ يَمُوتُ فَيَدَعُهُ لِمَنْ يَعْمَلُ بِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ فِي مَعْصِيَتِهِ، فَإِنْ عَمِلَ بِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ رَآهُ فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ، فَزَادَهُ حَسْرَةً وَ قَدْ كَانَ الْمَالُ لَهُ، وَ إِنْ عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ قَوَّاهُ بِذَلِكَ حَتَّى عَمِلَ بِهِ فِي مَعَاصِي اللَّهِ)[1]، و روى الشيخ المفيد في أماليه بسنده عن الامام الباقر أو الصادق (عليهما السلام) قال: (الرَّجُلُ يَكْسِبُ مَالاً فَيُحْرَمُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ خَيْراً فَيَمُوتُ، فَيَرِثُهُ غَيْرُهُ، فَيَعْمَلُ فِيهِ عَمَلاً صَالِحاً، فَيَرَى الرَّجُلُ مَا كَسَبَ حَسَنَاتٍ فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ)[2]، وأشدُّ منهم حسرة من ذكره أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله: (إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالاً في غير طاعة الله فورثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحانه فدخل به الجنة ودخل الأول به النار)[3].

وهذه الأمثلة لما يوجب الحسرة ولا تنحصر بها والا فإن كل تقصير في حق الله تعالى بترك طاعة أو ارتكاب معصية يوجب الحسرة، قال تعالى ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (الزمر:٥٦).

ونسبة الفعل الى الله تعالى في ﴿يُرِيهِمُ﴾ لأنه تعالى يكشف لهم هذه الحقائق، ولأنه تعالى المسبب الحقيقي وهو لا ينافي الأسباب الظاهرية باعتبار أنهم بأعمالهم أوجبوا هذه الحسرات عليهم.

---

(١) البرهان: ٣١/٢ ح ٥٥٦.

(٢)

(٣) نهج البلاغة/ الحكمة:٤٢٩.

تجسّم الاعمال في القيامة:

والآية واحدة من آيات كثيرة تدل على أن أعمال الانسان تبدو على حقيقتها يوم القيامة، وهذه الحقائق التي هي الصور الواقعية لأعمالهم تكون جزاءاً لهم على أعمالهم الحسنة أو السيئة وليس الجزاء شيئاً آخر يعدّه الله تعالى غير أعمالهم، قال تعالى ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل:٩٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران:٣٠) ويومئذ يجد الذي يأكل أموال اليتامى ظلما وعدوانا ويتبجح بازدياد أمواله من الحرام أنه في الحقيقة يدخل نارا في جوفه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء:١٠) فدخول النار في جوفه ليس جزاءً على عمله بل هو نفس عمله وهكذا يجد الزانيان حقيقة عملهما بالصورة التي وصفها الحديث النبوي الشريف (انفجر من فرجهما من صديد وادٍ مسيرة خمسمائة عام يتأذى أهل النار من نتن ريحهما وكانا من أشدّ الناس عذاباً)[1] ويجد متعاطي الغيبة حالته التي وصفتها الآية الكريمة بأن ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ (الحجرات:١٢) وقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الصورة حقيقة في فم بعض أزواجه وخاطبها بالقول (الفظي الفظي! فلفظت مضغة

(١) بحار الأنوار: ٣٦٦/٧٦ ح ٣٠.

لحـم)[١] لكـنهم لغفلـتهم وانشـغالهم بـاللهو واللعـب والعبـث وأنسـهم بالـدنيا لا يلتفتون الى ذلك، كمن يكون منشدّاً الى أمر مـا فـلا يـدري مـا يحصـل لـه مـن جرح وألم فلا يعي ما حصل له حتى يصحو مـن ذهولـه، كصـويحبات يوسـف الصديق فإنهن قطعـن أيـديهن بالسـكاكين مـن فـرط دهشـتهنّ بجمـال يوسـف (عليه السلام) من دون أن يلتفتن أو يشعرن بالألم.

وفي قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم:٦) وقوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨) إشارة إلى أن هؤلاء هم بأنفسهم نار وليست النار شيئاً آخر أعدّت جزاءاً لأعمالهم.

نقل المرحوم العلامة الأميني (قدس سره) في سفره القيـم (الغـدير) ان الحـافظ العاصمي أخرج في كتابه (زين الفتى في شرح سورة هل أتـى) (أن رجـلاً أتـى عثمان بن عفان وهـو أميـر المـؤمنين وبيـده جمجمـة إنسـان ميـت فقـال: إنكـم تزعمون النار يعرض على هذا وإنه يعذب في القبر وأنا قد وضعت عليهـا يـدي فلا أحس منها حرارة النار. فسكت عنه عثمان وأرسل إلى علي بـن أبـي طالـب المرتضى يستحضـره، فلمـا أتـاه وهـو فـي مـلأ مـن أصـحابه قـال للرجـل: أعـد المسألة. فأعادها، ثم قال عثمان بن عفان: أجب الرجل عنها يا أبا الحسـن! فقـال علـي: ايتـوني بزنـد وحجـر. والرجـل السـائل والنـاس ينظـرون إليـه فـأتي بهمـا

---

(١) و ما روي عن عائشة قالت: إني قلت لامرأة مرة و أنا عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): إن هذه لطويلة الـذيل. فقال لي: الفظي الفظي! فلفظت مضغة لحم) جامع السعادات، ج٢، ص٣٠٤.

فأخذهما وقدح منهما النار، ثم قال للرجل: ضع يدك على الحجر. فوضعها عليه ثم قال: ضع يدك على الزند. فوضعها عليه فقال: هل أحسست منهما حرارة النار فبهت الرجل فقال عثمان: لولا علي لهلك عثمان)[1].

فالنار موجودة في باطن الحجر لكننا غير عارفين بالحقيقة ولا نحسّها بوجداننا لأننا محجوبون في هذه الدنيا عن الحقائق، وهكذا فأن مبدأ وأساس النار التي تغلي هو باطن العصاة.

قال الشيخ البهائي (قدس سره) بعد ان ذكر ان الروايات متكثرة في تجسّم الأعمال وظهورها على حقيقتها يوم القيامة (قال بعض أصحاب القلوب: ان الحيات والعقارب بل والنيران التي تظهر في القيامة هي بعينها الأعمال القبيحة و الأخلاق الذميمة و العقائد الباطلة التي ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة و تجلببت بهذه الجلابيب، كما أنّ الرَوْح و الريحان و الحور و الثمار هي الأخلاق الزكية و الأعمال الصالحة و الاعتقادات الحقّة التي برزت في هذا العالم بهذا الزيّ و تسمّت بهذا الاسم، إذ الحقيقة الواحدة تختلف صورها باختلاف المواطن، فتتجلّى في كلّ موطن بحلية و تتزيّى في كلّ نشأة بزيّ)[2].

فالمعاصي التي كانت تبدو في الدنيا جميلة جاذبة وفيها لذة ومتعة تظهر صورها على حقيقتها المؤذية المؤلمة المتشكلة على أساس نية صاحبها (انما الأعمال بالنيات)[3]، وقد يكون عمل واحد نوراً لشخص وناراً لآخر كإنفاق

---

(١) الغدير: ٨/٢١٤

(٢) الأربعون حديثاً للشيخ البهائي: ٤٩٣

(٣) وسائل الشيعة ط. مؤسسة آل البيت (عليهم السلام): ١/٤٨

المال اذا كان في سبيل الله فهو نور ورحمة أو كان رياءاً أو للصدّ عن سبيل الله تعالى فهو نار وعذاب، والفرق هو في نية العمل وليس في نفس المال فأنه يتقلب في أيدي الناس بين هذا وذاك، وفي الحديث الشريف (إن الله عزوجل يحشر الناس على نياتهم)(١) وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (إنما هي أعمالكم تردُّ إليكم)(٢).

وتظهر بعض الحقائق أحياناً في الدنيا قبل الآخرة فشرب الخمر قد يبدو فيه لذة وراحة لشاربه الا أنه سرعان ما يكتشف أنه أدخل الى جوفه سماً فتاكاً يخرّب بدنه ويتلف أعضاءه ويذهب عقله، والجاهل يغريه منظر النار والنور المنبعث منها فيندفع للعبث بها الا أنه سرعان ما يكتشف احراقها.

وقد ورد هذا المعنى في الأحاديث الشريفة فإن المعاصي تكون مقرونة بالشهوات واللذائذ، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (وما من معصية الله شيء الا ويأتي في شهوة) لكنه (عليه السلام) قال (إنّ النار حُفّت بالشهوات)(٣) أي ان هذه الشهوات التي ظاهرها المتعة واللذة والانس هي نار في حقيقتها وباطنها لكنها مغلّفة ومحجوبة بالشهوات، كالسم المخلوط بالعسل فأنه لا يغيّر من حقيقته شيئاً، وهذا ما يشعر به من مارس الشهوات المحرمة وما أن ينتهي منها حتى يجد ألمها وعذابها في باطنه بشكل لا يطاق وقد يدفع بعضهم الى الانتحار، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف الدنيا (مَثَلُ الدنيا مثل الحيّة لين مسّها

---

(١) الكافي:٥/٢٠

(٢) بحار الأنوار: ٣/٩٠

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦

قاتل سمُّها)[1] فهي ظاهراً ناعمة الملمس تغري الجاهل بالاقتراب منها واللعب بها لكن باطنها السم القاتل، وهكذا المعاصي قال تعالى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد:١٥)، وتوجد أبحاث مفصّلة في مسألة تجسّم الأعمال لسنا بصدد عرضها.

وما نريد أن نستفيده هنا أمران:

١- اغتنام كل فرصة للطاعة وعدم اضاعتها فان (إضاعة الفرصة غصّة)[2] وحسرة، وعن الامام الصادق (عليه السلام) قال (إن أعظم الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلاً ثم خالفه الى غيره)[3] وعنه (عليه السلام) قال (إن الحسرة والندامة والويل كلّه لمن لم ينتفع بما أبصره ومن لم يدرِ ما الأمر الذي هو عليه مقيم: أنفعُ له أم ضرّ)[4]، وأن لا نستصغر أي خطيئة (لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت)[5] ولا تقلّل من شأن أي طاعة، وأعظمها بركة الإحسان إلى الاخوان، والأحاديث في ذلك كثيرة منها قول الإمام السجاد (عليه السلام) (معاشر شيعتنا اما الجنة فلا تفوتكم سريعاً كان أو بطيئاً ولكن تنافسوا في الدرجات، واعلموا أن أرفعكم درجات و أحسنكم قصوراً ودوراً وأبنية أحسنكم فيها إيجاباً لإخوانه المؤمنين، وأكثرهم مواساة لفقرائهم، إن الله عز

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٦٨

(٢) ميزان الحكمة: ج٣ / ص ٢٣٩٩

(٣) أمالي الطوسي: ٦٦٣/ ح ١٣٨٦

(٤) الكافي: ٤١٩/٢ ح ١

(٥) بحار الأنوار: ج ٧٤ / ص ٧٧

وجل ليقرب الواحد منكم إلى الجنة بكلمة يكلم بها أخاه المؤمن الفقير بأكثر من مسير مائة ألف عام في سنة بقدمه وإن كان من المعذبين بالنار فلا تحتقروا الإحسان إلى إخوانكم، فسوف ينفعكم الله تعالى حيث لا يقوم مقام ذلك شيء غيره)[١].

واذكر هنا مثالاً على بركة هذا الإحسان وإن كان ضئيلاً، وهو ما رواه شخص أنه كان يقود دراجة وتوقف عند علامة المرور وإلى جانبه سيارة يطلّ طفل من نافذتها ومعه أبوه وأمه قال: وفي هذه الثواني لاطفت الطفل ببعض الحركات التي أضحكته قبل أن نتحرك ثم علمت أن الأب والأم كانا على خلاف شديد وهما ذاهبان لإيقاع الطلاق ولما ضحك الطفل أعاد لهما مشاعر الأبوة والأمومة وحرص كل منهما على سعادة الطفل وعدم ضياعه اذا انفصلا فعدلا عن الطلاق وعاشا بسعادة ووئام واعيد بناء أسرة من جديد ببركة تلك الثواني وانتقلت الحالة من (ما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة، يعني الطلاق)[٢] إلى (ما بني بناء في الإسلام أحبُّ إلى الله من التزويج)[٣].

٢- علينا أن نعيش الحسرة والندامة في هذه الدنيا على كل ما فاتنا من خير وما وقعنا فيه من سوء وعلى كل ما صدر من قصور وتقصير ليدفعنا ذلك إلى التدارك والإصلاح ما دامت فرصتهما موجودة في هذه الدنيا هذا التحسّر

(١) تفسير البرهان: ١٢٥/١ ح ٤ عن تفسير العسكري: ٩٤/٢٠٤.

(٢) وسائل الشيعة ط. مؤسسة آل البيت (عليهم السلام): ج ٢٠/ ص ١٦

(٣) وسائل الشيعة ط. مؤسسة آل البيت (عليهم السلام): ج ٢٠/ ص ١٤

والألم الذي تطفح به أدعية أهل البيت (عليهم السلام) ومناجاتهم عند الانتهاء من المواسم العبادية كشهر رمضان والحج رغم أنهم استثمروها بأعلى أشكالها، وهو ما يشعر به المؤمنون الموالون أيضاً عند الانتهاء من خدمة زوار الامام الحسين (عليه السلام) في الأربعينية وغيرها من المناسبات الدينية فيبكون متأسفين رغم ما قدموه من خدمات جليلة.

هذا التحسر والتأسف في الدنيا مثمر ومنتج أما عدم الإحساس به وتأخيره فأنه يعني استحالة الحصول على فائدة منه بعد الموت كما نطقت به الآية محل البحث وحكى الله تعالى عنهم ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ (المؤمنون:٩٩ - ١٠٠).

القبس/١٨٩

آل عمران: ١٤٠

﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾

موضوع القبس: الشهادة كرامة إلهية

تناولت سورة آل عمران في سياق طويل معركة أُحُد وملابساتها ونتائجها والدروس المستفادة منها، ومنها هذه الفقرة التي تقع ضمن عدة فقرات فيها تسلية وعزاء للمسلمين عن الشهداء الذين سقطوا في معركة أُحُد وهم سبعون من خيرة المهاجرين والأنصار، وفيها تخفيف عن آلام المسلمين وجراحهم بسبب النكبة التي حصلت لهم في المعركة، وتقوية معنوياتهم وإعادة الأمل والثقة إلى نفوسهم، فيذكّرهم الله تعالى بعدة حقائق عليهم أن يستحضروها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ*إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران : ١٣٩-١٤٠) فتبيّن الآيتان:

١- إنكم أنتم الأعلون بالإسلام فلا يجوز أن تشعروا بالهزيمة والهوان إن كنتم صادقين في إيمانكم.

٢- إن أصابكم قتل وجراح في هذه المعركة فقد أصاب عدوكم مثله فيها وفي معركة بدر ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾

(النساء: ١٠٤) ولم ييأسوا بل جمعوا قوتهم من جديد وأعادوا الكرّة بالهجوم عليكم فلا يكونوا أحرص على باطلهم منكم على حقكم.

٣-إن هذا التقلب في الأحوال هو شأن الدنيا بسعادتها وشقائها فإن ((دوام الحال من المحال)) كما قيل، قال أمير المؤمنين «عليه السلام»: «الدهر يومان: يومٌ لك ويومٌ عليك»[١] إذ كل وضع له مقدماته وأسبابه التي تؤدي إليه، وقد أرادها الله تعالى كذلك فنسبَ المداولة اليه سبحانه ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠) منذ أن بدأت الخليقة، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (ما زال منذ خلق الله آدم دولةٌ لله ودولةٌ لإبليس، فأين دولة الله، أما هو إلا قائم واحد) [٢]، فيوم لآدم على إبليس حينما طرد وعوقب بسبب امتناعه من السجود، ويوم لإبليس على آدم حينما أطاعه وأكل من الشجرة فاهبطّه الله تعالى من الجنة، واخرج في الدر المنثور عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (إن للحق دولة وإن للباطل دولة، دولة من دولة الحق أن إبليس أمر بالسجود لآدم فأديل آدم على إبليس وابتلي آدم بالشجرة فأكل منها فأديل إبليس من آدم)[٣].

٤-إن هذه الابتلاءات وتغير الأيام تكشف عن حقيقة الناس واستحقاقهم ليثاب المحسنون ويعاقب المسيئون ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (آل عمران:

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٤٩٦

(٢)تفسير العياشي:١/١٩٩.

(٣) الدر المنثور: ٢/٧٩.

(١٤٠) ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (الأنفال: ٣٧)، وتفرز أهل المطامع والأغراض الدنيوية عن الصادقين في إيمانهم ليتخلص المجتمع المسلم من أولئك الذين ينخرون في عقيدته وأخلاقه.

٥- إنَّ الشهادة كرامة من الله تعالى ووسام يقلده الله من يشاء، وهو عظمت آلاؤه من يصطفي الشهداء منكم ويختارهم، فلماذا الأسى والحزن والله تعالى لا يختار لعباده إلا الخير، و (من) هنا تبعيضية، وهذا المعنى ذكره الإمام السجاد (عليه السلام) بقوله لابن زياد: (وكرامتنا من الله الشهادة) [(١)] وذكرته العقيلة زينب (عليها السلام) وهي ترد على استهزاء ابن زياد وسؤاله: (كَيْفَ رَأَيْتِ صُنْعَ اللَّهِ بِأَخِيكِ وأَهْلِ بَيْتِكِ؟) فقالت (عليها السلام): (مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلًا، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ فَبَرَزُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) [(٢)].

والشهداء جمع شهيد أو شاهد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ (البقرة: ٢٨١) وهو مأخوذ من الشهود، والشهود والمشاهدة تعني المعاينة الحضورية إما بالبصر أو البصيرة والوجدان ويقابلها الغيب كما في كثير من الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥) والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر: قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس: ٦١)، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَى مَا

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٣/٦

(٢) بحار الأنوار (الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار) (عليهم السلام): ٤٥ / ١١٥.

يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (البروج: ٧)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ (البقرة: ٢٨١)۞ وقول النبي (صلى الله عليه وآله) وقد سئل عن الشهادة قال: (هل ترى الشمس؟ على مثلها فاشهد أو دع)[1].

وفي ضوء هذا فإن من وجوه تسمية القتيل في سبيل الله شهيداً لأنه يشاهد قبل خروج روحه ما أعده الله تعالى له من النعيم، أو لأنه شهد المعركة وثبت فيها حتى قتل -عن مجمع البيان-.

وقد يجعل الله تعالى في الشهداء من لم يقتل لأنه كان صادقاً في طلبها مهيئاً نفسه لها، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه)[2] و قال (صلى الله عليه وآله): (من سأل الله الشهادة بصدقٍ بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)[3] وقد يحرم أحدٌ من الشهادة لعدم استحقاقه لها فلم يكرمه بها، وقد يؤخِّر الله تعالى لعبده الشهادة وهو مستحق لها لمصلحة الدين والأمة، قال أمير المؤمنين من خطبه له: (فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْـمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ[4]، فَشَقَّ ذلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ»؟ فَقَالَ لي: «إِنَّ ذلِكَ

(١) وسائل الشيعة (آل البيت): ج ٢٧ - الصفحة ٣٤٢.

(٢) صحيح مسلم:١٥١٧/٣ ح١٥٦،١٥٧ بواسطة ميزان الحكمة: ٥١٢/٤.

(٣) صحيح مسلم:١٥١٧/٣ ح١٥٦،١٥٧ بواسطة ميزان الحكمة: ٥١٢/٤.

(٤) روي عن أنس بن مالك قال: «أتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعلي «عليه السلام» يومئذ وفيه نيف وستون جراحة -وفي رواية أخرى تسعون- من طعنة وضربة ورمية، فجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» يمسحها وهي تلتئم بإذن الله تعالى كأنها لم تكن» (مجمع البيان: ٢٢١/٢).

لَكَذلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ»؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، لَيسَ هذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ البُشْرَى وَالشُّكرِ) (١) هكذا يتلقى المؤمنون الراضون بما يختاره الله تعالى بشرى القتل في سبيله.

سعة معنى الشهادة:

وقد تعرضنا لهذا المعنى من الشهادة وهو القتل في سبيل الله تعالى باعتبار سياق الآيات ونزولها في معركة أحد، وإلا فإنَّ الشهادة في المصطلح القرآني لها معنى أوسع من هذا، فإنها مقام شريف وهي تعني الرقابة والقيام بوظائف الخلافة الإلهية، والالتزام بما عاهدوا الله عليه، وترشيد عمل الناس وفق ما يريده الله تعالى و يرضاه، ويكون الشهداء مسؤولين عن كل ذلك أمام رسول الله «صلى الله عليه وآله» والأئمة المعصومين «عليهم السلام»، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

والشهادة على الأمة مسؤولية تتطلب عدة مؤهلات:

١- العلم والمعرفة بالحقائق الدينية عموماً؛ لتتمكنوا من الشهادة عليها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة: ٤٤).

٢- الحكمة والرشد في التصرف، وعدم اتباع الهوى ونحوه من أسباب

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٦.

الانحراف، والسلوك بوسطية واعتدال من خلال الالتزام التفصيلي بالشريعة، وهي الملكة المعروفة بالعدالة نعم هو لا يصل الى العصمة لذا احتاج الشهداء من الأمة الى شهادة المعصوم عليهم ومراقبته لهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

٣- الخبرة والنضج في إدراك الواقع ووعي متطلبات المرحلة وتحدياتها من خلال المعايشة الحسية والاستفادة من التجارب، قال تعالى عن لسان عيسى بن مريم «عليه السلام»: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ (المائدة: ١١٧) فالشهادة تتطلب معايشتهم ومعاينة أعمالهم فلما غاب عنهم فقدَ شرطاً من شروطها، وروي عن الإمام الصادق «عليه السلام»: (العارف بزمانه لا تهجم عليه اللوابس)[1].

٤- توفر الملكات النفسية كالشجاعة والثبات والصبر وقوة العزيمة وعلّوا الهمة والتفاؤل التي تجعله كفؤاً لهذا المقام الشريف، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (ما ضعُف بدنٌ عمّا قويت عليه النية)[2]، وتترسخ هذه الملكات بالتعرض للابتلاءات والمحن.

وهذه المؤهلات تميِّز الشاهد عن باقي الأمة وتجعل له مقام المشاهدة لأفعال الأمة والإشراف على أعمالها كمن يشرف من علو فيكون محيطاً بما

(١) تحف العقول: ٣٥٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٤٠٠.

يجري تحت نظره، وسموا شهداء لمشاهدتهم الأعمال التي يشهدون بها.

وفي ضوء هذا المعنى فالآية الكريمة التي نحن بصددها تعني وعد المؤمنين بمنحهم مقام الشهادة اذا عرفوا هذه الحقائق التي استفدناها من الآيتين وأطمأنوا بها، والبشرية بحاجة الى هؤلاء القيمين على الدين والقائمين بإرشاد الناس وإصلاحهم، وتكون الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥).

ومن هذا المعنى يتحصل لنا وجه آخر لتسمية القتيل في سبيل الله شهيداً لأنه بتقديم نفسه قرباناً يدلي بأعظم شهادة على الحق الذي مضى عليه وقد شهد بها قتلى أحُد على الفارين من الزحف وعلى جميع الناس بحقيقة أن عصيان أوامر القائد الرباني تؤدي الى الهزيمة والخذلان والانكسار، وتستمر شهادتهم الى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٦٩).

وأعظم شهادة في هذا المجال شهادة الإمام الحسين (عليه السلام) فقد شهد بدمه وتضحياته بأهل بيته وأصحابه على حقانية هذا الدين وسموه وعلو قدره وبذل الغالي والنفيس في نصرته وحفظه ونشره، روى الشيخ الطوسي في الأمالي عن عبد الله بن سيابة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لما قدم علي بن الحسين عليهما السلام وقد قُتل الحسين بن علي صلوات الله عليهما استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقال: يا علي بن الحسين مَّن غلب؟ وهو مغطى رأسه وهو في

المحمل، فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: إذا أردت تعلم من غلب ودخل وقت الصلاة فأذن ثم أقم)[١]، أي اذا دخل وقت الصلاة وتشهدّت في آذانك وإقامتك لله بالوحدانية ولمحمد (ﷺ) بالرسالة ستعرف أن الحسين (عليه السلام) هو المنتصر وأن شهادته قد أدّت غرضها.

وقد اختار المعنى الأول للشهداء الشيخ الطوسي في التبيان بلحاظ سياق الآيات، واحتمل عدة مفسرين المعنيين ومنهم الطبرسي، واختار بعضهم الثاني خاصّة كالسيد الطباطبائي في الميزان باعتباره المعنى المستعمل[٢] في القرآن الكريم قال (قدس سره): ((وأما قوله: ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ فالشهداء شهداء الأعمال وأما الشهداء بمعنى المقتولين في معركة القتال فلا يعهد استعماله في القرآن، وإنما هو من الألفاظ المستحدثة الإسلامية، كما مر في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمه وسطاً لتكونوا شهداء﴾ (البقرة: ١٤٣) على أن قوله ويتخذ أيضاً لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين في المعركة كثير ملاءمة فلا يقال اتخذ الله فلاناً مقتولاً في سبيله وشهيداً كما يقال اتخذ الله إبراهيم خليلاً واتخذ الله موسى كليماً واتخذ الله النبي شهيداً يشهد على أمته يوم القيامة)) [٣]، ثم قال (قدس سره) بعد كلام: ((ويمكن أن يتأيد هذا الذى

(١) أمالي الطوسي: ٦/ ٧٧.

(٢) أما شهداء الحرب فقد ذُكروا بالقتل ولم يذكروا بالشهادة كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤) وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ٣٠، ط. الأعلمي- بيروت.

ذكرناه بقوله بعده : ﴿والله لا يحب الظالمين﴾).

وقال السيد السبزواري (قدس سره) في وجه التأييد: ((ولأن قوله تعالى: ﴿لا يحب الظالمين﴾ قرينة على أن المراد بالشهداء هم شهداء الأعمال أو من يصلح للشهادة على الأمم يوم الحساب)).

وفيه: أولاً: أنه خلاف سياق مثل هذه الآيات الشريفة، إذ لا ربط لقبول قول الشهداء في عداد بيان خصوصيات القتال والجهاد في سبيله.

وثانياً: إذا كانوا من الشهداء في الحق يكونون من الشهداء على الأعمال أيضاً؛ لما ذكرنا سابقاً من أن الشهداء في سبيل الله لهم مقام الشهادة على الأعمال والشفاعة؛ لما ابتلوا بالصبر والإيثار ببذل النفس.

وثالثاً: إن قوله: ﴿لا يحب الظالمين﴾ تفصيل بين الشهداء في الحق، فهم ممن أحبّهم الله تعالى واتخذهم وارتضاهم، وبين من قُتل في غير الحق.

ورابعاً: إن استعمال الشهداء بمعنى المقتول في المعركة مطابق للقواعد العربية الفصيحة، فلا محذور في وروده في القرآن الكريم، فليكن المقام من ذلك)) [(١)].

أقول: يمكن أن يراد كلا المعنيين باعتبار انطباق العنوان عليهما كما أوضحنا، وأن المورد لا يخصِّص الوارد، وعدم صحّة إخراج معنى القتل في سبيل الله لأنه محل الكلام، وإن المصطلح موجود في الأحاديث النبوية الشريفة[(٢)] فهو مستعمل في عصر نزول القرآن، بل يمكن استظهاره من بعض

---

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: للسيد عبد الأعلى السبزواري: ٦/ ٣٦٩-٣٧٠، ط. الخامسة.

(٢) راجع الجزء الثالث من كتاب ميزان الحكمة، ويمكن أن يُنسب إلى الآيات الشريفة.

الآيات الكريمة كقوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً﴾ (النساء: ٧٢) بتقريب أن فرحهم كان لأجل أنهم لم يقتلوا في المعركة، مضافاً إلى أن أمثال هؤلاء الناس لا يمكن أن يفهموا من الشهادة معنى القيمومة على الأمة فالأقرب أنهم يقصدون المقتولين في سبيل الله في المعركة بعد أن صارت تسميتهم بالشهداء تعبيراً عرفياً في المجتمع المسلم فلا وجه لاستبعاده.

وقد دلّت الأحاديث الشريفة على أن مصاديق الشهيد واسعة جداً لا تقتصر على القتل في سبيل الله تعالى كرماً من الله، قال الإمام الحسين بن علي «عليه السلام»: (لو لم تكن الشهادة إلا لمن قتل بالسيف لأقلَّ الله الشهداء)، ومن المصاديق الواسعة للشهيد ما ورد في الحديثين المتقدمين (صفحة ٤) عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وروي عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قوله: (ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر[١] فعفَّ)[٢]، وروي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (من مات على حبِّ[٣] آل محمد مات شهيداً)[٤]، وفي حديث الإمام زين العابدين «عليه السلام»: (من مات على موالاتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله أجر ألف

(١) أي قدر على فعل المعصية أو على خصمه لكنه أتقى الله تعالى فانتصر على هواة وميله النفسي وعفَّ فعل الحرام.

(٢) نهج البلاغة الحكمة: ٤٧٤.

(٣) لا بد أن نفهم من الحب المقترن بالطاعة والإتباع (إن المحبَّ لمن أحبَّ مطيع) وليس مجرد الحب العاطفي.

(٤) بحار الأنوار: ٦٨/ ١٣٧، ح ٧٦.

شهيد مثل شهداء بدر وأحد)[١]، وروي في مجمع البيان عن منهال القصاب قال: (قلت لأبي عبد الله «عليه السلام» ادع الله أن يرزقني الشهادة، فقال: ان المؤمن شهيد، وقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الحديد: ١٩))[٢]، ووردت في الأحاديث الشريفة مصاديق أخرى كالمرأة التي تموت أثناء الولادة ومن مات غرقاً أو بسبب الطاعون والمواظب على آية الكرسي دبر كل صلاة وعلى سورة الكهف كل ليلة جمعة[٣] وغير ذلك[٤].

إن الشهادة لا تتحقق إلا بإخلاص العمل لله سبحانه وأن يُقدِم حينما يريد منه الله تعالى الإقدام، ويتأخر عندما يريد الله تعالى له ذلك من خلال طاعة القيادة الربانية الرشيدة التي افترض الله تعالى طاعتها، وليس تبعاً لهواه واندفاعه وحماسه أو تعصباً أو لجماعة أو حباً بشخص أو طمعاً في الدنيا أو غير ذلك، روى الشيخ الطوسي في أماليه بسنده عن الإمام الرضا (عليه السلام) عن أبيه الكاظم (عليه السلام) عن آبائه (صلوات الله عليهم أجمعين) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث قال: (إنما الأعمال بالنيات، ولكل أمرئ ما نوى، فمن غزا ابتغاء ما عند الله فقد وقع أجره على الله عز وجل، ومن غزا يريد الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلا ما

---

(١) بحار الأنوار: ٨٢/ ١٧٣، ح٦.

(٢) مجمع البيان: ٩/ ٣٥٩.

(٣) ثواب الأعمال:١٠٧

(٤) راجع الأحاديث في ميزان الحكمة: ٤/ ٥١٢.

نوى) [١] وقال (ﷺ) (كم ممن أصابه السلاح ليس بشهيد ولا حميد، وكم ممن قد مات على فراشه حتف أنفه عند الله صديق شهيد) [٢].

إن للشهادة قيمة كبرى في الإسلام لا يضاهيها شيء من الطاعات بحسب الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة كما في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩) فالشهداء بعد مرتبة النبيين والصديقين، وروي عن النبي (ﷺ) قوله: (فوق كل ذي بر برّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر)[٣].

وقد تتفاوت درجات الشهداء بحسب نوع العمل وظروفه ودرجة الصدق والثبات فيه كالمروي في تفاوت درجة القادة الشهداء في مؤته فإن عبد الله بن رواحه ليس في درجة جعفر الطيار وزيد بن حارثة (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين).

وتبلغ قيمة الشهادة ذروتها عندما تكون بسبب اتخاذ المواقف الحقّة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر في زمان دولة الجور والظلم والعدوان وانتهاك المقدسات فقد روي في الحديث الشريف عن رسول الله «ﷺ» لما سئل: يا رسول الله! أي الجهاد أفضل؟ قال: كلمة حق تقال عند ذي سلطان

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت): ج ١ - الصفحة ٤٩.

(٢) كنز العمال: ١١٢٠٠.

(٣) الكافي:٣٤٨/٢، ح ٤.

جائر)[١].

لقد كان السيدان الشهيدان الصدران (قدس الله سريهما) شهيدين بكل هذه المعاني فقد كانا بمرجعيتهما وعلمهما وعملهما وجهادهما ومواقفهما شهيدين على الأمة وحجتين عليها.

وكانا شهيدين لأنهما قتلا في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته.

وكانا شهيدين لأنهما أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وقالا كلمة الحق أمام سلطان جائر متجبر مستخف بالحرمات.

فعلى جميع الكتاب والمثقفين والفضلاء أن يهتموا بتدوين سير الشهداء ونشرها لتتعرف الأمة على السرّ[٢] الذي استحقوا أن يتخذهم الله شهداء، لأن الشهادة نفسها كرامة يمنحها الله تعالى لمن يشاء وليست بأيدينا وإنما علينا أن نعرف موجباتها (اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك) وطريق الوصول إليها

---

(١) ميزان الحكمة: ج ٣ – الصفحة ١٩٤٤.

(٢) فالحر الرياحي كمثال للتوفيق للشهادة العظيمة بين يدي الإمام الحسين (عليه السلام) مع أنه قضى عمره محارباً في جيش الدولة الاموية حتى أصبح قائداً عسكرياً كبيراً يتمتع بامتيازات ضخمة فلندرس سرّ توفيقه، ويمكن اكتشافه من قول الإمام الحسين (عليه السلام) عندما وقف على مصرعه (حرّ كما سمّتك أمّك حرّ) فانعتاقه من اتباع الشهوات وهوى النفس وطاعة الطواغيت والخوف من الموت الا مع الحق سبب توفيقه، ويمكن أن ينضّم اليه احترامه الكبير للسيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) وتقديره لها ويعرف ذلك من عدم ردّه على الإمام الحسين (عليه السلام) عندما اعترضه في الطريق وهو يقود ألف فارس وحصلت مشادة في الكلام وزجر الإمام (عليه السلام) بقوله: (ثكلتك أمك) ولم يردّ على الإمام (عليه السلام) مع إن الإمام (عليه السلام) و أهله كانوا في قبضته لأن أم الإمام عليه السلام هي فاطمة الزهراء(عليها السلام) سيدة نساء العالمين.

واستحقاقها لنتأسى بهم ونستفيد من تجربتهم والله ذو الفضل العظيم.

نسأل الله تعالى الرحمة والرضوان لشهداء الإسلام وأن يبلّغهم المقام المحمود الذي وعدهم إنه سبحانه لا يخلف الميعاد ولا يضيع أجر من أحسن عملاً.

القبس/١٩٠

النساء: ١٤٨

﴿لا يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾

موضوع القبس: مسؤولية الاعلام والنشر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ (النساء: ١٤٨)، وتبيّن الآية أدباً من آداب الإسلام في عدم جواز إظهار عيوب الناس ومثالبهم حسداً أو تشفياً أو فضولاً أو مجاملة ونحو ذلك، لما فيه من مفاسد كثيرة سنشير إليها ان شاء الله تعالى، وهذا الأدب فيه تأسٍّ بصفة من صفات الله الحسنى وهو ستّار العيوب.

﴿لا يُحِبُّ﴾ تعبير آخر عن المبغوضية، فما لا يحبّه الله يعني أنه مكروه عنده سبحانه ولا يريده، لعدم وجود منطقة رمادية تحتمل الأمرين كما عندنا نحن البشر؛ لأنها نابعة من الجهل أو الضعف أو المداهنة ونحو ذلك من الأسباب التي يتنزّه الله سبحانه عنها، ومحبّة الله تعالى ثوابه وحسن جزائه، وبغض الله تعالى عقابه وعدم استحقاق رحمته، لتنزهّه تعالى عن الحب والبغض الموجود في المخلوقات الا انه تعبير كنائي عن الإرادة وعدم الإرادة باعتبار ان الحب والبغض هما باعثان لهما.

﴿الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ﴾ إعلانه واظهاره وإذاعته ونشره وإطلاع الناس عليه، وبالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ كل كلام سيئ في نفسه أو يسوء الآخر، وهو هنا مطلق يشمل كل قبيح على مستوى الفرد أو المجتمع، فمن الجهر بالسوء على صعيد

الأفراد إيذاء الآخرين بكلمات جارحة، أو الافتراء عليهم واتهامهم بأمور هم بريئون منها، أو نقل أخبار عن أشخاص وترويجها لمجرد أنه رآها في بعض مواقع التواصل الاجتماعي والقنوات الإعلامية من دون تثبت وتحقيق، ومنه أيضاً النشر العلني لكلام قاله شخص في مجلس خاص ولا يرضى بنشره، أو فضح شخص فعل سيئة سرّاً أو مجلس خاص فسرّبها أحدهم ونشرها، روى في تفسير العياشي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (الجهر بالسوء من القول أن يذكر الرجل بما فيه)[1].

أقول: أما ذكره بما ليس فيه فهذا بهتان عظيم.

ومن الجهر بالسوء التنابز والتعيير بالألقاب والأنساب والانتماءات كالقومية أو اللون أو العشيرة أو المدينة أو المهنة أو الشريحة الاجتماعية التي تؤذي صاحبها، روى الشيخ الكليني بسنده عن عمرو بن نعمان الجعفي قال: (كان لأبي عبد الله عليه السلام صديق لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكاناً، فبينما هو يمشي معه في الحذّائين ومعه غلام له سِنديّ يمشي خلفهما إذا التفت الرجل يريد غلامه ثلاث مرات فلم يره فلما نظر في الرابعة قال: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ قال: فرفع أبو عبد الله عليه السلام يده فصكّ بها جبهة نفسه، ثم قال: سبحان الله تقذف أمه! قد كنتُ أرى أن لك ورعاً فإذا ليس لك ورع، فقال: جُعلت فداك، إنّ أمّه سندية مشركة، فقال: أما علمت أن لكل أمة نكاحاً، تنحَّ

(١) تفسير العياشي: ج ١ ص ٢٨٣. إذا قرئ (يذْكر) فهذا تعريف الغيبة، وبالتشديد (يذكّر) فهو من التعيير والتحقير، وكلاهما من السوء.

عني، قال: فما رأيته يمشي معه حتى فرّق الموت بينهما. وفي رواية أخرى: إن لكل أمة نكاحاً تحتجزون به من الزنا)[١].

أقول: عاقبه الإمام (عليه السلام) بهذه المقاطعة القاسية لإنه قال كلمة مسيئة تؤذي الآخر، وهو يظنّ أنها كلمة حق باعتبار ان أم العبد كانت مشركة فلم تتزوج بنكاح الإسلام فتكون زانية.

ومن الجهر بالسوء على صعيد المجتمع نشر الضلالات والشبهات والعقائد المنحرفة، والتشكيك في العقائد الحقة، وترويج الأخبار المكذوبة، وكل ما يدعو إلى الفسق والفجور والانحراف، أو ما يثير الفتن ويمزّق المجتمع، أو الدعوة إلى أشخاص غير صالحين وتحبيبهم إلى الناس.

ومن الجهر بالسوء إسباغ الصفات المقدّسة والألقاب العظيمة لمن لا يستحقها، والمدح والثناء بأعمال لم يقم بها، فعلى الممدوح أن يرفضها ويستنكرها، فقد روى القمّي في تفسيره عن الإمام (عليه السلام) قال: (إن جاءك رجل وقال فيك ما ليس فيك من الخير والثناء والعمل الصالح فلا تقبله منه وكذّبه، فقد ظلمك)[٢].

وإنما حُرِّم الجهر بالسوء لأنه سبب نشر العداوة والبغضاء والحقد في أوساط المؤمنين مما يؤدي إلى تنازعهم وتفرّقهم وتمزّق وحدة المؤمنين، ولأن الجهر بالسوء يشجّع ضعاف النفوس على إشاعة الفحش والكلام البذيء

---

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٢٣.

(٢) تفسير القمي: ١٤٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

فلا بد أن يلتفت من لا يتورع عن نشر القول السيئ إلى أنه يمكن أن يوصل المجتمع إلى هذه النتائج.

ومن المؤسف ان نجد أكثر الأخبار رواجاً لدى المتابعين هي أخبار الفضائح والتسقيط (ونشر الغسيل) كما يعبّرون فتحولت هذه الوسائل من التواصل الاجتماعي إلى التقاطع الاجتماعي بسوء تصرف الناس وظلمهم لأنفسهم.

﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ فإنّ الله تعالى أذن له في الرد على الظالم وكفل له حق التظلّم، وإنّ من دافع عن نفسه، ونفى افتراءات نسبت إليه وفضح مكائد ظالمٍ له، وذكر مظلوميته عند من يرجوه لرفع الظلم عنه لا يكون فعله مبغوضاً وهو مستثنى من حرمة نشر فضائح الناس وإذاعة ما أسرّوه من ظلم وسوء ولا حرمة لمثل هذا الظالم،وإن في التشهير به إذلالاً له واسقاطاً لسمعته بين الناس حتى يتوقف من يفكر بالظلم عن فعله ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٤١-٤٢)، بل قد يكون المبغوض عدم دفاع المظلوم عن نفسه واستكانته وخنوعه للظلم والبغي؛ لذا مدح الله قوماً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشورى: ٣٩).

روى في مجمع البيان عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (فلا بأس للمظلوم

أن ينتصر ممن ظلمه بما يجوز الانتصار به في الدين)[١]، أي من دون أن يتجاوز حدود الحق، فلا يجوز اغتياب الظالم الا للمظلوم وفي خصوص مورد الظلم، ولذا انتهت الآية بقوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾(النساء : ١٤٨) فلا يغيب عنه ظلم الظالم ولا تجاوز المظلوم حقه.

وعلى هذا فإنه يمكن أن يفهم قوله تعالى ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ على عدة وجوه:

١- من وقع عليه الظلم فله أن يجهر بالسوء لدفع الظلم عنه وهو الأقرب لأنه المعنى الظاهر ولا يحتاج إلى تقدير وهو المروي كقوله (عليه السلام) في تفسير علي بن إبراهيم (أي لا يحب أن يجهر الرجل بالظلم والسوء ويظلم الا من ظُلِم فقد أطلق له أن يعارضه بالظلم)[٢].

٢- الا لمن ظُلِم: فيجب الدفاع عن كل مظلوم لا يستطيع رد الظلم وأخذ حقه.

٣- على من ظُلِم: وهو المظلوم الخانع المستسلم الذي لا ينتصر لنفسه.

واتضح مما تقدم ان ﴿مَن ظُلِمَ﴾ لا تختص بمن وقع عليه ظلم شخصي في نفسه أو ماله أو سمعته، وإنما تشمل الظلم النوعي، فالإلحاد ظلم لي أنا الموحِّد لله تعالى، والإساءة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو التحريف في الدين ظلم لي أنا المسلم، وتسخيف قضية المهدي (عليه السلام) أو الشعائر الحسينية ظلم لي أنا

(١) مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: ج ٣، ص ٢٢٥.

(٢) نور الثقلين: ١/٣٥٥ ح ٦٤٥

الموالي لأهل البيت (عليهم السلام)، ونشر المثلية وتحوّل الجنس ظلم لي أنا الإنسان ذو الفطرة السليمة، فعليَّ أن أنتصر وأدفع الظلم إذا وقع أي شيء من هذا، روي عن الإمام الباقر (عليه السلام): (ثلاثة ليست لهم حرمة: صاحب هوى مبتدع، والإمام الجائر، والفاسق المعلن الفسق)[1]، وروى الشيخ الكليني بسنده عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم، والقول فيهم والوقيعة، وباهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس ولا يتعلموا من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة)[2].

وقد استثنت الروايات أيضاً من حرمة قول السوء عدة موارد منها: لدفع الضرر عن المغتاب[3] ولنصح المستشير، والنهي عن المنكر وابطال شهادة الفاسق.

وقد شُرِّع هذا الاستثناء ليردع المجاهرين بالسوء، ويمنع اتكالهم على حرمة الغيبة فيفعلون ما يشاؤون ظلماً وعدواناً، وليكفل للمظلوم حقه في الدفاع عن نفسه، ولا تكون حرمة الغيبة سبباً لحرمانه من هذا الحق.

ولكي لا يحصل تنافي بين هذا الحكم وما ورد من استحباب العفو

---

(١) قرب الإسناد: ١٧٦ / ٦٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٤/ ص٢٠٢.

(٣) كالرواية الصحيحة التي وردت عن الإمام الصادق (عليه السلام) في ذم زرارة وهو من خيرة أصحابه ثم فسّرها الإمام (عليه السلام) بحمايته من السلطة الجائرة كخرق العبد الصالح لسفينة المساكين لدفع غصب الظالم لها.

والصفح لا بد أن نعرف لكل منهما مورده بحسب الأولوية، فقد يكون العفو والصفح والستر على فاعل السوء أولى في ندمه وتوبته، أو يكون في الجهر بالسوء على الظالم تشجيع له على التمادي في ظلمه لسقوط جلباب الحياء ونحو ذلك فلا يصح الجهر بالسوء، وقد يكون في الردّ عليه وفضحه علاج له لردعه وكفّه عن الظلم وفعل السوء وحينئذٍ يكون الجهر بالسوء راجحاً ولا يحمد العفو والسكوت.

بل قد يكون من المستثنى من ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ﴾ هو توبيخ وزجر المظلوم الذي لا يفعل ما يستطيع لدفع الظلم فإنه ليس من الجهر بالسوء توبيخ هذا المظلوم المتخاذل؛ لأن هذا الزجر والتوبيخ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما أقوى عون وناصر لدين الله تعالى وأوليائه العظام.

وجملة ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ﴾ لها مفهوم حاصله: أن الله تعالى يحب الجهر بالخير والمعروف والطيب من القول، وقد أشارت إليه الآية التالية: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(النساء:١٤٩)، قال تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤).

أرجو أن يكون يوم المنبر في الأول من صفر القادم فرصة لانطلاقة جديدة وقفزة في مشروع الدعوة إلى الله تبارك وتعالى

وأوليائه العظام، فالمصطلح يسمّيكم منصّة ونحن نسمّيكم منبراً للإسلام وللحق ولما فيه خير الإنسانية وصلاحها، ولابد من تكريس المنابر الإعلامية لهذه الأغراض النبيلة.

فائدة: الآية مما يستدل به على ان الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد في متعلقاتها، وانه عند التزاحم يقدَّم الأهم على المهم.

ويستدل بها على الرخصة في استعمال التقية، فإن مَنْ ظُلِم وهُدِّد وقُهِر له ان يجهر بالسيء من القول المخالف لعقيدته لكي يدفع عن نفسه الضرر.

ملحق / الثبات على الحق في زمان الفتن

روى الشيخ الصدوق (رضوان الله تعالى عليه) في إكمال الدين بسنده عن عبدالله بن سنان قال: (قال أبوعبدالله (عليه السلام): ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى ولا إمام هدى، لا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق، قلت: وكيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: يا الله يا رحمان يا رحيم، يا مقلّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك، فقلت: يا مقلب القلوب والأبصار ثبِّت قلبي على دينك، فقال: إن الله عزّوجل مقلِّب القلوب والأبصار ولكن قل كما أقول: يا مقلِّبُ القلوب ثبِّت قلبي على دينك)[1].

يرسل الإمام الصادق (عليه السلام) إلى شيعته في زمان الغيبة الكبرى هذه الرسالة ليُعِدَّهم ويدلّهم على طريق النجاة من الفتن التي ستعصف بهم، ولا يوجد بينهم إمام معصوم يرجعون إليه، وان وجدت علومهم (عليهم السلام) عبر الروايات التي نقلها أصحابهم البررة الا أنها اختلطت بالمكذوبة والمدسوسة والمحرّفة، واختلفت فيها الأنظار والاجتهادات والتأويلات، فأصبح تمييز الحق فيها ومعرفته صعباً، لا يهتدي إليه الا من بلغ أسنى المراتب العلمية، وحباه الله تعالى بنور البصيرة والفطنة، وجعل له فرقاناً يفرز الحق من الباطل والشبهات والضلالات.

وتفيد الرواية وغيرها ان الشبهات والفتن واقعة حتماً، وتزداد تعقيداً وصعوبةً كلما تقدم الزمان، واستحدثت وسائل شيطانية لم تكن معروفة من قبل

(١) بحار الأنوار: ١٤٩/٥٢ ح ٧٣

حتى بلغت ذروتها في زماننا الحاضر وهي تنذر بالمزيد من التسافل والانحطاط، فهذا واقع مفروض وإنما الكلام في الخطوة التالية وهي كيفية مواجهة تلك الفتن والخروج منها بسلام.

وقد علّمنا الإمام (عليه السلام) من خلال الدعاء هذه الكيفية، اذ الدعاء في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) ليس مجرد كلمات يحرّك الإنسان بها لسانه، وإن كان في ذلك ثواب لمن قرأها، وإنما يمثّل مدرسة تنهل منها الإنسانية العقائد الحقة والعلوم والمعارف النافعة والأخلاق الفاضلة، حيث كان الدعاء وسيلتهم لتزويد الأمة بها بعد أن ضيّق الطغاة عليهم الخناق.

والدعاء ليس مجرد طلب من الله تعالى بدون عمل، فمن طلب الرزق وجلس في بيته يلعب ويعبث يعدُّ ساخراً من نفسه، والمفروض أن يسعى ويتعرض للرزق، وكما قيل: خطوة من الرب وخطوة من العبد، فالإمام (عليه السلام) لما يعلّم هذا الدعاء يريد معه عملاً، ولما تقول في الدعاء (ثبت قلبي) لابد ان تسعى انت لتحصيل أسباب الثبات وموجباته.

فدعاء الغريق يبيّن أن النجاة من الفتن والشبهات تتحقق في الثبات على المبادئ الدينية التي تؤخذ من العين الصافية، وعدم الانجرار وراء الشعارات والادعاءات، فانها تُرفع للوصول إلى المآرب الدنيوية، فإذا حصل أصحابها على ما يبتغون داسوا تلك الشعارات بأقدامهم، لذا ورد في رواية أخرى وكأنها تشرح هذه حين سأله الراوي (فكيف نصنع جُعِلتَ فداك حينئذٍ؟ قال (عليه السلام):

اذا كان ذلك فتمسّكوا بما في أيديكم حتى يصَّح لكم الأمر)[١]، أي لا تخوضوا مع الخائضين ولا تندفعوا تحت ضغط السلوك الجمعي ولا تتحركوا وفق الاهواء والامزجة والتعصبات، وانما عليكم التثبّت من أي أمر.

وذلك بالتمسك بسفن النجاة التي تخلّصكم من أمواج الفتن العاتية وبدونها، فأنكم تغرقون في تلك الأمواج وتخسرون الدنيا والآخرة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة)[٢].

وسفن النجاة التي تتمسكون بها، والعين الصافية التي تأخذون منها مواقفكم إزاء مختلف القضايا، هم المعصومون (عليهم السلام) في زمان الحضور، ونوابهم بالحق في زمان الغيبة، وهم مراجع الدين العاملون المخلصون العارفون بحقائق الأمور ولوابس الزمان، فاثبتوا على ما يرشدوكم إليه، ولا تزيغوا عنه طرف أنملة فأنه يؤدي إلى الهلاك، وأضرب لكم مثالاً مما يفعله بعض المغامرين حيث يربطون حبلاً بين قمتي جبلين أو بين برجين شاهقين من ناطحات السحاب ويعبرون عليه مشياً، فلابد أن يحافظوا على اتزانهم بأقصى دقة لأن أي ميلان يعني وقوعهم في وادٍ سحيق وتحطمهم، ولتحقيق ذلك يستعينون بعصا طويلة يمسكونها من وسطها يحفظون بها توازنهم، ونحن بحاجة إلى دقة أكبر من هذه للثبات على الحق، لأن الصراط المستقيم الذي يعبر على وادي جهنم للوصول إلى الجنة وصفته الأحاديث بأنه (أدق من الشعرة وأحدّ

---

(١) بحار الأنوار: ١٣٣/٥٢ ح ٣٧.

(٢) بحار الأنوار – الجزء: ٢٨ صفحة٢٣٣.

من السيف)[١] فمن لا يحفظ استقامته عليه يسقط في جهنم والعياذ بالله تعالى.

فيا أيها الأحبة: لا تخدعكم الشعارات الرنانة والمصطلحات الخادعة، ولا يدفعكم الحماس والتهريج والسلوك الجمعي إلى فعلٍ لم تتبين لكم الحجة الشرعية، كما قال الإمام (عليه السلام) في الحديث السابق (حتى يصحّ لكم الأمر) فأن الله تعالى قال ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس: ٣٢).

وفي الرواية فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهي النهي عن إضافة شيء إلى الدين سواءاً على مستوى الدعاء أو الزيارة أو الشعائر، فأن الراوي أضاف كلمة (الأبصار) وهي حق لأن الله تعالى مقلب القلوب والأبصار كما في قوله تعالى ﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٧) الا ان الإمام (عليه السلام) نهاه عن إضافتها حيث لم يقلها (عليه السلام) في الدعاء، واذا كانت مثل هذه الإضافة منهياً عنها وهي في نفسها حق، فكيف بمن يصطنع قصصاً وروايات عن أهل البيت (عليهم السلام) ومصائبهم لأجل تعظيم مناقب أهل البيت (عليهم السلام) بزعمهم أو ابكاء الناس أو يبتدع طقوساً ويسميها شعائر، أو يصوغ زيارة من عنده أو يشيّد قبوراً لم تثبت نسبتها إلى أصحابها بحجة شرعية وهكذا، فلنحذر من هذه الأفعال المنهي عنها.

---

(١)بحار الأنوار: الجزء: ٨، الصفحة: ٦٥.

القبس/١٩١

المائدة: ﴿٦٤﴾

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾

موضوع القبس: المسلمون وحرب الجيل الخامس... العراق انموذجاً

الآية من سورة المائدة التي تتكفل بشكل رئيسي تنظيم الأمة الإسلامية من الداخل ورسم علاقاتها مع الآخرين والتحذير من مكائد ودسائس اعدائهم.

وهذا الجزء من الآية يبين أن أعداء الإسلام سوف لا يتوقفون عن إشعال نار الحروب ضد المسلمين، وسوف يستمرون بتأجيج نيران الحروب على المسلمين بكل اشكالها، وإمدادها بما عندهم من وقود مادي ومعنوي، للقضاء على هذا الدين العظيم الذي منّ الله تعالى علينا به كأعظم هبة للإنسانية لكن الله تعالى يخيّب مساعيهم ويبطل مكرهم، روى العياشي في تفسيره عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله في تفسير الآية (كلما أراد جبّار من الجبابرة هلكة آل محمد (عليهم السلام) قصمه الله تعالى)[1].

وشُبهّت الحرب بالنار لأنها مثلها تلتهم وجودات الناس الجسدية والروحية بحسب نوع الحرب المستعرة.

ولعل تشبيه الحرب بالنار لأن بواعثها ودوافعها نيران في باطن الإنسان، كنار الحقد والحسد والتعصب والطمع والشهوة.

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ٣٣

أو لأن هذه الحروب ستتجلى في حقيقتها نيراناً تحرق موقديها ومؤججيها ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (البقرة: ٢٤)

وتشير بقية الآية إلى صفة أخرى راسخة في اعداء الاسلام وهي نشر الفساد في الارض ولعلها هي سبب اشعالهم المستمر للحروب، قال تعالى ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة:٦٤) والسعي هو السير السريع، فهم يجتهدون في تدبير المكائد والخطط والفتن وهي كثيرة ومتنوعة لإفساد أهل الأرض حتى يسيطروا على العالم، ولكن الله تعالى لا يدعهم وشأنهم بل يخيب مساعيهم لأن الله تعالى لا يحب المفسدين لذا فانه تعالى ينصر عباده العاملين لإحلال الصلاح بدل الفساد بشرط أن يباينوا عمل المفسدين ولا يجاملونهم ولا يصانعونهم لأن المؤمن يُحبُّ من أحبَّ الله ويبغض من أبغض الله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة:٦٤).

ويشير هذا التعليل الى إن حرب الإسلام مع اعدائه هي حرب الصلاح على الفساد وليست حرباً عنصرية ولا قومية ولا طائفية ولا عرقية ولا لمصالح سياسية أو اقتصادية.

وقد تكفّل الله تعالى بأن يطفئ نار حقدهم وعدوانهم وحروبهم كلما أشعلوها ما دام المسلمون ملتزمين بما عاهدوا الله تعالى من التمسك بدينهم وأقاموا الإسلام في حياتهم ورجعوا الى ربهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحج:٣٨) ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧) ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا

يُنْصَرُونَ﴾ (آل عمران:١١١) .

وقد صدقت الآية في إخبارها فيما يتعلق بالحروب التي أشعلها مشركو قريش واليهود وقبائل العرب فقد أطفأها الله تعالى ونصر رسوله (ﷺ) وأعزّ جنده.

والاعداء يعلمون هذه الحقيقة لأنهم درسوا أوضاع المسلمين وسيرة قادتهم وعرفوا أن سر انتصارهم هو التمسك بدينهم والإخلاص لربّهم، لذا فهم يعملون بكل ما أوتوا من إمكانيات ومنها تسخير عملائهم وادواتهم في بلاد المسلمين من اشخاص ومؤسسات وحكام لتمييع العقيدة في قلوب المسلمين وتمزيق وحدتهم وإذكاء الصراعات والخلافات بينهم بإثارة التعصب للانتماءات المختلفة السياسية أو العشائرية أو القومية أو المناطقية أو الطائفية، وإشاعة الفساد والانحلال، لذلك فأنهم كلما تعرّفوا على مزيد من الحق والقوة والحجة لدى المسلمين ازدادوا حقداً وعداءً وظلماً ، قال تعالى في جزء سابق من الآية ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (المائدة:٦٤)، لأنهم يعرفون أنه الحق وان سبب معاداتهم للمسلمين لأنهم على الحق.

إذن فتحقق وعد الله تعالى بإطفاء نيران حروبهم يتطلب ورعاً واجتهاداً، وتضحيةً وثباتاً، ووعياً وبصيرةً، لأن سنة الله تعالى جرت بدفع عدوان الناس على بعضهم وفسادهم في الأرض بمواقف شجاعة حازمة واعية من المؤمنين وليس بمعجزات الا في حالات استثنائية تتطلبها كجعل النار برداً وسلاما على

إبراهيم (عليه السلام)، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١).

فمثلاً حرب التشكيك في العقائد وإلقاء الشبهات في الدين أو تشويه صورة قادة الإسلام أو التضليل ونشر الفساد والانحراف واجهها القرآن الكريم والمعصومون (عليهم السلام) بالحجج والبينات الدامغة الكافية لإطفاء تلك النيران، ولكن على المسلمين ان يتسلحوا بالعلم والمعرفة والتفقه في الدين والتدبر في تلك الحجج والبينات لينتصروا في تلك الحرب بنصر الله تعالى.

واذا غاب هذا الشرط لا تتحقق هذه السنة الإلهية لذا نرى الأعداء يحققون نصراً هنا أو هناك في فترات محدودة من الزمن لكن النصر النهائي يكون للمؤمنين، فالإشكال على الآية الكريمة بأننا نراها خلاف الواقع ناشئ من النظرة الضيقة المحدودة في أفق الزمن، وعدم فهم أهدافهم الحقيقية في السيطرة على العالم والتحكم بأمور البشر لنقيس على أساسها النجاح والفشل فانهما يقاسان على أساس تحقق الغرض وعدمه.

ومن علائم فشلهم ان الإسلام يغزوهم في عقر دارهم بمواجهة ناعمة ويستغيث كبراؤهم من ضياع هويتهم وثقافتهم ويقولون متهكمين ان أوروبا ستنضّم إلى منظمة الدول الإسلامية عما قريب، وتقول احصائياتهم الأخيرة مطلع عام ٢٠٢٢ ان ثاني أكثر أسماء مواليد البريطانيين شيوعاً هو أسم (محمد).

ولعل جواباً آخر يتحصل من قول السيد الطباطبائي (قدس سره) (والآية على ما يدل عليه السياق تسجّل عليهم خيبة المسعى في إيقاف النيران التي يوقدونها

على دين الله سبحانه، وعلى المسلمين بما انهم مؤمنون بالله وآياته، واما الحروب التي ربما أمكن أن يقودوا نارها لا لأمر الدين الحق بل السياسة أو تغلب جنسي أو ملّي فهي خارج عن مساق الآية)[١].

ويشير الجزء السابق من الآية الى شكل من اشكال النصرة الإلهية الموجبة لإطفاء نار حروبهم على المسلمين، بإلقاء الاختلاف بينهم قال تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (المائدة: ٦٤) وفي آية أخرى ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (المائدة: ١٤) وهذا الاختلاف والتنازع نتيجة طبيعية لتوجهاتهم المادية وأنانياتهم وعدم تورعهم عن ارتكاب أي وسيلة لتحقيق أهدافهم وحب الاستعلاء والسيطرة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ (الحشر: ١٤) .

إن كل هذه الألطاف الإلهية تؤكد حقيقة ان المؤمنين هم بعين الله تعالى وانه تبارك وتعالى معهم ويدبّر شؤونهم، وإن نسبت هذه التدابير غفلةً أو جهلاً أو عناداً إلى الحظ أو الصدفة وغيرهما، وهذه الألطاف الإلهية من الرعاية الخاصة غير تسيير الخلق بعنايته تعالى وسننه وقوانينه، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم وحلّ العقود ونقض الهمم)[٢].

واغراض الحروب وأهدافها وإن كانت ثابتة تقريباً منذ القدم وهي التي ذكرناها الا أن أنماطها مختلفة من حيث خططها وميادينها والتقنيات والأدوات

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٦/٦

(٢) نهج البلاغة: القسم الرابع، الحكمة ٢٥٠

المستعملة فيها وآثارها وتداعياتها وهي متغيرة بحسب التغيرات في عالم البشر..

وقد صنف المختصون في العلوم الحربية الحروب إلى عدة أجيال تطورت اليها عبر التاريخ بلحاظ المتغيرات الآنفة.

فالجيل الأول: هي الحروب القديمة بالسيف والرمح والسهم واستخدام الخيول والعربات والمعدات الحربية الأخرى وقد امتدت إلى العصور الوسطى.

والجيل الثاني: هي حروب الأسلحة النارية والمدفعية.

ثم تلاهما الجيل الثالث والرابع ويختلف معها من حيث الخطط والأدوات التي تعتمد إنهاك العدو واستنزاف قدراته المادية والمعنوية حتى ترغمه في النهاية على الانصياع لشروط المنتصر وتُستخدم فيها الاتصالات والإعلام والحرب النفسية والطابور الخامس وحرب العصابات وإضعاف الثقة بالنفس وبالقيادة فلا يوجد للحرب ميدان واحد كما في الجيلين الأول والثاني.

ويعيش العالم اليوم حرب الجيل الخامس، وقد أُلّفت كتب ونشرت مقالات في خصائص هذا الجيل من الحروب وآلياته وتأثيراته.

أدوات الحرب الناعمة:

ويمكن أن نشير إلى عدد من واجهات هذه الحرب وأدواتها ليلتفت المسلمون إلى الأخطار التي تواجههم، وليعرفوا ان هذه الحالات والأوضاع المأساوية التي يمرون بها ليست ظواهر جزئية مشتتة حصلت قضاءً وقدراً وإنما هي خطط في منظومة كاملة من إدارة الصراع يتحالف القائمون عليها من أجل تحقيق أهدافهم مع أنظمة رسمية أو كيانات غير رسمية كفصائل المتمردين

والجماعات القومية أو الانفصالية أو القبلية ومؤسسات ووسائل إعلامية وعصابات خارجة عن القانون.

ومن أدوات هذه الحرب:

١- الغزو الثقافي والفكري لتغيير طرق تفكير الناس وطمس هويتهم وانقلاب المفاهيم عندهم بحيث يرون مبادئهم ومعتقداتهم واخلاقهم تخلفا ورجعية وكبتاً وتضييقاً للحريات الشخصية ونحو ذلك حتى تتحقق تبعيتهم لثقافة العدو وافكاره ونظرته الى الحياة ويصبح العوبة تسيّرها أيدي الاعداء وهو ما حذّر الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) أمته منه بقوله: (كيف بكم اذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً)[1]

٢- تمزيق وحدة المجتمع ونسيجه بإثارة التعصبات الطائفية والقومية والجغرافية والعشائرية والسياسية وسائر الانتماءات الأخرى حتى على مستوى مباريات كرة القدم التي تؤجج صراعات مقيتة حتى تستنزف قدراته وتشغله بهذه الصراعات الهامشية والمناكفات التافهة عن العدو الحقيقي الذي يسعى للقضاء عليهم.

٣- تغذية الارهاب والترويج له لخداع مزيد من الشباب الضائعين ودعم الجماعات الارهابية مادياً ومعنوياً وتيسير وصول المخدوعين الى المناطق التي يحددونها للصراع وهي بلاد المسلمين خاصة وهم بذلك يحققون اهدافاً عديدة: إضعاف النظام السياسي في بلاد المسلمين لإجباره على

---

(١) التهذيب ج٦، ص ١٧٧، ح ٣٥٩

الخضوع لإرادتهم وتنفيذ سياساتهم ، واستنزاف قدرات المسلمين في هذه الصراعات، وخلق فتن وازمات تمزقهم من خلال تبادل الاتهامات وتحشيد كل طرف ضد الآخر للدفاع عن هويته ووجوده، وتخليص بلادهم من وجود هؤلاء الارهابيين والتكفيريين والقاء شرهم على اخوانهم المسلمين.

٤- الحرب الاقتصادية من خلال المقاطعة وفرض الحصار الاقتصادي وخلق أزمات اقتصادية تزيد من نسبة الفقر ولا يجد الشعب ما يسدُّ رمقه واغراق الدولة بالديون فتضطر الحكومة الى إيقاف برامج التنمية والرفاهية والخدمات الأساسية فيؤدي ذلك إلى رهن القرار السياسي بإرادة المستكبرين وفرض سياسات تخدم مصالح الدول المتحكمة من خلال المؤسسات الدولية المالية المانحة للقروض بشروط والتحكم بالسوق من خلال الاحتكار أو اغراقه بالبضائع مما يؤدي إلى إيقاف عجلة العمل وتعطيل الإنتاج فيرهق ميزانية الدولة بالاستيراد وارتفاع معدل البطالة مما يسبب اختلالات اجتماعية كبيرة تكون سبباً للجرائم والسرقات.

وتدخل في هذا الصنف الحرب المالية أيضاً بتخفيض قيمة العملة الوطنية وإضعافها حتى تفقد قدرتها التنافسية مع العملات الأخرى وتزداد اسعار المواد الغذائية والاساسية فيعجز المواطن عن تلبية احتياجاته ويؤدي الى كساد السوق وتسريح العاملين وتفشي البطالة والفقر، وهذا ما حصل في العراق مع بداية عام ٢٠٢١.

٥- حرب المياه التي هي شريان الحياة والتنمية والاستقلال، وشحة المياه تؤدي الى تهديد الأمن الغذائي وفقدان الاستقرار والحياة الكريمة ويؤدي الى

انحسار الزراعة وازدياد البطالة والاستيراد من الخارج وما يترتب على ذلك من اخطار جمّة.

٦- الحرب البايولوجية باستخدام سلالات من الجراثيم والفيروسات لإحداث أمراض تهدد حياة البشر والحيوان والنبات وقد ابتلي العراقيون بهذه الأسلحة خلال عدة حروب عانوا منها خلال العقود الأخيرة.

٧- حرب البيئة: حيث استخدم سلاح التغييرات البيئية لتهديد الأمن البيئي واستقرار المنظومة الزراعية والبيئية بإحداث بعض الظواهر الطبيعية المصطنعة مما يحدث التلوث والتصحر والاحتباس الحراري وأمثالها من التغيرات البيئية الخطيرة.

٨- حرب المخدرات بترويج تجارتها وتعاطيها لتخدير العقول وتدمير الأجساد بواسطة عصابات ومافيات وهي أخطر الحروب وتستهدف الشباب بدرجة أساسية لتلقي بهم في أودية الضياع والهلاك وتقويض بنية المجتمع من أساسها وتحوّلهم من طاقات منتجة مثمرة إلى مجرمين، وقد اُستهدفت المجتمعات الإسلامية بهذا الداء الفتاك وانتشر في أوساطها ولازلنا نسمع يومياً بإلقاء القبض على عدد من تجار المخدرات بحيث يبلغ عددهم سنوياً بالألاف، فكم يا ترى عدد المتعاطين؟

٩- إقامة القواعد العسكرية بعنوان توفير الحماية من التهديدات الخارجية أو الإرهابية الا أنها سرعان ما تتحول إلى أداة لفرض الإرادة والتدخل في القرار السياسي والسيطرة على الثروات وتجنيد العملاء.

وبالنسبة للمعالجات ومواجهة هذا الجيل من الحروب فلا شك أنها تقع

بشكل رئيسي على مسؤولية الحكومة فان واجبها حفظ أمن الدولة والمواطن بكل اشكاله الشخصي والبيئي والغذائي والاجتماعي والاقتصادي وغيرها، من خلال إقامة الحكم الرشيد الذي ينال ثقة الشعب ويجعله مدافعاً عن حكومته ومسارعاً إلى المشاركة في الانتخابات ليختار الثلة الصالحة القادرة على حسن إدارة البلاد.

وهنا يبرز دور الحوزة العلمية والنخب المثقفة في توعية الشعب وتنبيهه الى هذه المخاطر وكيفية مواجهتها وقد لمسنا الآثار المباركة لإطلاق حملة مكافحة المخدرات خلال شعبان الحالي وفي الزيارة الشعبانية ولازالت مستمرة فعلينا تفعيل هذه المبادرات في جميع الاتجاهات ليتحقق وعد الله تعالى بإطفاء النيران التي يوقدها اعداؤهم، ولا شك ان شهر رمضان فرصة عظيمة للقيام بهذه المسؤولية بلطف الله تعالى وتأييده.

القبس/١٩٢

الأنعام: ﴿١٠٨﴾

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

تنزيه الأمة الإسلامية عن السب

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ﴿١٠٨﴾)

السبّ والشتم: ذكر الآخر ونبزه بما يُنقص قدره ويشين سمعته من الأوصاف القبيحة، وسبّهم لله تعالى ذكرهم له بما لا يليق بمقامه وقد سجّل القرآن الكريم جملة من مقولاتهم الباطلة كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ﴿٩١﴾)، وقيل: أن أصل السب القطع[١] لأنه سبب للقطيعة أو لأنه يقطع تقدم الآخر وانتشار صيته بذمّه ونسبة النقائص إليه، قال بعض المحققين: ((الأصل في هذه المادة: هو الحصر والحد بالنسبة إلى سعة شيء وانطلاقه واعتلائه، فيقال: سبَّه إذا قال فيه ما يوجب حصره ويمنع عن انطلاقه واعتلائه، والسبب هو ما يُتوصَّل به إلى شيء في مقام حصره والإحاطة به، فمعنى يسبّوا الله: أي يقولون فيه ما يوجب حصر مقامه وتحديد مرتبته وعلوّ شأنه))[٢].

---

(١) معجم مقاييس اللغة- ابن فارس: ٣/ ٦٣، جمهرة اللغة- ابن دريد: مادة (سبب).

(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم للمصطفوي: ٥/ ١٦.

قال في المفردات: ((السب: الشتم الوجيع، وسبّهُم لله ليس على أنهم يسبّونه صريحاً ولكن يخوضون في ذكره فيذكرونه بما لا يليق به ويتمادون في ذلك بالمجادلة فيزدادون في ذكره بما تنزّه تعالى عنه)).

والآية الكريمة تبيّن أدباً من آداب الإسلام الراقية لحفظ كرامة المجتمع المسلم ولتنزيهه عما يشين وهو الترفع عن سبّ الآخر والاكتفاء بدعوتهم إلى الحق بالحجة والبرهان على نحو قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥) والسبّ ليس من أساليبها حتى لو كان المقابل من الكفّار والمشركين فضلاً عمّن هو أقرب، لأن ذلك يستفزّهم ويدعوهم إلى الرد بما لا يليق بالخالق العظيم ظلماً وجهلاً منهم وحماقة وتعصّباً فينسبون إليه سبحانه النقص والتشبيه والظلم والعجز وغير ذلك تعالى الله عما يصفون، ويكون المؤمن سبباً في هذا التجّاوز عليه.

فالحكم ليس مبنياً على كون المشركين وآلهتهم يستحقون السب أو لا وإنما لترتب هذ الفعل المقيت، والله تعالى لا ينقصه هذا السبّ ولا يضرّه ولكن هذا الفعل وردة الفعل سيخلقان أجواءً متشنجة وعصبية تعيق هداية الآخرين لأنها تقطع طريق الحوار وتدفعهم الى العناد والمكابرة، ولا يريد الله تعالى لعبادة المؤمنين أي يكونوا سبباً لزيادة آثام الآخرين، وقد استفاد العلامة الطبرسي (قدس سره) من الآية ((دلالتها على أنه لا ينبغي لأحد أن يفعل أو يقول ما يؤدي إلى معصية غيره))[1] وقد يكون الشخص سبباً في سبٍّ والديه،

(١) مجمع البيان: ٤/ ٧٢.

روي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (من أكبر الكبائر أن يسبَّ الرجلُ والديه، قيل: وكيف يسبُّ والديه؟ قال (ﷺ): يسبُّ الرجل فيسبُّ أباه وأمه)[1] فلا بد من ضبط الانفعالات والتصرف بحكمة ودقة نظر لتأثيرات هذا التصرف وتداعياته.

ومن خالف هذا النهي واتبع حماسه وعاطفته فقد عصى الله تعالى، روى علي بن إبراهيم في تفسيره بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إنه سُئل عن قول النبي صلى الله عليه واله أن الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء، فقال كان المؤمنون يسبّون ما يعبد المشركون من دون الله وكان المشركون يسبّون ما يعبد المؤمنون فنهى الله المؤمنين عن سبّ آلهتهم لكيلا يسبّ الكفّار إله المؤمنين فيكون المؤمنون قد أشركوا بالله من حيث لا يعلمون فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾)[2] والشرك المقصود هو شرك الطاعة وليس شرك العبادة.

والمراد من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يمكن أن يكون على نحو الفاعل أو المفعول به فيشمل الداعي والمدعوِّين أي الكفار وآلهتهم، لذا فإن النهي عن السب يتسع إلى سائر الرموز المقدسة لدى الآخر لأنه سيدفعه إلى النيل من أولياء الله الصالحين، روى العياشي في تفسيره عن عمر الطيالسي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (سألته عن قول الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال: فقال: يا عمر هل رأيت أحداً

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٦ ح ٦.

(٢) تفسير القمي: ١/ ٢١٣ بواسطة البرهان: ٤/ ١٩.

يسبّ الله؟ قال: فقلت: جعلني الله فداك فكيف؟ قال: من سبّ ولي الله فقد سبّ الله)[١].

وقد دأب الأئمة المعصومون (عليهم السلام) على تربية شيعتهم على التعفّف عن السبّ، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله لبعض أصحابه لما سمعهم يسبّون أهل الشام: (إِنّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَ دِمَاءَهُمْ وأَصلِحْ ذاتَ بَينِنَا وَبَينِهم وَاهْدِهِم مِنْ ضَلالِهِم حَتّى يَعرِفَ الحَقَّ مَن جَهِلَه، وَيَرعَوي عَن الغيِّ والعُدوَانِ مَن لَهِجَ به)[٢]، وفي نقل: كرهت لكم أن تكونوا لعّانين شتامّين[٣].

أما سبّ المؤمن فهو من الكبائر، قال النبي (صلى الله عليه وآله) :(سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر)[٤]، وروي عنه (صلى الله عليه وآله) قوله: (سابّ المؤمن كالمشرف على الهلكة)[٥] وإذا تسابَّ شخصان فوزرهما على البادي، روي عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قوله: (البادي منهما أظلم ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يعتذر إلى المظلوم)[٦] وفي رواية (ما لم يعتدِ المظلوم).

---

(١) تفسير العياشي: ١/ ٣٧٣ ح ٨٠ بواسطة البرهان: ٢/ ٢٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٦.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٣/ ١٨١ بواسطة ميزان الحكمة: ٤ /١٣١.

(٤) كنز العمال: ٨٠٩٤، ٨٠٩٣.

(٥) كنز العمال: ٨٠٩٤، ٨٠٩٣.

(٦) الكافي: ٢/ ٣٦٠ ح ٤.

لذا كان من أعظم موبقات معاوية وجرائمه سنّه سبّ أمير المؤمنين (عليه السلام) وأمر عماله على الولايات بذلك، فقد أرسل معاوية كتاباً إلى عماله قال فيه: (ألا برئت الذمة ممن روى حديثاً في مناقب علي وأهل بيته، وقامت الخطبة في كل مكان على المنابر بلعن علي بن أبي طالب عليه السلام والبراءة منه والوقيعة في أهل بيته واللعنة لهم بما ليس فيهم عليهم السلام)[1]، وعمل بها الأمويون سبعين عاماً عدا فترة عمر بن عبد العزيز وهي سنتان حيث أمر برفع السبّ، وما وجدوا في علي مثلبة يسبونّه بها فافتروا عليه تهماً ليحرضوا الغوغاء عليه كاتهامه بقتل عثمان زورا وبهتانا وهم يعلمون براءته، روي إن أحدهم سأل مروان بن الحكم فقال: (بأنكم تقولون بأن علياً تهاون في قتل عثمان) قال مروان بن الحكم: (معاذ الله إن علياً بريء من دم عثمان كبراءة الذئب من دم يوسف) فقال له: (إذن لمَ تقولون ذلك؟) فقال مروان بن الحكم: (إن أمرنا لا يستقيم إلا بذلك)[2]، وروى عمرو بن علي بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام، قال: قال لي مروان: ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم، قلت: فما بالكم تسبّونه على المنابر؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك) [3].

وروى ابن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه، إذ

(١) بحار الأنوار: ٣٣/ ١٧٦.

(٢)الصواعق المحرقة: ص ٥٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١٣/ ٢٢٠.

جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتمّاً فانتظرته ساعة وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئتُ من عند أكفر الناس وأخبثهم! قلت: وما ذاك؟! قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت. ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه. فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه؟! مَلَكَ أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر! ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر. وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله! فأي عمل لي يبقى، وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلا دفناً دفناً)[1].

ويظهر من رواية جليلة عن الإمام الرضا (عليه السلام) أن كثيراً من روايات مثالب خصوم أهل البيت (عليهم السلام) هي من صنع اعدائهم ونشروها مع ما فيها من منقصه على كبرائهم لتصل الى شيعة أهل البيت (عليهم السلام) ويتداولونها، وتبيّن الرواية بدقة مسالك أعداء أهل البيت (عليهم السلام) لعزلهم وشيعتهم عن بقية الأمة وإثارة الناس عليهم من خلال دسّ ثلاثة أشكال من الروايات أحدها التي تسبّ الرموز المقدسة لدى الآخرين ليتلاقفها أتباع أهل البيت (عليهم السلام) بعاطفة

(١) شرح نهج البلاغة -ابن أبي الحديد: ٥/ ١٢٩، نقلاً عن كتاب الأخبار الموفقيات- للزبير بن بكار: ٤٦٢، ط. عالم الكتب.

وحماس واندفاع ويتحدثون بها فيتنفّر منهم الآخرون ويعزلونهم ويحاصرونهم ثم يكفّرونهم ويستحلّون دماءهم، وقد نهى النبي (ﷺ) عن ذلك بقوله: (لا تسبُّوا الناس فتكتسبوا العداوة بينهم)[(١)].

قال إبراهيم بن أبي محمود: (قلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله إن عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) وفضلكم أهل البيت وهي من رواية مخالفيكم ولا نعرف مثلها عنكم، أفندين بها؟ فقال: يا ابن أبي محمود لقد أخبرني أبي عن أبيه عن جده عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس، أي أعرف من تصغي إليه ولا تتبع إلا الحق (ثم قال الرضا عليه السلام: يا ابن أبي محمود إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على أقسام ثلاثة: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، يا ابن أبي محمود إذا أخذ الناس يميناً وشمالاً فالزم طريقتنا فإنه من لزمنا لزمناه، ومن فارقنا فارقناه، إن أدنى ما يخرج الرجل من الإيمان أن يقول للحصاة: هذه نواة، ثم يدين بذلك ويبرأ ممن خالفه، يا ابن أبي محمود احفظ ما حدثتك به فقد

---

(١) الكافي: ٢/ ٣٦٠، ح٣.

جمعت لك فيه خير الدنيا والآخرة)[١].

فمشاريع الأعداء في ذلك الزمان وفي كل زمان خفّية تنطلي على غير الفطن الذي أنار الله تعالى بصيرته وهي على ثلاثة أنحاء والهدف منها خلق قاعدة شعبية عاطفية مندفعة تتقبل كل طرح يعزّز هويتها ويميزّها عن الآخرين لأنهم يرون العلاقة مع الآخر صراع وجود، وهذا الصراع يستفيد منه بعض المتصدّين تحت هذا العنوان لترسيخ زعامتهم وهيمنتهم.

وبروايات التقصير يستفزّون المغالين المندفعين ويدفعونهم بعيداً باتجاه الغلو لأن المغالين يستمدون حماستهم من مخاصمة المقصّرين، فيخرج المغالون عن حدّ الوسطية والاعتدال الذي أمر الله تعالى به ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) ويعادون الجميع حتى إخوانهم في العقيدة إذا لم يشاركوهم في تطرفهم وهي نتيجة طبيعية لمن يعتمد الثقافة الحماسية غير المبنية على الدليل المعروف في المصطلح بالشعبوية.

درس قرآني في علمي السياسة والاجتماع:

وهذا درس عميق في علمي السياسة والاجتماع نستفيد منه لترشيد علاقتنا في بيتنا الداخلي ومع الآخرين، وقد عمل أعداء أهل البيت (عليهم السلام) كل ما بوسعهم للوصول إلى تطويق مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وجعل شيعتهم معزولين فلا ينتشر التشيّع رغم ما فيه من قابلية التأثير والإقناع (فإن الناس لو علموا

(١) عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٧٢.

محاسن كلامنا لاتبعونا)[1]، بل يؤدي إلى ردة فعل جاهلة حمقاء ضد شيعة أهل البيت (عليهم السلام) للانتقام منهم واستئصالهم.

فلا بد من الرجوع إلى القواعد التي رسمها الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) في التعامل مع الآخرين فإنه هو الحق ﴿فَمَاذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس: ٣٢).

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ١/ ٢٧٥.

القبس/١٩٣

الاعراف: ﴿٩٦﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

موضوع القبس: دعوة إلى إقامة دين الله تعالى وإتباع الأمناء عليه

سُنّة من سنن الله تعالى في خلقه تكشف عنها الآية الكريمة، وهي أن الناس[1] إذا آمنوا بالله تعالى وبما أنزل على رسوله (ﷺ) وتمسكوا بتعاليم الدين وثبتوا عليه، فإن الله تعالى سيفتح لهم بركات مادية ومعنوية من السماء والأرض كانت مغلقة عليهم، والتعبير بالجمع للإشارة إلى تنوع البركات وتعددها، هذا الفتح الذي قال عنه الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (فاطر: ﴿٢﴾).

وهذه البركات خاصة غير النعم العامة التي يفيضها الله تعالى على جميع خلقه سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، وبها يعيشون حياتهم ويتمتعون بها، وهي أيضاً غير النعم الذي يغدق الله تعالى بها على العاصين استدراجاً لهم ولقطع أعذارهم، فتكون وبالاً عليهم لأنها تكون سبباً في تماديهم وزيادة

(١) وهم أهل القرى الذين أرسل لهم الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) المشار إليهم في قوله تعالى قبل آيتين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ (الأعراف: ﴿٩٤﴾) والقرية الموضع الذي يجتمع فيه الناس.

آثامهم، قال تعالى في الآية السابقة ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(الأعراف: ٩٥).

وقد وصفت الآية الكريمة هذه النعم المفتوحة بالبركات وهي الخيرات الخالصة الطيبة التي تكون سبباً لحياة أفضل للناس مع ما فيها من الاستمرارية والنماء، وليست هي كالحسنة التي ذكرتها الآية السابقة فإن الحسنة ما يوافق طبع الإنسان وليس بالضرورة أن تكون خيراً له بل قد تكون وبالاً عليه كما في الاستدراج.

ومثاله اليوم الأمم الغربية فإنهم بعد أن خاضوا حربين عالميتين أهلكت عشرات الملايين منهم ودمّرت مدنهم، نشأ جيل في عافية ﴿حَتّى عَفَوا﴾ ورغدٍ من العيش وانهمرت عليه النعم، فأصبح همّه الانغماس في الشهوات والملذّات بلا حدود حتى أصبح يشرعن الشذوذ الجنسي ويبيح قتل أجنّة الحوامل، ويستحلّ إبادة الشعوب المستضعفة لاستعبادهم، ويظهرون عراة أمام الملأ، ويعبثون بما أنعم الله تعالى عليهم من الثمرات، وهم يظنون أنهم قد عُفوا[1] مما ابتُلي به آباؤهم.

وحينئذٍ بدأت تظهر عليهم النتائج السيئة لأعمالهم القبيحة من انهيار أخلاقي، وتفكك اجتماعي، وانقراض النسل، وأمراض فتاكة وجفاف، وأزمات في الاقتصاد والغذاء والطاقة، وخوف وقلق من المستقبل المجهول المحفوف

(١) وهو معنى آخر لقوله تعالى: ﴿حتى عفوا﴾.

بالمخاطر، قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(آل عمران : ١٧٨) وقال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾(الأنعام: ٤٤) وهذا سيكون حتماً مصير الدول المستكبرة الظالمة.

وقد بدأت الآية بـ﴿وَلَوْ﴾ لحثّ وترغيب الأجيال الحاضرة والمستقبلة على الإيمان والتقوى، وأخذ العبرة من الأمم السابقة التي كانت عاقبتها قاسية لأن أغلب الناس لا يتعظون، ولا يعون هذه الحقيقة فيهلكون أنفسهم ومجتمعهم، واقترنت (فتحنا) باللام لتأكيد النتيجة، فالآية الكريمة لا تتحدث عن حالة الأمم السابقة وعاقبة تكذيبهم فقط، وإنما ترشد لسنّة إلهية جرت فيهم وتجري في أمثالهم فتبشّر المؤمنين وتحذّر العصاة والكافرين؛ لأن الكون بكل أجزائه يسير في حركة منتظمة بحسب ما أراد الله تعالى، فمن انسجم معها من البشر تنعّم بها، ومن خالفها شقي بها، مثلاً مَن أراد أن يخالف قانون الجاذبية ويرمي نفسه من شاهق فإن الأرض ستجذبه وتتهشم عظامه.

ولأهمية التعرف على هذه السنة الإلهية فقد ورد التأكيد عليها في غير هذه الآية كقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٦٥- ٦٦) .

إذن إقامة الدين في حياة الناس وتمسكهم بالإيمان والعمل الصالح سبب أكيد للسعاد ورفاهية العيش في الدنيا، ونيل رضوان الله تعالى والنعيم في الآخرة، فالدين ليس أفعالاً عبادية يؤديها الإنسان بينه وبين الله تعالى بمعزل عن الواقع بل إنه قانون لتنظيم حياة الإنسان مع الكون كله.

لقد احتجّت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على أصحاب أبيها بهذه الآية الكريمة رحمةً بهم وشفقة عليهم لأنها تعلم بأن ما يحصل في ذلك اليوم إيجاباً أو سلباً سيزلزل الأرض جميعاً ويرسم خارطة مستقبل البشرية جمعاء إلى قيام الساعة، فطالبتهم بالوفاء ببيعتهم لأمير المؤمنين (عليه السلام) التي أخذها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم يوم غدير خم، وأنهم إن التزموا بها فتح الله تعالى عليهم بركات من السماء والأرض، وحذرتهم من مغبّة النكول والنكوص على الأعقاب، ومما قالت (عليها السلام) في حثّهم على الوفاء ببيعة أمير المؤمنين (عليه السلام): (وتالله، ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً رويّاً فضفاضاً، تطفح ضفّتاه –لغزارته–، ولا يترنّق جانباه –فإنه نقي حتى في جوانبه خلافاً لأنهار الدنيا–، ولأصدرهم بطاناً –أي شبعى–، ونصح لهم سراً وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الغنى بطائل، ولا يحظى من الدّنيا بنائل غير ريّ الناهل، وشبعة الكافل –فكافل العيال يؤثرهم على نفسه–، ولبان لهم الزّاهد من الراغب، والصادق من الكاذب)[1] ثم تلت الآية الكريمة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١/ ١٣٩

يَكْسِبُونَ﴾(الأعراف: ٩٦).

وهي (عليها السلام) لم تدعُهم إلى علي (عليه السلام) الشخص فقط وإنما دعتهم إلى التمسّك بعلي (عليه السلام) المشروع الذي أسسه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو الإسلام النقي كما أُنزل من الله تبارك وتعالى، وتعاقب على تمثيله أبناؤه المعصومون البررة (عليهم السلام)، ومن بعدهم مراجع الدين العظام.

فعلينا أن نستجيب لدعوة السيدة الزهراء (عليها السلام) ونعمل على إقامة دين الله وهداية الناس إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة وإصلاح أحوالهم، وأن نبدأ من داخل أسرتنا أولاً وننطلق إلى المجتمع، وأن نستثمر كل الوسائل المتاحة خصوصاً ما كانت منها واسعة الانتشار وبالغة التأثير ولا تعيقها حدود الجغرافيا، وحينئذٍ ستحظى الأسرة والمجتمع بانفتاح هذه البركات التي لم تذكرها الآية لكنها تُعرف من الآيات الأخرى والروايات الشريفة، كحالة الاطمئنان والسكينة وزوال الخوف والقلق الذي ينكّد حياة البشر اليوم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد : ٢٨) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(يونس: ٦٢) وينعِمون بحياة هنيئة سعيدة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل: ٩٧).

ولا بد أنه سيأتي اليوم الذي تسعد فيه البشرية بإقامة دين الله تعالى وهيمنته على كافة الأنظمة والأيديولوجيات البشرية، وحينئذٍ تنفتح البركات على نحو غير متصور مما أسهبت الروايات في ذكرها، ووصف الحياة الطيبة

والرغيدة والمرفهة التي يعيشها الناس في ظل الدولة المباركة بقيادة الإمام المهدي الموعود (صلوات الله وسلامه عليه).

اسأل الله تعالى أن يتقَبلَ منا ومنكم هذه النصرة، ويجعلها بلسماً لجروح فاطمة الزهراء (عليها السلام) العميقة، والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين.

القبس/١٩٤

الأعراف:١٧٦

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٨).

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يأمر الله تعالى نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقرأ على الناس ويقصّ لهم ﴿نَبَأَ﴾ أي خبراً عظيماً فيه موعظة نافعة عن ﴿الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ عن شخص أعطاه الله تعالى علماً جماً وحقائق ومعارف في النفس والكون تهدي الى الصراط المستقيم الموصل الى الله تبارك وتعالى، فكان مقامه مميزاً بين الجماعة الصالحة ويشار إليه بالسبق والتقدم.

﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ لكنه تجرد عنها كما يُسلخ جلد الحيوان وينزع الحيوان عنه لأن السلخ هو نزع جلد الحيوان، وتخلى هو باختياره وإرادته ولم يسلخه الله تعالى، منها فإنه في منعطف من حياته وأمام بريق الإغراءات لم يستطيع الثبات على الحق فسقط في الامتحان، والتعبير بالانسلاخ يعني ان الحجج

والبينات كانت محيطة به ولازمة له وملتصقة بذاته التصاق الجلد بالإنسان، وهكذا التصاق الإيمان بالفطرة السليمة والعقل، الا انه لسوء سريرته وغلبة شهوته على عقله وفطرته تجرد عن العلوم والمعارف التي منَّ الله تعالى عليه بها كما ينسلخ الجلد عن الحيوان، وأعرض عنها فلم ينتفع بها ولم يحوِّلها إلى واقع عملي في حياته وإنما اتبع هواه ومشتهيات نفسه، ونحن نعلم ان الجلد له أكثر من فائدة فهو جمال للإنسان ولو انكشف بحرقٍ وغيره كانت خلقته مشوهة، وهو حافظ للبدن فلو ازيل هجمت عليه المكروبات والفيروسات وأصابته الأمراض الخطيرة، فكذلك المعرفة والعلوم النافعة جمال وكمال للإنسان وحماية له من الحماقة والضلالة فاذا تعرى منها كُشفت سوأتُه.

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولما رأى الشيطان إمكانية الزلل والانحراف عنده وميله إلى الدنيا طمع فيه بعد أن كان يائساً من إغوائه عندما كان في الجماعة الصالحة ويظهر بزيِّهم، وكان في رعاية الله وحصنه فلحقه الشيطان وتبعه لما رآه خرج من حصن الله تعالى ورعايته، وظل يغريه ويمنّيه فزاده ضلالاً حتى جعله تابعاً له، وربما أتبعه بجمع من الناس يصدقونه ويجعلونه زعيماً لهم ليغريه أكثر، ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي من الخاسرين الهّالكين الذين ضلّوا الطريق فتسلّط عليهم الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر:٤٢).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ تعبير بأسف واستياء عن مصير مثل هذا الشخص باننا وفرّنا له فرصة الارتقاء نحو الكمال وكان يمكن أن نرفع منزلته

ودرجته ونزيده كمالاً الى كماله بتلك الآيات التي أعطيناها لو أراد العمل بصدق وإخلاص من أجل القرب من الله تعالى فان الله تعالى لا يجبر أحداً بل يتركه ليختار بحرية ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢).

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ لكن هذا الشخص لم يحسن الاختيار فرغب في الدنيا ومال الى بهرجتها الزائفة وآثر متعتها الزائلة فرغب في الدعة والراحة واللذة والأمور الدنيئة المرتبطة بجسده الفاني المخلوق من التراب وسكن الى الأرض ولم يجعل غرضه الكمالات الروحية السماوية اتباعاً لهواه وتغليباً لشهواته.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ فهو دائم اللهاث في طلب الدنيا سواء في موارد الحاجة الطبيعية لها التي يعذر فيها بل يحمد أحياناً كالتوسعة على العيال والانفاق في سبيل الله تعالى، أو لا لحاجة اليها بل مجرد هوس واتباع لنفسه الأمارة بالسوء التي لا تشبع ولا تقف عند حد وإنما تلهث بنهم وراء النزوات والشهوات وتستزيد منها بلا حدود عقلائية فلا يعذر في طلبها، ورد في الحديث الشريف (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى الثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب)(١)، فهو مثل الكلب دائم اللهاث يخرج لسانه من فمه سواء هاجمته وحملت عليه واضطر

(١) مسند أحمد: ج ٥ ص ١١٧، وأخرجه البخاري بحديث قريب منه ١١/ ٢٥٣ باب ما يتقى من فتنة المال، ومسلم برقم (١٠٤٦)

الى الهرب وادركه الاعياء والتعب والعطش كما هي الحالة الاعتيادية للهاث، أو كان في وضع الاستراحة، وطالب الدنيا كذلك يلهث وراءها عطشاً إليها سواء كان محتاجاً إليها أو لا، ولا ينتفع بشيء من آيات الله البينات التي تروي عطشه الروحي سواء وعظته بها أو لم تعظه.

(وقيل إنما شبه بالكلب في الخسّة وقصور الهمة وسقوط المنزلة، ثم وصف الكلب باللهث على عادة العرب في تشبيههم الشيء بالشيء، ثم يأخذون في وصف المشبّه به، وإن لم يكن ذلك الوصف في المشبّه، وذلك يكثر في كلامهم ـ عن ابي مسلم ـ)[1]، أقول: والأول أقرب وإنما قالوا هذا لعدم قناعتهم بوجه للتشبيه باللهاث.

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذه هي صفة وعاقبة كل الذين يعرضون عن داعي الهداية والصلاح والاستقامة على طاعة الله تعالى وينساقون وراء أهوائهم وشهواتهم وتزيين شياطين الجن والانس ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ وانقل لهم موارد العظة والعبرة من أحوال الناس السابقين وتجاربهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فان القصص لا نسردها للتسلية وقضاء الوقت عبثاً بل لأخذ الدروس والعبر منها والاستفادة من أخطاء الآخرين حتى لا نقع فيها ولا نكرّرها فيصيبنا نفس ما أصابهم.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فكان أمثال هؤلاء بئس المثل لمن يأتي خلفهم وأصبحوا عبرة لمن اعتبر ﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ فقد

---

(١) مجمع البيان: ٢٠٧/٤

جنوا على أنفسهم وحرموها من السعادة التي هيّأ الله تعالى لهم أسبابها وظروفها، واختاروا الشقاوة بعصيان ما أمر الله تعالى به فهم بعصيانهم يضّرون أنفسهم، والله تعالى لا يضّره كيدهم ولا طغيانهم وعصيانهم كما لا ينتفع بإيمانهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ (آل عمران:١٧٦) ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ (النساء:١١٣) ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى﴾ إذ لا صلاح ولا سعادة ولا نجاة الا باتباع شريعة الله تعالى والتوفيق بلطفه وعنايته ولن تجدها عند غيره، وهذه حقيقة يقرُّ بها المؤمنون ويردّدون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف:٤٣) .

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ الله من الناس بسوء اختيارهم وعدم استفادتهم مما هيّأ الله تعالى لهم من سُبُل الخير فوكلهم الله تعالى الى أنفسهم وما اختاروا فان الله تعالى لا يجبرهم على الهدى والصلاح إن لم يريدوه فكان الشقاء نتيجة حتمية لهم، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في دعاء الصباح (وَإنْ خَذَلَني نَصْرُكَ عِنْدَ مُحارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطانِ فَقَدْ وَكَلَني خِذْلانُكَ اِلى حَيْثُ النَّصَبُ وَالْحِرْمانُ)[1] .

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فقد خسروا أنفسهم ولم يوظّفوها لما تستحق من الثمن وهي الجنة، وخسروا نعيم الآخرة ومرافقة الصالحين الأبرار، وخسروا رضوان الله تعالى وأي خسارة أعظم من تضييع هذه النعم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ

---

(١) مفاتيح الجنان.

الْقَرَارُ﴾ (إبراهيم: ٢٨-٢٩) فبئست الصفقة.

وتذكر الروايات ان الآية الكريمة نزلت في بلعام بن باعورا وكان من كبار علماء بني إسرائيل لكنه رغب في دنيا الفراعنة وروي في تفسير القمي عن الامام الرضا (عليه السلام) قوله (أنه اعطي بلعم بن باعورا الأسم الأعظم وكان يدعو به فيستجاب له فمال الى فرعون)[1] فجعلته الآية الكريمة مثلاً لكل من تخلى عن مبادئه وقيمه الدينية والإنسانية التي تعلمّها وعرفها طلباً للدنيا.

لذا طبقه الامام الباقر (عليه السلام) على بعض من كان محسوباً عليه، روى العياشي في تفسيره عن سليمان اللبان قال (قال أبو جعفر (عليه السلام): أتدري ما مثل المغيرة بن سعيد قال: قلت: لا، قال: مثله مثل بلعم الذي أوتي الاسم الأعظم الذي قال الله تعالى ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾)[2].

ونبيّن هنا بعض الدروس المستفادة من الآيات الكريمة التي تجري في جميع الناس بحسب مراتبهم:

١- ان الناس ـ عدا من عصمه الله تعالى ـ يتركون ما أعدّ الله تعالى لهم من الكرامة والمقام الرفيع ويرضون بالأدنى التافه، وبعضهم يكون له أعمال وإنجازات كبيره لكنه لما يحين وقت الحصول على الجائزة الكبرى وقطف الثمرة يتركها ويذهب بعيداً عنها الى حيث الفتات، وربما يظن ان ذلك تواضعٌ منه وزهدٌ لأنه لا يستحق هذا العطاء وهو واهم لأن الله تعالى لا يعطي على

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ / ص ٣٧٧

(٢) البرهان: ١٤٣/٤، عن تفسير العياشي: ٤٢/٢ ح ١١٨

الاستحقاق، حتى يرفضه لعدم الاستحقاق وإنما يعطي كرماً وتفضلاً، وربما يهرب من نيل العطاء لا لشيء يحصل عليه سوى جلد الذات وعقاب النفس فيتركون كرامة الله تعالى ويطلبون عقوبته، وهو أحد معاني ما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (ما أعرف أحداً الا وهو أحمق في ما بينه وبين ربه)[1] لأنه لم يحسن استثمار الفرصة بتمامها، وقد أخذه (عليه السلام) مما ورد في وصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأبي ذّر (رحمه الله) (يا أبا ذر لا يصيب الرجل حقيقة الإيمان حتى يرى الناس كلهم حمقى في دينهم عقلاء في دنياهم)[2] فلا بد ان يجعل القاعدة الأولية في الناس هي هذه، إلى أن يتأكد من كونهم عقلاء في دينهم أيضاً. لذا كان من أسماء يوم القيامة يوم التغابن لأن الجميع يشعر بالغبن حتى المؤمنون، ولما يجد الشيطان في الإنسان تلك الرغبة وذلك التوجه يتشبث به ولا يدعه حتى يضله.

فمثله كمثل الكلب يقوم بأعمال كبيرة لصاحبه ثم يجلس وقت الطعام بعيداً ويكتفي بما يلقى إليه من العظام وبقايا الطعام، ولو دعوا الى الموائد لما استجابوا لأنهم لا يحسنون الأكل الا مع الكلاب، وهذا وجه آخر للتشبيه، كقريش وأهل الكتاب فانهم كانوا ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ٨٩) ويطلبون الفتح والنصر بان يرسل لهم الله تعالى رسولاً هادياً الى طاعة الله تعالى، فلما بعثه إليهم وهم يعرفون صدقه وأمانته وإخلاصه لهم كذبوه وجحدوا بآيات الله ونكصوا على أعقابهم.

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٨/ ص ١٠٧

(٢) أمالي الطوسي: ٥٣٣

فمجيء هذه الآيات بعد آية الميثاق ليجدد الإنسان دائماً ميثاقه الذي تعهد به أمام ربه تبارك وتعالى ويثبت عليه.

٢- خطورة دور العلماء والمفكرين والنخب المثقفة اذا تخلّوا عن مسؤولياتهم وانحرفوا عن أداء رسالتهم ومالوا الى الدنيا طمعاً في مال أو جاه أو زعامة أو حسداً لمن هم أجدر منهم، فيرضون لأنفسهم بإن يتحولوا الى أبواق للظالمين وأدوات لهم لخداع الناس وتجهيلهم وتدجينهم ليسهل على المتسلطين سوقهم الى ما يريدون، روى الشيخ الطبرسي في مجمع البيان عن الامام الباقر (عليه السلام) قال (الأصل في ذلك بلعم ثم ضربه الله مثلاً لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة)[(١)].

وكم سمعنا ورأينا ممن عرف اشياءاً من علوم الدين لكنه ينحرف عنها ويكتمها بل يظهر خلافها طلباً لدنيا ينالها من سلطانٍ جائر فيشرعن له ظلمه وجوره ويكون للظالم عونا وللمظلوم خصما عكس ما هو مطلوب[(٢)] بل قد تجدهم يتسابقون الى ظلم أنفسهم بطاعة الظالم وتنفيذ رغباته وابتكار مالم يطلبه منهم والسير في ركابه والانسلاخ من مبادئهم وعدم الكلل من تقديم كل ما يسرع بإرسالهم الى قعر جهنم والعياذ بالله تعالى.

لذا أمر المعصومون (عليهم السلام) باتباع العلماء العاملين المخلصين المضحين من أجل الدين وكرامة الإنسان وحذّروا من العلماء الذين يتخذون الدين وسيلة لتحقيق مكاسب شخصية، وليتأنّ الإنسان كثيراً وليمحص قبل أن يختار من

---

(١) مجمع البيان: ٢٠٧/٤

(٢) إشارة لوصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لولديه الحسن والحسين (عليهما السلام) حين استشهاده (كونوا للظالم خصما وللمظلوم عونا) (نهج البلاغة: الكتب والرسائل: الرسالة ٤٧)

يتبعه ويأخذ بأقواله وأفعاله ولا تغرّه بعض المظاهر والشكليات.

٣- يجب على المؤمنين أن يملأوا الساحة بما يقتضيه المنهج الإسلامي في جميع الاتجاهات: العقائدية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية حتى السياسية والاقتصادية، فان الساحة إذا خلت ملأها الشيطان واتباعه، فهذا الذي ضربته الآية مثلاً لما خرج من الجماعة الصالحة وترك المنهج الرباني أتبعه الشيطان فوراً وأغواه وزاده ضلالاً وملأ الفراغ الذي أخرج نفسه إليه.

٤- إن التزود بالعلوم والمعارف وحده لا يكفي للنجاة والفوز ما لم تتحول الى التزام عملي واقعي متكامل لأن وجود أي ثغرة في التطبيق يمكن أن ينفذ منها الشيطان ويهدم بنيانه كله، لذا ورد في دعاء الافتتاح (اللهم ما عرفتنا من الحق فحمّلناه وما قصرنا عنه فبلّغناه)[١] فلا بد أن تتحول المعرفة الى هم نحمله ونعيشه بكل كياننا ونسعى الى تحقيقه بمعونة الله تعالى.

إن الآية تنطبق بشكل كبير على من يسمّون بوعّاظ السلاطين، ومنهم شريح القاضي فبعد أن كان قاضياً لأمير المؤمنين (عليه السلام) في مسجد الكوفة أغراه الموقع وامتيازاته حتى كان هو من خذّل الناس عن مسلم بن عقيل عندما أشرف من قصر الامارة على الناس المحتجين بقيادة مسلم وأخبرهم ان هاني بن عروة بخير وانه في ضيافة الأمير، ثم اعطى الشرعية للخروج إلى حرب الامام الحسين (عليه السلام) بأنه خارج على خليفة المسلمين فكانت فتواه سبباً لقتل الامام الحسين (عليه السلام)[٢].

(١) مفاتيح الجنان.

(٢) راجع خطاب المرحلة: ج٦ / ص٤٢٣ بعنوان (الفتوى التي قتلت الامام الحسين (عليه السلام)

القبس/١٩٥

التوبة: ١٢٨

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾

ذكرت الآية ١٢٨ من سورة التوبة عدة أوصاف وملكات للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨) وهي صفات يجب ان يتحلى بها كل أولياء الأمور ابتداءاً من رب الأسرة إلى رئيس الدولة تأسياً بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بحسب ما حثت عليه الآية الكريمة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب:٢١).

ومحل الكلام وصفه (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ويُعَّرف الحرص لغةً بأنه أعلى درجات الرغبة المفرطة الشديدة مقرونة بالعمل من أجل جلب نفع أو دفع ضر.

وهو بذاته لا يوصف بمدح أو ذم الا بحسب متعلقه، فقد يكون مذموماً كالحرص على الدنيا، قال تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ (البقرة:٩٦)، وروى الشيخ الكليني (قدس سره) في الكافي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (من علامات الشقاء جمود العين وقسوة القلب وشدة الحرص في طلب الدنيا، والإصرار على الذنب)[1]، وقد يكون محموداً، وصفة كمال كما في الآية محل البحث، فتعريف الراغب في المفردات بأنه ((فرط الشره وفرط الإرادة)) إن

(١) الكافي: ٢/٢٩٠

أراد به المذموم خاصة كما يظهر منه فهو قاصر، لأن حكمه يتبع متعلقه مدحاً وذمّاً.

وقد يطلق الحرص في الأحاديث الشريفة الذامّة له بلا ذكر المتعلق ويراد به ما كان متعلقه مذموماً لأنه الغالب في الناس كقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (الحريص محروم، وهو مع حرمانه مذموم في أي شيء كان، وكيف لا يكون محروماً وقد فرَّ من وثاق الله)[(1)] وقول أمير المؤمنين (عليه السلام) (الحرص ذميم المغبّة)[(2)] وقوله (عليه السلام) (الحرص ذل وعناء)[(3)] وقوله (عليه السلام) (الحريص عبد المطامع)[(4)].

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن رسوخ هذه الصفة السيئة لدى الإنسان الا من عصمه الله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج :١٩- ٢١) وقال تعالى ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء:١٢٨).

وبالرجوع إلى الآية الكريمة، فإنّ من صفات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه حريص عليكم جميعاً أيها الناس ولا تختص بالمؤمنين برسالته أكثر من حرص الأم على أولادها، ولم يذكر المتعلق للدلالة على العموم، فهو يجتهد في هدايتكم وإصلاحكم وسعادتكم، ويتفانى في جلب نفع الدنيا والآخرة لكم ودفع الضرر عنكم، وكل ما يصدر منه (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤدي إلى هذا الغرض وإن لم يستطيعوا فهمه

---

(١) بحار الأنوار: ١٦٥/٧٣ ح ٢٦

(٢)و٣و٤ – غرر الحكم: رقم ٤٣٠، ٦٩١، ٦٢٥

أحياناً.

ولعل الغرض من وجود الآية في سورة التوبة التي تتحدث عن غزوة تبوك وما رافقها من عناء ومشقة وجهد وبلاء هو لتثبيت إيمانهم بالقيادة النبوية المباركة، وانّ كل ما يأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) به وينهى عنه إنما هو نابع من هذه الصفات المباركة، فلا يتوهّموا أن تكليفهم بالأفعال الشاقة كالجهاد وإنفاق المال في تلك الغزوة الشاقة العسيرة يعبّر عن عدم اهتمام واكتراث بهم.

ولم يدّخر (صلى الله عليه وآله وسلم) جهداً في ذلك إلى درجة أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أشرف على الهلاك من شدة الجهد النفسي والبدني والتأسف لعدم استطاعته هداية كل الناس وهي لعمري أعلى درجات الحرص عليهم، فأشفق الله تبارك وتعالى عليه وخاطبه بقوله عزّ من قائل ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦) وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣) والبخع قتل النفس غمّاً، فحثّه الله تبارك وتعالى على أن لا يهلك نفسه حزناً وأسفاً وليدعهم وما يختارون ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦) ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢)).

روى البخاري بسنده عن أنس قال: أنَّ غلامًا يهوديًّا كان يخدُمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم فمرِض فأتاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم يعُودُه فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم: (أسلِمْ) فنظَر إلى أبيه وهو جالسٌ عندَ رأسِه فقال له أطِعْ أبا القاسمِ قال: فأسلَم قال: فخرَج النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآله

وسلَّم مِن عندِه وهو يقولُ: (الحمدُ لله الَّذي أنقَذه مِن النَّارِ)[1]، وبقدر هذا الشكر الصادر من أعماق قلبه الشريف، كان الأسف لو أفلتت منه نفس إلى النار.

ورغم كل هذا الجهد كانت النتيجة كما ذكرها الله تعالى بقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣) فالتقصير ليس من جهة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنه عمل بأعلى درجات الحرص، الا أنهم لم يكونوا موفقين في خياراتهم بسبب اتباعهم الشهوات والاهواء، وطاعتهم للشياطين الذين يخدعونهم بأمور زائفة زائلة، وينسونهم الحياة الآخرة الباقية، فيكلهم الله تبارك وتعالى إلى ما اختاروا ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (النحل:٣٧) فالحرص على هدايتهم لا يكفي ما لم يقترن بإرادة حقيقية منهم للتغيّر نحو الأحسن.

إن الحرص على الناس صفة عظيمة تستحق التركيز عليها وبيانها وتعبئة الأمة للاتصاف بها، وكلما ازدادت دائرة الحريصين على مصالح الأمة ونفع العباد وهدايتهم إلى ما يصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة فان المجتمع يكون بخير، كما أن فقدان هذه الصفة هو الذي يفسّر الأحوال السيئة التي تعيشها الأمة مع وفرة الإمكانات المادية والبشرية التي منَّ الله تعالى بها عليها، وذلك لأنها ابتليت بتسلط شرذمة متجردة من هذه الصفة النبوية المباركة.

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام/ ح ١٢٩٠.

إن خير من يجسّد هذه الصفة اليوم هو إمامنا المهدي الموعود (صلوات الله عليه) فانه أولى الناس باتباع جده المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا ما يزيد الموالين اطمئناناً وسكينةً بأنهم في رعاية أحرص الناس عليهم، ولو لم تكن في انتظاره (عليه السلام) وترقب ظهوره الا هذه الفائدة لكفى، وقد عبَّر عن ذلك في رسالته إلى الشيخ المفيد (رحمه الله تعالى) بقوله (أنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء أو اصطلمكم الأعداء فاتقوا الله جل جلاله وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم يهلك فيها من حم أجله ويحمى عنها من أدرك أمله)[1].

فعلينا أن نربّي أنفسنا على هذه الصفة الحميدة، وأخص بالذكر الحوزة العلمية والمؤمنين الرساليين فهم أولى الناس بالتأسي برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله الكرام، روى أحد السادة الفضلاء أنه اعتاد أن يروي لأسرته بعض قصص الذين تشرفوا بلقاء الإمام المهدي (عليه السلام) والمعجزات التي جرت على يديه الشريفتين من التي ذكرها الميرزا النوري (رضوان الله تعالى عليه) في كتابه (النجم الثاقب) وغيره، وكان يلمس تأثيرها الروحي على المتلقين، فانقدحت في ذهنه فكرة أن يدوِّن مجموعة منها في كرّاس وجعل له عنوان (رسالة شفاء) ويوزّعه على المرضى المصابين بأمراض مستعصية عجز الأطباء عن معالجتها، وقام بهذه الجولات، وكانت المفاجأة: ان مئات من هؤلاء شفوا ببركة تعلّقهم بإمامهم الحريص عليهم، وما بعثه فيهم من الأمل والاطمئنان والسمو الروحي

---

(١) الاحتجاج: ٢ / ٣٢٣

عند اطلاعهم على هذه الرسالة، وكانوا ينهمكون بقراءتها ساعات يذهلون فيها عن أنفسهم وعمّا حولهم، بحيث كان الأطباء يتعجبّون من حصول هذا التغيّر غير الطبيعي في حالتهم.

فما الذي دفع هذا السيد الفاضل إلى القيام بهذا العمل المضني والمكلِّف غير هذه الخصلة الكريمة التي تعلّمها من القرآن الكريم وسيرة النبي العظيم (ﷺ) ولا تجدها عند غير من تربى في هذه المدرسة الشريفة.

إنّ الناس حينما يجدون هذه الصفة في الواعظ والمبلِّغ والمربّي والمعلم والمسؤول فأنهم ينقادون اليه ويأخذون منه، لأنهم يجدونه صادقاً في جلب الخير لهم وتحقيق مصالحهم وهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة لوجه الله من دون ان ينتظر منهم ﴿جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان:٩).

لذا فإن لهذه الصفة أهميتها في نجاح الدعوة إلى الله تبارك وتعالى لرسوخ قناعة الناس بحاملها، وأما فقدانها فإنه يكون منفّراً من صاحبها، واذا كان ذا عنوان ديني فالنفور يكون من الدين نفسه.

القبس/١٩٦

يونس:٩٨

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾

موضوع القبس: من البلاء ما نستطيع دفعه

قال الله تبارك وتعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس:٩٨).

﴿لَوْلا﴾ أداة حث وتحضيض، فالآية الكريمة تحث أهل الدنيا جميعاً بأن يرجعوا الى الله تعالى وأن يعودوا إلى طريق الاستقامة لينفعهم ذلك في كشف البلاء ورفع العذاب النازل عليهم أو دفعه قبل حلوله بهم، لكن هذا الحث مشوب بالتأسف والحسرة لعدم استجابة الأمم لهذه الدعوة المخلصة إلى أن ينزل بهم البلاء وتحلّ الكارثة ويرونها بأعينهم حيث لا ينفعهم الرجوع، كما أنبأت الآيتان المتقدمتان ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس:٩٦-٩٧) ومثل هذا الايمان باللسان الذي يحصل عند نزول العذاب لا ينفع في رفعه لأنه لا يكون عن صدق وإخلاص نية كالذي حصل لفرعون، قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس:٩٠) فهذا ليس إيماناً صادقاً بالله تعالى لأنه ليس ايماناً

اختيارياً منتجاً رغم الإنذارات والعلامات المتكررة وإنما تظاهروا به خوفاً من العذاب والبأس بعد حلوله.

وهذه من السُّنن الإلهية الثابتة التي لا تختص بقوم يونس قال تبارك وتعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر:٨٤-٨٥) وقال تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام:١٥٨) وتجري هذه السُّنة في كل عاصٍ مسوِّف للتوبة يخدع نفسه بالأمل من دون أن يصدقه بالعمل، ولا يحذر فوات فرصة التوبة بحلول الأجل .

وترغّبهم الآية الكريمة بأن يكونوا كقوم يونس وتقول لهم هلّا كنتم كقوم يونس الذين استثنتهم فأنهم آمنوا قبل حسم الأمر بنزول العذاب وبمجرد أن رأوا علاماته ونذره وتيقّنهم من صدق ما وعدهم به نبيهم يونس (صلوات الله عليه) فنفعهم إيمانهم وكشف عنهم العذاب، وقد وصفتهم الآية بصدق الايمان ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾.

روى القمي في تفسيره بسنده عن الامام الصادق (عليه السلام) قال (ما ردّ الله العذاب إلا عن قوم يونس، وكان يونس يدعوهم إلى الاسلام فيأبون ذلك، فَهَمَّ أن يدعو عليهم وكان فيهم رجلان: عابد وعالم، وكان اسم أحدهما مليخَا، والآخر اسمه روبيل، فكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم

ينهاه ويقول: لا تَدْعُ عليهم فإن الله يستجيب لك، ولا يُحِبُّ هلاك عباده، فَقَبِلَ قول العابد ولم يقبل من العالم فدعا عليهم، فأوحى الله إليه: يأتيهم العذاب في سنة كذا وكذا، في شهر كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد، وبقي العالم فيها، فلما كان في ذلك اليوم نزل العذاب، فقال العالم لهم: يا قوم افزعوا إلى الله فلعله يرحمكم ويرد العذاب عنكم، فقالوا: كيف نصنع؟ قال: اجتمعوا واخرجوا إلى المفازة وفرقوا بين النساء و الاولاد، وبين الابل وأولادها، وبين البقر وأولادها، وبين الغنم وأولادها، ثم ابكوا وادعوا، فذهبوا وفعلوا ذلك وضجوا وبكوا فرحمهم الله وصرف عنهم العذاب)[1] والموقف يبيّن الدور العظيم للعالم الواعي الذي يقود أمته ببصيرة نحو الأمان.

ومما ورد في هذه الرواية مما يبيّن سعة رحمة الله تعالى وشفقته على عباده حتى الكفار منهم، أنه لما ألقى الحوت النبي يونس (عليه السلام) على الشاطئ مريضاً ضعيف البدن: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ليتغذى منها[2] ويستظل بها (فلما أن قوي واشتد بعث الله دودة فأكلت أسفل القرع فذبلت القرعة ثم يبست، فشق ذلك على يونس فظل حزيناً فأوحى الله إليه: مالك حزيناً يا يونس؟ قال: يا رب هذه الشجرة التي تنفعني سلطت عليها دودة فيبست، قال: يا يونس أحزنت لشجرة لم تزرعها ولم تسقها ولم تَعْنَ بها إن يبست حين استغنيت عنها،

---

(١) بحار الأنوار: ٣٨١/١٤ ح ٢ عن تفسير القمي ٤٩/٢

(٢) أثبتت الدراسات والتجارب العلمية فوائد القرع في تقوية جهاز المناعة وصحة القلب والشرايين وتزويد الجسم بالفيتامينات والمعادن الأساسية.

ولم تحزن لأهل نينوى أكثر من مائة ألف؟ أردتَ أن ينزل عليهم العذاب؟ إن أهل نينوى قد آمنوا واتقوا فارجع إليهم)[1].

فالآية الكريمة تقدِّم علاجاً شافياً لكثير من مشاكلنا ومعاناتنا التي تؤلمنا وندعو الله تعالى أن يخلّصنا منها ولا نعلم أن طرف الحل بأيدينا. وإن من البلاء الذي يقع على الانسان يستطيع دفعه بنفسه، وذلك لأن جملة من هذه الصعوبات التي يمرّ بها الإنسان هي من صنعه وكسب يديه، فلو أراد التخلص منها فليتجنب الأسباب التي أدّت إليها وهي الأفعال السيئة، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١) والباء هنا سببية أي بسبب ما كسبوا، وإن ما حصل لهم هو نتيجة لبعض ما جنت أيديهم، وإلا فإن استحقاقهم أكثر لكن الله تعالى يعفو بكرمه وحلمه عن كثير، قال تعالى ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٤) أي يهلكهن –وهي السفن في البحر- بأهلهن بإرسال الرياح العاتية عليها بما كسبوا من الذنوب، ولكن الله تعالى يعفو عن الكثير وقال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

والخلاصة أن كثيراً من البلاء يستطيع الإنسان دفعه قبل حصوله، وليس فقط رفعه بعد حصوله من خلال اجتناب مسبّباته، ولكن الإنسان لا يلتفت إلى هذه الحقيقة، أو لا يلتفت إلى ما تكسبه يداه من أعمال، وإذا التفت فإن

---

(١) بحار الأنوار: ٣٨٣/١٤

الكثيرين يستصغرون ما يصدر منهم من أقوال وأفعال ولا يقدّرون عواقبها، فيتساهلون فيما يصدر منهم بينما حذَّر المعصومون (عليهم السلام) من الاستهانة بالذنوب بكل مراتبها (لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر لمن عصيت)[1]، ولو على مستوى كلمة غير مسؤولة قد تقال هنا وهناك تسبّب سفك الدماء وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل، ولكي نقرب فكرة أن خطأً بسيطاً قد يؤدي إلى عواقب وخيمة، بما يحصل أحيانا من أن غفلة صغيرة من سائق السيارة أو التفاته تؤدي إلى حادث مفجع. كما يتساهل السياسيون والمتنفّذون في التجاوز على المال العام، الذي هو ملك عموم الناس الذين هم أيتام آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) المقطوعون عن إمامهم فمن أكل أموالهم كان مشمولاً بالآية الشريفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء:١٠)، ولذلك تجد في الكثير من الأدعية أن الأئمة المعصومين (عليهم السلام) يعلموننا الاستغفار مما نعلم ومما لا نعلم من الذنوب، وما ظهر منها وما بطن.

ولكي نقرأ هذه السُنّة الإلهية بشكل دقيق لابد من ملاحظة ما يلي:

١- إن بعض البلاء يجريه الله تعالى على عباده الذين اصطفاهم ليرفع درجاتهم ولينالوا المقام المحمود عند الله تعالى قال تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ وفي أخبار مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) إن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال له: (إن لك في الجنة

(١) بحار الأنوار: ج ٧٧ / ص ٧٩

درجات لا تنالها إلا بالشهادة)[1] فمثل هذا البلاء ليس سببه ما ذكرنا من أفعال سيئة والعياذ بالله تعالى.

٢- إن الله تبارك وتعالى حينما يترك بعض الناس يمرّون ببلاء معين ولا يتدخل لرفعه وإن ألّح صاحبه بالدعاء والطلب فليس ذلك انتقاماً منهم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً وإنما يريد لهم الخير وما يصلح حالهم فقد يكون الفقر أصلح لحال شخص من الغنى لأن الغنى يبطره ويبعده عن الله تعالى ويوقعه في المعاصي، ويحرم آخر من الذرية لأنه لو رزق منها لكانت شريرة وبالاً عليه بسبب الظروف المحيطة بهم وهكذا.

٣- بعض الذنوب اجتماعية عامة لا تقتصر في آثارها على مرتكبيها فقط بل تشمل كل الناس حتى الصالحين قال تعالى ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ ومثل هذه الابتلاءات يدفع ضريبتها ناسٌ لم يكونوا السبب فيها، وعلى رأسها ما يحصل من آثار سلبية بسبب ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكرتها الأحاديث الشريفة كتسلط الأشرار فأن صلحاء الأمة قبل فُسّاقها يشملهم هذا البلاء.

ومن أمثلة البلاءات العامة التي لا تقتصر آثارها على فاعليها من حياتنا المعاصرة سوء اختيار الناخبين عند الادلاء بأصواتهم في صناديق الاقتراع فإن النتيجة تحكّم الفاسدين والظلمة والمنحرفين الذين لا يرقبون في الأمة إلاًّ ولا ذمة فتحصل كوارث اقتصادية واجتماعية واخلاقية وفكرية وبيئية بسبب

---

(١) بحار الأنوار: ج ٤٤ / ص ٣١٣

حماقات وسياسات ظالمة لبعض المتصدين لكن شرها عمّ الجميع ولم يقتصر على الناس الذين يستحقون ذلك لأنهم هم من انتخب أولئك الحمقى الأنانيين وأجلسوهم في مواقع المسؤولية.

القبس/١٩٧

يوسف: ﴿٣٢﴾

﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾

موضوع القبس: كيفية ضبط الغرائز والشهوات

أودع الله تبارك وتعالى لدى الانسان غرائز وقوى وميول ليتكامل عملها مع الحواس والأعضاء الأخرى حتى يتحقق الغرض من خلقه ويصل الى الهدف المنشود وهو إعمار الحياة الدنيا بالخير والصلاح والفوز برضوان الله تعالى في الآخرة، فلولا الغريزة الجنسية لما أقدم على تحمل مسؤوليات الزواج والانجاب والتكاثر، ولولا القوة الغضبية لما دافع عن المقدسات والحرمات وواجه الظلم والفساد، ولولا حب الذات والأنا لما اندفع بحماس للكسب وجلب المصلحة ودفع المضرّة وهكذا.

وقد جعل الله تبارك وتعالى شريعة وأحكاماً لتنظيم هذه الغرائز وضبط الاستجابة لها بما يحقق الهدف، ومن أولى منه تبارك وتعالى بوضع هذه القوانين وهو خالق العباد والعارف بما يسعدهم ويصلح شأنهم، فأوجب الزكاة والخمس لمعالجة الشّح بالمال والبخل، والصوم للتدريب على الامتناع من مشتهيات النفس المحللة فضلاً عن المحرمة، والحج للتحرر من علائق الأهل والديار والممتلكات، والصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأباح ما يلبي احتياجات الجسد والنفس:-

بلا تفريط يؤدي الى الكبت والخمول والضعف قال تعالى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً

ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد: ٢٧) ويوبّخ المترهبين ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف:٣٢) وفي الحديث الشريف (لا رهبانية في الإسلام)[1].

ولا إفراط يؤدي الى الخراب والهلاك ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٢٧)، فالإنسان قد يضعف أمام هذه الغرائز والشهوات ويندفع لها ويستجيب لمؤثراتها من دون مراعاة حدود العقل والفطرة والدين فيحصل الانحراف والفساد والظلم بأبشع صورة كالذي صدر من المقبورين هتلر وصدام فقتلا ملايين البشر وخرّبا البلاد بسبب طغيان نزوة أو شهوة وهذه هي أصول الوقوع في الذنوب.

إن هذه الغرائز والقوى الممنوحة للإنسان يمكن ان تساعده على التكامل ليكون أفضل من الملائكة[2]، وتكون بمنزلة البُراق الذي يعرج به في مدارج الكمال كما وصل بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى حيث لا يصل حتى الملائكة المقربّون لأنهم لا يملكون هذه الوسيلة، ويمكن أن يتسافل بها الإنسان ليكون كالحيوان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٤٤) بحيث يوجد في بعض أدبيات الصهاينة انك اذا استطعت أن تقتل ثلثي العالم لتحكم

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٥ / ص ٣١٩

(٢) قال الامام علي (عليه السلام): اِنَّ اللّهَ عَزَّوَجَلَّ رَكَّبَ فِي الْمَلائِكَةِ عَقْلاً بِلا شَهْوَةٍ ورَكَّبَ فِي الْبَهائِمِ شَهْوَةً بِلا عَقْلٍ ورَكَّبَ في بَنى آدَمَ كِلَيْهِما فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ ومَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهائِمِ) (علل الشرائع، ص ٤، ح ١)

الثلث الآخر فافعل، وهذا نداء غريزة الأنانية وحب الزعامة والرئاسة والجاه واكتناز الثروات إن لم يسيطر عليها، وهكذا تفعل شهوة الجنس والبطن فتصبح قيمة الإنسان ما يخرج منه كما في كلمة أمير المؤمنين (من كان همُّه ما يدخل في جوفه كانت قيمته ما يخرج منه)[١].

لذا كان من الضروري التعرّف على كوابح هذه الغرائز والشهوات وكيفية ضبط الاستجابة لها حتى يتحلى بصفة العفاف التي ورد فيها الحديث الشريف (العفة رأس كل خير)[٢]، ويراد بها حالة الانضباط هذه في كل الغرائز والميول وليس الجنسية فقط.

أما بقاء التبعية لهذه الغرائز والميول والتعلق بها وعدم السيطرة عليها في الدنيا فأنه يجعل الانتقال منها صعباً ومؤلماً لأنه يستلزم تقطيع كل هذه العلائق الوثيقة عند الموت الذي هو آتٍ بلا شك وكم حكي عن أشخاص أريد تلقينهم الشهادتين حال الاحتضار فامتنعوا وهم يلهجون بذكر أموالهم وما تعلقت به قلوبهم وهذا بعض وجوه ما تتحدث عنه الأخبار من صعوبة سكرات الموت.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثالين من الرجال والنساء للتأسي بهما في العفاف وضبط الغرائز والشهوات وعدم الخضوع لتأثيراتها والافتتان بها وهما النبي الكريم يوسف الصديق (عليه السلام) ومريم بنت عمران السيدة الطاهرة

(١) نهج البلاغة: شرح ابن أبي الحديد، ج٢٠، ص٣٢٠.

(٢) غرر الحكم: رقم ٧٣٠

الصدّيقة (عليها السلام)، فقال الله تبارك وتعالى عن يوسف ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ وقال تعالى عن مريم (عليها السلام) بأنها ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، وقد جمع الحديث الشريف عن الامام الصادق (عليه السلام) هاتين الاسوتين في ما رواه الشيخ الكليني (رحمه الله) في روضة الكافي بسنده عنه (عليه السلام) قال (يُؤتى بالمرأة الحسناء يوم القيامة التي قد افتتنت في حسنها، فتقول: يا رب حسَّنتَ خَلْقي حتى لقيت ما لقيت، فيجاء بمريم عليها السلام فيقال: أنت أحسن أو هذه؟ قد حسّناها فلم تفتتن، ويجاء بالرجل الحسن الذي قد افتتن في حسنه، فيقول: يا رب حسَّنتَ خَلْقي حتى لقيت من النساء ما لقيت؛ فيجاء بيوسف ويقال: أنت أحسن أو هذا؟ قد حسّناه فلم يفتتن، ويجاء بصاحب البلاء الذي قد أصابته الفتنة في بلائه فيقول: يا رب شددت علي البلاء حتى افتتنت فيؤتى بأيوب فيقال: أبليتك أشد أو بلية هذا؟ فقد ابتلي فلم يفتتن)(١).

و ﴿اسْتَعْصَمَ﴾ على وزن استفعل وتدل بحسب الغالب على طلب الفعل، نحو (استخرج) أي طلب اخراج الشيء و(استغفر) بمعنى طلب المغفرة وعلى هذا المعنى حملها الراغب في المفردات، قال: (كأنه طلب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة وتحرى ما يعصمه)، ولكنها قد تكون بمعنى الفعل الثلاثي نحو (استقّر) أي قرَّ، فيمكن فهم (استعصم) على كلا المعنيين أي اعتصم أو طلب العصمة، فالتعبير لا يخلو عن إشارة الى ما كان يعانيه يوسف (عليه السلام) من مجاهدة في التغلب على ما يعاينه، فقد كان محاصراً بأجواء الفتنة والإثارة

(١) روضة الكافي: ١٩١ ح ٢٩١

والاغراء من امرأة العزيز وبقية النسوة وهو تحت الضغط والتهديد لا يملك لنفسه قراراً بل كان مملوكاً لامرأة العزيز ومسلوب الحرية، ولكنه (عليه السلام) كان بما منحه الله تعالى من عصمة مستعداً للتنازل عن حياته المرفّهة في قصر العزيز بكل امتيازاتها والذهاب الى قعر السجون اذا لم يوجد حل أمامه للتخلص من هذه الغرائز الجامحة للنسوة الا هذا، لأنه يخاف على نفسه من الميل الى اغرائهن ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف:٣٣) فآثر رضا الله تعالى على هواه وما تشتهيه نفسه.

ولاشك أنه (عليه السلام) استعصم بالله تعالى وبألطافه وعنايته وقدرته، وكان طلبه العصمة من الله تعالى صادقاً مخلصاً يخرج من أعماق قلبه صريحاً بقوله ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣)، ولم يكتفي بالاعتماد على قدراته ومناعته الذاتية، وقد لبّى الله تعالى دعوته ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف:٣٤) وقد وجد يوسف الصديق (عليه السلام) تلك الاستجابة يقيناً في قلبه وقوة في إرادته وبصيرة في سلوكه ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف:٢٤) فهو لو لم تدركه هذه الالطاف برهاناً من ربّه لهمَّ بها ووقع في شراكها للخطة المحكمة التي هياتها فصرف الله تعالى عنه الفحشاء

وكل مقدمة سوء، وقد أوضحنا في قبس[1] سابق أن ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (يوسف:٢٤) أعلى رتبة من (لنصرفه عن السوء والفحشاء).

ونريد الآن أن نتعرف على الأمور التي تساعد على ضبط الغرائز والميول وكبح الشهوات، وهي على قسمين:

١- العوامل الذاتية التي تنبع من داخل الإنسان.

٢- العوامل الخارجية التي تؤثر على الإنسان من خارجه إذ ان أحد أسباب الانحراف هو تأثير البيئة ودفع الشخص نحو ما يعرف بالسلوك الجمعي الذي يضطر الفرد لمجاراته والسير خلفه وان علم بخطأه فنحتاج الى كوابح لحركة المجتمع أيضاً وهي بدورها ستضبط غرائز الفرد ونوازعه.

أولاً: العوامل الذاتية وتتضمن:

١- الايمان بالله تعالى وليس المقصود كل إيمان فان كثيراً ممن ينطقون الشهادتين بألسنتهم يفعلون الجرائم الكبيرة ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات:١٤) فلابد أن يكون الايمان حاضراً في وجدانه وقلبه وقائداً له في سلوكه وقناعاته فيستشعر حقيقة أن الله تعالى حاضر معه ومطّلع على أفعاله بل على خواطره وأفكاره ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق:١٤) ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ

---

(١) من نور القرآن: ج٢ / ص ٢٨٩ / قبس ٦٨ ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ (يوسف:٢٤)

نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (الأنفال:٢٤) وإن العباد راجعون الى الله تعالى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ (العلق:٨) ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر:٢٧-٢٨) وان الله تعالى سيبعث العباد في يوم القيامة ويحاسبهم على أفعالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء بعقوبات تقشعر منها الأبدان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج:١-٢) فان هذا الخوف من الله تعالى واستحضار الرقابة الإلهية سيردعه.

وينبغي الالتفات الى أن الطاعة المبنية على الخوف من العقاب هي ادنى مراتب العلاقة مع الله تعالى، وأعلى منها أن يوظف قواه وغرائزه لطاعة الله تعالى حباً لله تعالى وشكراً له سبحانه على نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، فنفعل ما يحبه وإن لم يكن الفعل واجباً نعاقب على تركه، ونتجنب ما يكرهه وإن لم يكن العمل حراماً يُعاقب فاعله ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الانسان:٨-٩) وقد قيل في الحكمة (إن المحبّ لمن أحبَّ مطيع).

روى الشيخ الكليني (رحمه الله) في الكافي بسند معتبر عن أبي بصير عن الامام الباقر (عليه السلام) قال (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عند عائشة ليلتها، فقالت: يا

رسول الله: لمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة، افلا أكون عبداً شكوراً)[١].

٢- الاصغاء الى صوت العقل ونداء الفطرة السليمة غير الملوثة ومن مجموعهما يتشكل الضمير والوجدان الذي يهتز فرحاً وحماساً عند فعل الخير، وحزناً وألماً عند حصول الشر فيشعر بوخز الضمير عند ارتكاب الخطأ لردعه عنه وهي إثارات النفس اللوامّة. هذا الضمير الحي الذي جعله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) معياراً للتميز بين الخير والشر وإن قيل لك خلاف ذلك قال (صلى الله عليه وآله وسلم) (البرُّ ما اطمئن اليه النفس، والبرُّ ما اطمأن به الصدر، والإثم ما تردَّد في الصدر، وجال في القلب، وإن افتاك الناس وافتوك)[٢].

فقد جعل الله تعالى العقل والفطرة هاديين للإنسان الى ما هو الصحيح ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (الروم:٣٠) ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة:١٣٨).

ورد في وصية الامام الكاظم (عليه السلام) لهشام بن الحكم (ان لله تعالى على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، واما الباطنة فالعقول)[٣] وقال الامام الصادق (عليه السلام) (حجة الله على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل)[٤]

---

(١) الكافي: ٧٧/٢ ح ٦

(٢) وساءل الشيعة: ١٦٦/٢٧ ح ٣٩

(٣) أصول الكافي: ج١ / كتاب العقل والجهل ح ١٢

(٤) أصول الكافي: ج١ / كتاب العقل والجهل ح ٢٢

ويعترف أهل النار بأن سقوطهم لأنهم لم يصغوا الى صوت العقل ونداء الفطرة، قال تعالى على لسان أهل النار ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك:١٠) وفي الحديث، عن الامام الرضا (عليه السلام) قال (ما استودع الله عبداً عقلاً الا استنقذه به يوماً)[١]، فلنحافظ على العقل والفطرة نقيين طاهرين ولا نلوثهما ولنصغ لندائهما.

وقد عرّف الحديث الشريف عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) العقل بأنه (ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان)[٢] اما استعماله في غير ذلك فإنه يخرجه عن عنوانه ويصبح مكراً ودهاءاً وشيطنة ففي نفس هذا الحديث سأله الراوي (قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل).

٣- التفات الإنسان الى كرامته التي وهبه الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء:٧٠) وقيمة نفسه[٣] وأنها أغلى شيء ولا تقدر بثمن وقد وصفها الله تعالى بأسمى الصفات قال تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِ﴾ (الحجر:٢٩) فلا يليق به أن ينزل بها الى مستوى البهائم ولا ثمن لها الا نيل رضوان الله تبارك وتعالى والجنة قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (أنه ليس لأنفسكم ثمن الا الجنة فلا

---

(١) بحار الأنوار: ٨٨/١ ح ١٢ عن أمالي المفيد

(٢) الكافي: ج ١ / ص ١١

(٣) راجع تفصيل هذه الفكرة في خطاب المرحلة: ١٠٢/١٢

تبيعوها الا بها)[١] وقال (عليه السلام) (العارف من عرف نفسه فأعتقها ونزهها عن كل ما يبعدها ويوبقها)[٢] وقال (عليه السلام) (هلك امرؤ لم يعرف قدره)[٣] فلا يمكن أن يخسرها باتباع شهوة أو اشباع غريزة حتى لو كانت عظيمة كنيل زعامة ورئاسة أو شهرة عالمية أو كثرة اتباع ونحو ذلك فإن هذه كلها أوهام لا تلبث ان تزول ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج:١١) وفي هذا يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) قال تعالى (من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته)[٤] وروي عنه (عليه السلام) قوله (قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً)[٥] وقال (ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً)[٦].

ويحذّر الامام الصادق (عليه السلام) من تضييع النفس بالانجرار وراء الشهوات والمطامع، أو اتباع الزعامات غير الجامعة للشروط، أو الانخداع بالدعوات الضالة من دون تثبت، لأنه اذا قضى عمره على هذا المنوال فلا يعطى فرصة أخرى للتدارك قال (عليه السلام) (اتقوا الله وانظروا لأنفسكم، فان أحق من نظر اليها أنتم، لو كان لأحدكم نفسان فقدَّم أحداهما وجرّب بها، استقبل التوبة بالأخرى

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص ١٠٥

(٢) غرر الحكم: ١٧٨٨، ١٩٨٥

(٣) نهج البلاغة: حكمة ١٤٩

(٤) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد: ج ٢٠/ ص ٩٩، حكمة ٤٥٨

(٥) آثار الذنوب، الشيخ محسن قرائتي: ١٩٠

(٦) نهج البلاغة: الخطبة ٣٢

ولكنها نفس واحدة اذا ذهبت فقد والله ذهبت التوبة)[١].

٤- العلم والمعرفة والتفقه في أمور الدين، فبدونها يتخبّط الانسان ولا يميز بين الحق والباطل، وبين ما يجوز فعله وما لا يجوز، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (العلم رأس الخير كله، والجهل رأس الشر كله)[٢] وعن الامام الباقر (عليه السلام) قال (إن قلباً ليس فيه شيء من العلم كالبيت الخراب الذي لا عامر له)[٣]، وروي عن الامام الصادق (عليه السلام) قوله (من أراد التجارة فليتفقه في دينه ليعلم بذلك ما يحلُّ له مما يُحرمُ عليه، ومن لم يتفقه في دينيه ثم اتجرّ تورّط في الشبهات)[٤] والتحذير لا يختص بالتجارة وانما سائر فعاليات الحياة، اذ لكل عمل فقهه وأحكامه التي لا يجوز تجاوزها، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إن قلوب الجهال تستفزها الاطماع وترتهنها المنى وتستغفلها الخدائع)[٥] وقال (عليه السلام) (لا يرى الجاهل الا مُفرِطاً أو مفرّطاً)[٦]، والعلم وحده لا يكفي مالم يهذب به نفسه ويطهر به قلبه، انظر مثلاً الى ما يحكيه القرآن عن أحد علماء بني إسرائيل الكبار حيث بلغ منزلة (آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) لكنه لم يهذب بها غريزة الأنا والشهوات ولم يستفد من علمه ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

(١) وسائل الشيعة: ٥٣/١٥، أبواب جهاد العدد، باب ١٣ ح ١٠

(٢) بحار الأنوار: ٧٧/ ١٧٥ ح ٩

(٣) أمالي الشيخ الطوسي: ٥٤٣ ح ١١٦

(٤) وسائل الشيعة: ١٧ / ٣٨٢

(٥) أصول الكافي: ج١ / كتاب العقل والجهل ح ١٦

(٦) بحار الأنوار: ١٥٩/١ ح ٣٥

الْغَاوِينَ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦).

ثانياً: العوامل الخارجية التي تضبط سلوك المجتمع:

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الرقابة الاجتماعية وهي وظيفة عظيمة تميزت بها الأمة الإسلامية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران:١١٠) فجميع أفراد الأمة مسؤولون عن تقويم حركتها وإصلاح اخطائها ومعالجة مشاكلها، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة:٧١) روي عن الامام الباقر (عليه السلام) قوله في حديث (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردُّ المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر)[١] وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر والتقوى، فاذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسُلط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء)[٢].

٢- قوانين العقوبات:

فان كثيراً من الناس لا يمتلكون وازعاً إيمانياً أو عقلياً، ولا يستجيبون لداعي الأمر والنهي، ولا تردعهم الأمور المتقدمة فيرتكبون القبيح، ولكنهم

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ١١٩ ، أبواب الأمر والنهي، باب ١ ح ٦

(٢) وسائل الشيعة: ١٦/ ١٢٣ ح ١٨

يخافون من العقوبات فقط كالسجن وأمثاله، وهذا هو الذي يضبط سلوك أكثر الناس في الغرب وليس عوامل ذاتية صالحة، لذا تجد الفوضى تحصل عندهم بمجرد غياب القانون كما حصل ويحصل في أوقات الكوارث أو عند انقطاع الكهرباء، فتشريع القوانين المنظمة للحقوق والواجبات والتي تحدّد العقوبات على المخالفين أمر ضروري لردع المتجاوزين والخارجين على القانون.

ومن هنا فقد تسالم العقلاء على ضرورة وجود حكومة تحفظ النظام الاجتماعي العام وتوفر للناس الأمن والخدمات العامة وتيسّر معايش العباد ونحو ذلك، وتنظم الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع لضرورة وقوع التزاحم والتدافع بين أهواء الناس ومشتهياتهم ونزوعهم إلى التوسع في تحصيل الثروات وحرية التصرف وتلبية الشهوات والغرائز ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (القيامة:٥) فلا يكتفي بما صدر منه بل يريد ان يفعل ما يشاء في مستقبل أيامه أيضاً فيمتد بعضهم على حساب بعض قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (فَإِنَّهُ لاَبُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِير بَرّ أَوْ فَاجِر، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ)(١) فان كانت السلطة عادلة فهو المطلوب وبها يحفظ الدين ففي علل الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (عليه السلام) (انه لو لم يجعل لهم إماماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة)(٢) وان لم تكن السلطة عادلة ففي وجودها المصالح التي ذكرناها، وفي كلمة لأمير المؤمنين (عليه السلام) قال (والٍ ظلوم غشوم خير من

(١) نهج البلاغة: ٨٧/١ بشرح محمد عبده/ الخطبة ٤٠

(٢) علل الشرائع:٩٥/١، باب ١٨٢ ح٩

فتنة تدوم)[١] وروى بعض العامة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (إن الله يزّع بالسلطان ما لا يزّع بالقرآن)[٢].

٣- نشر الوعي الفكري والأخلاقي لزيادة بصيرة المجتمع بحيث تكون الثقافة السائدة في المجتمع مبنية على الأهداف النبيلة والوسائل النظيفة ومثل هذا المجتمع يساعد افراده في توجيه ميولهم نحو الصواب ويجعل من المعيب ممارسة الفعل الخاطئ حتى على مستوى القاء النفايات في الشارع العام أو عدم الالتزام بالإشارات المرورية فضلاً عن قبول الرشوة أو تخريب الممتلكات العامة أو التقصير في خدمة الناس وحينئذ لا يجد الفرد صعوبة في مسايرة هذا الجو العام وعدم الخروج عليه فان الثقافة العامة والسلوك الجمعي مؤثران في سلوك الفرد، وقد قيل (الناس يميلون مع كل ريح) وكان السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) يقول لتكن ريح الحوزة ــ أي الدين ــ هي الأقوى حتى تميل الناس معها.

٤- توسيع الشعائر الدينية وانتشار المساجد والمشاعر الدينية وإقامة الفعاليات المتنوعة فإنها تخلق بيئة تهذب ميول الإنسان ولا تبقي مجالاً لاستثارة شهواته وغرائزه والتجارب تشهد بذلك فان كثيراً من الناس يمتلكون شجاعة وقوة لمقاومة النظرة المريبة والسلوك غير النظيف في أجواء شهر رمضان أو محرم أو خلال المسيرة الأربعينية، بما لا يجدونه في غيرها، وقد جرّب

---

(١) الغرر والدرر ٦ / ٢٣٦، الحديث ١٠١٠٩.

(٢) شرح السير الكبير: ١٦٩/١ وأورد مضمونه في الفتوحات المكية: ٤٨٤/٤

العراقيون كيف ان إقامة السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) لصلاة الجمعة أدت الى انحسار الجريمة بنسبة ٨٠ بالمئة في المدن التي تقام فيها بحسب احصائيات الشرطة، لأنها وفّرت البيئة المساعدة على الطاعة وأصبح فعل المعصية يلاقي استهجاناً عاماً واستغراباً.

واذا أردنا تقييم هذه العوامل من حيث قوة التأثير فإنها متفاوتة ، ولاشك ان الايمان بالله تعالى يقف على رأسها، إذ ان العوامل الخارجية يغيب تأثيرها عندما يكون الانسان في خلوة ولا يجد رقابة عليه كالذي فعلته امرأة العزيز ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾(يوسف:٢٣) وكذا تضعف العوامل الذاتية عندما تطغى الغريزة وتشتد الشهوة، ولا يبقى رادع الا الاستعاذة بالله تعالى وطلب العصمة منه، ولا يوجد ضامن لصلاح الناس مثله، وقد اعترف زعيم الإلحاد مؤخراً بأننا اذا عزلنا الدين عن حياة الناس فسنخسر الكثير مما يردع الناس عن فعل الشر، لذا علينا تعزيز الإيمان في النفوس وتقويته من خلال وسائل مؤثرة فاعلة ذكرناها في مناسبات شتى ومنها قبس ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1] حيث عددنا مقوّمات كون العمل حسناً بل أحسن.

وقد روى لنا التاريخ الإسلامي مواقف سامية للتحكم في الغرائز لم يربّها أي شيء سوى التعلق بالله تعالى كالذي روي عن زوجة ابي طلحة الانصاري ـ وهو ممن شهد العقبة وبدراً وأحداً والمشاهد كلها ـ وكانا من خيار الأنصار فقد

---

(١) القبس/١٦٤(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) مقوّمات إحسان العمل: من نور القرآن: ج٥ / ص ١٠٢

مرض ولدهما وكان أبو طلحة يتعاهده كلما يرجع الى الدار فمات الولد اثناء خروجه فأخفته في زاوية الدار ولما عاد أبو طلحة وسألها عنه قالت: دعه فأنه قد هدأ واستراح فسُرّ أبو طلحة وآوى الى فراشه ومكنتّه من نفسها، فلما أصبح قالت: يا أبا طلحة: أرأيت قوماً أعارهم بعض جيرانهم عارية فاستمتعوا بها مدة ثم استرجع العارية أهلها فجعل الذين كانت عندهم يبكون عليها لاسترجاع أهلها إياها من عندهم ما حالهم؟ قال: مجانين، قالت: فلا نكون نحن من المجانين، إن ابنك هلك فتعزَّ بعزاء الله وسلِّم اليه وخذ في جهازه.

فأتى أبو طلحة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخبره الخبر فتعجب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أمرها ودعا لها وقال: اللهم بارك لهما في ليلتهما فحملت من تلك الليلة من أبي طلحة بعبد الله، فلما وضعته لفّته في قماش وأرسلت به الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فحنكه ودعا له وكان من أفضل أبناء الأنصار(١) وقد كان عبدالله بن ابي طلحة موالياً لأمير المؤمنين (عليه السلام) وشهد معه صفين.

والمثال الآخر ما رواه في كتاب عيون المعجزات قال (استأذن إبراهيم الجمال على أبي الحسن علي بن يقطين الوزير فحجبه، فحج علي بن يقطين في تلك السنة فاستأذن بالمدينة على مولانا موسى بن جعفر فحجبه، فرآه ثاني يومه فقال علي بن يقطين: ياسيدي ماذنبي؟ فقال: حجبتك لأنك حجبت أخاك إبراهيم الجمال وقد أبى الله أن يشكر سعيك أو يغفر لك إبراهيم الجمال، فقلت: سيدي ومولاي من لي بابراهيم الجمال في هذا الوقت وأنا بالمدينة وهو

---

(١) الكنى والألقاب للشيخ عباس القمي: ١٥٤/١ عن شرح الأخبار ٢٦/٢

بالكوفة؟ فقال: إذا كان الليل فامض إلى البقيع وحدك من غير أن يعلم بك أحد من أصحابك وغلمانك واركب نجيبا هناك مسرجا قال: فوافى البقيع وركب النجيب ولم يلبث أن أناخه على باب إبراهيم الجمال بالكوفة فقرع الباب وقال: أنا علي بن يقطين.

فقال إبراهيم الجمال من داخل الدار: وما يعمل علي بن يقطين الوزير ببابي؟! فقال علي بن يقطين: ياهذا إن أمري عظيم وآلى عليه أن يأذن له، فلما دخل قال: يا إبراهيم إن المولى أبى أن يقبلني أو تغفر لي، فقال: يغفر الله لك فآلى علي بن يقطين على إبراهيم الجمال أن يطأ خده فامتنع إبراهيم من ذلك فآلى عليه ثانيا ففعل، فلم يزل إبراهيم يطأ خده وعلي بن يقطين يقول: اللهم اشهد، ثم انصرف وركب النجيب وأناخه من ليلته بباب المولى موسى بن جعفر بالمدينة فأذن له ودخل عليه فقبله)[1].

واذا أردنا المزيد من المواقف العظيمة في ضبط الغرائز وتهذيبها فان معركة كربلاء حافلة بفصول سامية منها، فالإمام الحسين (عليه السلام) يتخلى عن حياة الرفاهية والدعة والجاه الاجتماعي الواسع لدى الأمة ويقدم على الشهادة بنفسه وولده وأهله وأصحابه وسبي عياله خير نساء الدنيا لأن نفسه الكريمة أبت الذلّة في غير طاعة الله تعالى، وفي ذلك يقول السيد حيدر الحلي (رحمه الله تعالى)

(١) بحار الأنوار: ٤٨ / ٨٥ ح ١٠٥

وسامته يركب أحدى اثنتين وقد صرّتِ الحربُ أسنانها
فإما يرى مذعناً أو تموت نفس أبى العز إذعانها
فقال لها اعتصمي بالإبا فنفس الأبي وما زانها(١)

وأبو الفضل العباس (عليه السلام) يصل الى ماء الفرات وقلبه يتفطّر من العطش ويمدُّ يده الى الماء ليشرب لكنه يرمي الماء من يده مواساة للإمام ابي عبد الله (عليه السلام) ولو فعل لما لامه أحد لأنه يتقوى به على الأعداء لكنه آثر الكمال والتسامي عما تريده النفس.

والحر الرياحي تنازل عن القيادة العسكرية وامتيازاتها والموضع المقرّب من السلطة ليلحق بركب الشهادة بين يدي ابي عبد الله الحسين (عليه السلام) مؤثراً لآخرته على دنياه.

وفي المقابل وجدت نماذج سيئة اطاعت شهواتها وغرائزها فقادتها ميولها التافهة نحو الهلاك كعمر بن سعد قائد الجيش الأموي الذي أغراه ملك الري فأقدم على قتل ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ولم يحصل منه على شيء، أو عبيد الله بن الحر الجعفي الذي دعاه الإمام الحسين (عليه السلام) الى نصرته وتحصيل الفوز والسعادة الا انه أخلد الى الأرض واتبع هواه وطمع في السلامة فتخاذل وحاول إرضاء الامام بالتبرع بفرسه لكن الامام (عليه السلام) أبى وقال اما وقد بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في شيء من مالك(٢).

---

(١) الدر النضيد: ٣١٢

(٢) مقتل الحسين (عليه السلام) لأبي مخنف ص ٧٣، انظر الإرشاد للمفيد ٢/ ٨١-٨٢

القبس/١٩٨

النحل: ﴿٩٧﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾

موضوع القبس: الإسلام يحقق الرفاه في الدنيا والسعادة في الآخرة

قال الله تبارك وتعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:﴿٩٧﴾).

وعدٌ من الله تعالى و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ﴿٩﴾) على نحو قانون عام ثابت تنشرح له النفس ويطمئن به القلب وتنشط به الجوارح خصوصاً للنساء اللواتي صودرت حقوقهن وأهينت كرامتهن وأنقصت درجاتهن.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ أيَّ عمل صالح، سواء كان العمل صغيراً أو كبيراً، ظاهراً أو خفياً، واحداً أو متعدداً فإنه مشمول بالآية الكريمة، وهذا يدعونا إلى عدم التقاعس عن القيام بأي عمل مادام صالحاً ولا نقلّل من شأن شيء منه، لأننا لا نعرف قيمة العمل ولا نعلم أثره، فقد اخفى الله تعالى رضاه في طاعته، حتى يكون ذلك حافزاً للقيام بكل عمل صالح.

﴿مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى﴾ بيان للتأكيد على عدم الفرق بين الذكر والأنثى في العمل وفي الجزاء، ولا في الواجبات والاستحقاقات، فالخطاب لهما واحد على

حد سواء، ولكل منهما القابلية على نيل الكمالات، وقد كانت ﴿مَنْ﴾ في بداية الآية كافية للدلالة بإطلاقها على شمولها للذكر والأنثى على السواء، لكن جيء بهذا التفصيل لتأكيد هذه الحقيقة، حيث سجّلت سورة النحل قبل ذلك عقيدة الجاهلية في الأنثى وضيق نفوسهم بها، وسطّرت جملة من صور احتقار المرأة كاستياء من يُبشَّر بولادتها وتواريه عن الناس قال تعالى في نفس سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ إلا سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل:٥٨-٥٩).

فتساوي الآية الكريمة بين الذكر والأنثى في العمل الصالح والجزاء الحسن بشرط أن يحسنوا مقدمات الحصول على الحياة الطيبة، ومنها مراعاة الاحكام الخاصة لكل منهما مضافاً الى الاحكام المشتركة بينهما ولا يجوز للمرأة تجاوزها باسم المساواة ونحو ذلك ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة : ٢٢٩) وقد تتورط المرأة بإسم العرفان والسلوك الى الله تعالى وتغريها بعض الكلمات المعسولة من قطّاع الطرق وشياطين الإنس فتقع فريسة لهم بسذاجتها وجهلها وكان عليها أن تعلم من أول الطريق أن (العفة رأس كل خير)[1] كما ورد عن الأمام علي ابن ابي طالب(عليه السلام)وهي قد أضاعت العفّه عندما ارتبطت بهؤلاء الماكرين على (الخاص) وتبادلوا الكلمات العاطفية فالحذر الحذر.

---

(١)ميزان الحكمة: ج ٣-ص٢٠٠٦.

وفي الآية تطمين للمرأة بان حقها ثابت، وكرامتها محفوظة، وأن الامتهان والانتقاص الموجودين في القوانين الأرضية والدينية المُحرفة لا يمتّان إلى الدين الإلهي بصلة، وهذا غاية ما يُقال في المساواة بين الرجل والمرأة، ودعك من عقائد الجاهلية وأحاديث المتشدقين بظلم المرأة والحيف عليها والمطالبة بحقوقها، فهذا هراء يُعرف القصد منه، ولن تجد الكرامة والعدالة والمساواة إلا في ظل الإسلام، وإنما يريدون بدعواتهم هذه إفساد المجتمع، وإخراج المرأة من عفافها وحيائها لتتحول إلى سلعة تحقق المتعة لهم، ثم يرمونها على قارعة الطريق.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الواو حالية: فكون العمل صالحاً ظاهراً لا يكفي في الحصول على الدرجات الرفيعة، ما لم يقترن بالإيمان، وما لم يصدر بنية خالصة لله تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٥)، فكم من عمل يبدو صالحاً في نفسه إلا أنه غير مقبول، ولا يترتب عليه الجزاء الطيب لأنه لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى، كمن ينفق ماله رياءً أو يقاتل عصبية أو لغنيمة يطلبها، فإن حظه يكون تحقق الغاية التي أرادها، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (إنما الأعمال بالنيات، إنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه)[1].

(١) بحار الانوار: ٦٧/ ٢١٣ عن غوالي اللئالي.

فلا بد أن يكون المؤمن دقيقاً من هذه الناحية ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤) وربما يظهر من بعض الروايات أن هذه النية تخفى حتى على الملك الرقيب على الإنسان، روى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال النبي (صلى الله عليه وآله) إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فاذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجّين، إنه ليس إياي أراد بها)[1].

ولعل تقديم العمل على الإيمان في الآية لإلفات النظر إلى أن العمل يعكس حقيقة الإيمان، ويكشف عن صدقه ولا ينفع إيمان إلا مع عمل، كما لا ينفع العلم إلا بالعمل به.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ أي من يعمل صالحاً وهو مؤمن يفيض الله تعالى عليه حياة أخرى ارقى من الحياة الاعتيادية التي يشترك فيها مع جميع الناس، ولعلها المقصودة بالمرتبة الثالثة أو الرابعة من مراتب النفس الإنسانية بحسب تقسيم أمير المؤمنين (عليه السلام)[2]، وهي الحياة الإنسانية الحقيقية أما غير المؤمن فليس كذلك لأن حياته جسدية حيوانية لا تزيد عن فعاليات الحيوان فهو مثله يأكل ويشرب ويتحرك وينام وينكح، وقد يزيد على الحيوان بوجود عقل نظري يتقن به بعض العلوم لكنه يفتقد الحياة المعنوية التي يتميز بها الإنسان، واستحق

(١) الكافي: ٢/ ٢٢٣ ح٧.

(٢) روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام): قوله لكميل بن زياد النخعي (يا كميل، وأي الأنفس تريد أن أعرفك؟ قلت: يا مولاي هل هي إلا نفس واحدة؟ قال: يا كميل إنما هي أربعة: النامية النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الإلهية) (بحار الأنوار: ٥٨/ ٨٥).

بها أن يكون خليفة الله في أرضه؛ لذا ضرب القران الكريم مثلاً لحياة غير المؤمنين بالأرض الهامدة والميتة فاذا انزل الله تعالى عليها برحمته ماء الايمان والمعرفة بالله فإنها تنتعش وتزدهر قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

((فالجملة بلفظها دالة على أن الله سبحانه يكرّم المؤمن الذي يعمل صالحاً بحياة جديدة غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة، وليس المراد به تغيير صفة الحياة فيه وتبديل الخبيثة من الطيبة مع بقاء أصل الحياة على ما كانت عليه، ولو كان كذلك لقيل: لنطيبّن حياته فالآية نظير قوله تعالى ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (الأنعام: ١٢٢)))[1].

((وليست هذه الحياة الجديدة المختصة بمنفصلة عن الحياة القديمة المشتركة، وإن كانت غيرها فإنما الاختلاف بالمراتب لا بالعدد فلا يتعدد بها الإنسان كما أن الروح القدسية التي يذكرها الله سبحانه للأنبياء لا توجب لهم إلا ارتفاع الدرجة دون تعدد الشخصية))[2].

﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ صفة للحياة التي يختص بها المؤمنون بلطف الله تعالى وتأييده ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢) ويتنعمون بها، وهذا الوعد مطلق فهو لا يختص بحياة الآخرة وإنما يكون ذلك في الدنيا أيضاً ولا ينافي الآيات التي دلّت على اختصاص الآخرة بصفة

---

(١) الميزان في تفسير القران: ١٢/ ٣٤١.

(٢) الميزان في تفسير القران:١٢/ ٣٤٣.

الحياة باعتبارها المستمرة الباقية والحقيقية كقوله تعالى ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢٤) وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت: ٦٤) فهذا الوصف بلحاظ خلودها وعدم فنائها في الدنيا، اما الوعد بالحياة الطيبة فإنه لحاظ آخر لا مانع من أن تكون مطلقاً فيشمل الدنيا بإطلاقه، فإن من ذكرتهم الآية يتنعمون بالجنة وهم في الدنيا، كما ورد في خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف المتقين: (....فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ)[1]، وتوجد أدلة من القرآن الكريم والسنّة الشريفة على أن الإنسان يعيش الجنة والنار في حياته الدنيوية بنحو من الأنحاء.

بل لعلَّ هذا الوعد متعيّن في الدنيا، لأن حسن جزاء الآخرة مذكور في نهاية الآية ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ وهو أوضح في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر: ٤٠).

ووصْفها بالطيبة مطلق ولا يختص بجهة معينة من الحياة، فهي آمنة مطمئنة سعيدة هادئة هانئة، تمتزج فيها المبادئ السامية مع العيش الرغيد، وليس من الضروري أن يتحقق ذلك بمال وفير أو جاه عريض أو سلطة قوية، وتزداد طيبة هذه الحياة بأن الله تعالى نسبها إليه مباشرة ﴿لَنُحْيِيَنَّهُ﴾ فالمؤمن العامل للصالحات يدّبره الله تعالى بحسن صنيعه، ويختار له الخير في جميع أموره، فالله تعالى ينصره في كل مواطن المواجهة وبكل أشكالها ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٩٣.

وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١) ويتولى أمره ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (فصلت: ٣١) ويزيل عنه الهم والحزن ويبشّره ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس:٦٢- ٦٤). وممّا يميّز هذه الحياة الطيبة حصول نور الفرقان في قلبه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف : ١٠٨) فيميّز بين الحق والباطل فيعرض عن الباطل ويتعلق بالحق ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ (يونس: ٨٢) . وغير ذلك من المنن الالهية العظيمة، وتتحقق بها استجابة لدعائهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١).

وقد فُسِرت الحياة الطيبة في الروايات بمعان عديدة: منها: القنوع[١] كما عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة والإمام الصادق (عليه السلام)، وكلها مصاديق لما يوجب الحياة الطيبة، أو إنها من آثارها على حياة الإنسان كقول ابن عباس: أنها السعادة[٢].

وتكون النتائج أوضح لو أن المجتمع عمل بهذا القانون فإن حياته الطيبة

---

(١) نور الثقلين: ٣/ ٨٣، بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٤٥.

(٢) الدر المنثور: ٥/ ١٦٤.

ستتجلى في الأمن والسلام والمحبة والتكامل والرفاه والإيثار، وسيزول عنه الظلم والطغيان والاستبداد والاستكبار والاستعباد وعبادة الأهواء والطواغيت، ولذا فإن هذه الحياة الطيبة ترتبت على العمل الصالح وليس الإيمان وحده، وهذه نتائج طبيعية لأنهم سيتصلون بالله تعالى وسيفيض عليهم من صفاته الحسنى بما يناسب درجاتهم، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة : ٦٦) وقال تعالى في الأمم التي تنكّرت للإيمان والعمل الصالح فسُلِبت نعمتا الغذاء والأمن ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إلا الْكَفُورَ﴾ (سبأ: ١٥- ١٧).

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن الله تعالى وعد عباده ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٣٠) ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: ٨٤) وإذا كان عملهم الصالح متفاوتاً في الحسن بحسب

إقبال قلوبهم ونشاط جوارحهم وتهيئة الظروف المناسبة، فإن الله تعالى سيعطيهم الجزاء وفق أحسن عمل قدموه، كالأستاذ الذي يمتحن طلابه عدة مرات ثم يحتسب لهم اعلى درجة أحرزوها، أو كتاجر محسن يأتي إلى صاحب بضاعة مختلفة في الجودة والسعر فيأخذها كلها بسعر أفضلها، هذا بلحاظ عملهم، أما بلحاظ كرم الله تعالى وفضله فإن حسن الجزاء سيزداد بغير حساب ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦١) فيكون المعنى بأحسن مما كانوا يعملون وهذا معنى ثانٍ للأحسنية، ويمكن أن يكون المعنى أنهم إذا كان في عملهم طاعة ومباح إحتسب المباح طاعة كقول النبي (ﷺ): (ونومكم فيه عباده) وفي وصيته (ﷺ) لأبي ذر أن النكاح يكون عبادة وفي بعض الأحاديث أنه إذا فاتته طاعة لمرض ونحوه كتبت له وهكذا.

وهنا معنى رابع بأن يكون الأحسن بمعنى الحسن المحض مقابل السيئ فيكون المعنى أن الله تعالى يجزيهم على أعمالهم الحسنة فقط أما السيئة فلا يحاسبهم عليها لأنه سبحانه سيغفرها لهم برحمته ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر: ٤٠) أي لا يحاسبهم عليها أو يبدلها حسنات ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠).

الدين مشروع لاعمار الدنيا وليس للآخرة فقط:

والوعد بالحياة الطيبة في الدنيا يدعونا إلى تصحيح أسلوب الخطاب الديني فإننا حين ندعو الناس إلى الالتزام بالدين والعودة إلى الله تبارك وتعالى نقدّم لهم وعوداً بالجزاء في الآخرة بأنهم سيدخلون الجنة ويتنعمون بها، وهذا لا يكفي لإقناع الناس بالدين لأنهم أبناء هذه الدنيا ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (القيامة: ٢٠) وهم يفكرون في تحسين أوضاعهم المعاشية ويسيرون خلف من يضمن لهم ذلك فلا بد أن تبيّن لهم أن الدين ليس فقط مشروعاً لإصلاح الآخرة بل هو مشروع لسعادة الدنيا أيضاً، وهذا منهج قراني، فإنه امتدح قوماً يطلبون الحسنة في الدنيا كما يطلبونها في الاخرة، قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة : ٢٠١) وفي أوائل البعثة الشريفة لما دعاهم إلى عبادة الله تعالى كفل لهم أهم حاجتين الغذاء والأمن، قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٣- ٤) بل إن أول إنسان خلقة الله تبارك وتعالى وهو النبي آدم (عليه السلام) أبو البشر تعهد الله تعالى له بذلك قال عز وجل: ﴿إِنَّ لَكَ إلا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ (طه: ١١٨- ١١٩)، وقد رغّب الله تعالى المؤمنين في الجهاد بثواب الآخرة وغنيمة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ (الفتح: ٢٠).

ومن يتتبّع أحاديث النبي واله (صلوات الله عليهم أجمعين) يجد هذه

الرؤية واضحة، مثلاً في قضية الزواج تجد الأحاديث الأخروية كقول النبي (صلى الله عليه وآله): (من أحب أن يتبع سنتي فإن من سنتي التزويج)[١] وقول الإمام الصادق (عليه السلام): (ركعتان يصليهما المتزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها أعزب)[٢]، وتجد أيضاً حديث الإمام الباقر (عليه السلام) عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (اتخذوا الأهل فإنه أرزق لكم)[٣] وقال الإمام الصادق (عليه السلام) لمن شكا له الحاجة: (الرزق مع النساء والعيال)[٤].

أو قضية طلب العلم فقد وردت فيه أحاديث كقول النبي (صلى الله عليه وآله): (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)[٥] وقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (الشاخص في طلب العلم كالمجاهد في سبيل الله)[٦] كما ورد فيه مثل قول النبي (صلى الله عليه وآله): (من تفقه في دين الله كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب)[٧].

ولا بد من الانتباه هنا إلى أن الأغراض الدنيوية يجب أن تكون في طول نية القربة إلى الله تعالى وتحت سقفها كما يقال، وليس في عرضها على نحو التشريك فضلاً عن كونها هي الغاية، فإنه خلاف الإيمان والإخلاص الذي

---

(١) وسائل الشيعة: ٢٠/ ١٧ ط. مؤسسة أهل البيت عليهم السلام.

(٢) وسائل الشعة: ٢٠/ ١٨.

(٣)وسائل الشيعة: ٢٠/ ١٩.

(٤) وسائل الشيعة: ٢٠/ ٤٤، ح ٤، ٥.

(٥) تنبيه الخواطر: ٢/ ١٧٦ ميزان الحكمة: ٦/ ١٥٦.

(٦) ميزان الحكمة: ٦/ ١٥٧.

(٧) كنز العمال: ح ٢٨٨٥٥، ميزان الحكمة: ٦/ ١٥٧.

اشترطته الآية الكريمة وغيرها، خُذ مثلاً حديث الإمام الصادق (عليه السلام) عن طلب العلم: (من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة)(١).

وهكذا تجد عبادات كثيرة جُعِلَ جزاؤها دنيوياً معجلاً كتحصيل الذرية أو التوسعة في الرزق أو تفريج الهموم والغموم أو السعادة الزوجية أو راحة البال وغير ذلك، وهو لا ينافي الإخلاص وقصد القربة وتصحيح ذلك أنها من باب الداعي إلى الداعي أي أن الداعي إلى الصلاة تكون القربة إلى الله تعالى وأن الداعي إلى هذا الداعي هي هذه الحاجات والمطالب المعجَّلة.

ومن يقرأ الأهداف التي أعلنها الإمام الحسين (عليه السلام) لخروجه يجد فيها إقامة السنة وإماتة البدعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويجد إلى جنبها إقامة العدالة الاجتماعية وتوفير الأمن وحرية التعبير عن الرأي وسائر حقوق الناس وتوزيع الثروات على الشعب بالعدل والعمل بالقانون وإبطال إمامة الجور ونحو ذلك من الأغراض التي تلبي الاحتياجات العاجلة للناس.

---

(١) الكافي: ١/ ٤٦، ح٢، ميزان الحكمة: ٦/ ١٦٤.

القبس/١٩٩

الإسراء: ﴿١٠٠﴾

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾

موضوع القبس: معالجات قرآنية لعدم الإنفاق

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (الإسراء: ﴿١٠٠﴾) قلْ يا رسول الله للكافرين والمعاندين الذين أكثروا المقترحات المذكورة في الآيات السابقة، عناداً واستكباراً وجدالاً أنه لو كانت خزائن رحمة الله تعالى على سعتها بأيديكم وتحت تصرفكم لامتنعتم من الإنفاق وإعطاء العباد احتياجاتهم مدّعين خوف الفقر إذا أنفقتم، والأمر ليس كذلك لأن خزائن رحمة الله لا تنفد (ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً)[1]، لكن البخل والإمساك والتضييق أصبح صفة لازمة في نفوسكم الأمّارة بالسوء.

لقد جُبِل الإنسان على حب المال، قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ﴿٢٠﴾) وليس في ذلك نقص ذاتي، فلو كان حب كسب المال من أجل التقرب إلى الله تعالى بإنفاقه في موارد البر والإحسان كالحج والعمرة وزيارة المعصومين (عليهم السلام) ومساعدة المحتاجين ونصرة الدين ونشر العلوم والمعارف النافعة وتزويج الشباب المتعففين وإنشاء المشاريع ذات النفع العام

---

(١) من دعاء الافتتاح الذي يقرأ في ليالي شهر رمضان المبارك.

كالمستشفيات والمدارس ومحطات المياه والكهرباء وشق الطرق وغيرها، فإنه سيكون أمراً محموداً بلا إشكال وسيكون من طلب الآخرة وليس الدنيا.

وإنما تبرز المشكلة لو كان هذا الحب للمال يدفعه إلى تحصيله بأي نحوٍ كان ولو من طرق غير مشروعة، أو أن هذا الحب يكبّله عن دفع ما يتعلق بذمته من مال حيث جعل الله تعالى فيه حقوقاً لغيره ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ١٩) وهذه الحالة هي التي ذمّها الله تبارك وتعالى، وتتحول بالانسياق المستمر لها إلى صفة متأصلة في النفس الإنسانية وتتغلب على نداء العقل والفطرة والدين وتميتها.

وهذه الصفة أصبحت غالبة لدى البشر حتى عدَّها الله تعالى من الصفات اللازمة للإنسان ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ (الإسراء: ١٠٠) والإقتار هو التضييق في الإنفاق والبخل بالمال والإمساك عن بذله في موارد رجحانه، وصيغة (فعول) من صيغ المبالغة التي تدل على شدة الاتصاف، وقال تعالى في آية أخرى ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (النساء : ٥٣) والنقير هو الشق في النواة ويضرب مثلاً للشيء الضئيل، وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨) والشُّح هو ((بخل مع حرص وذلك فيما كان عادة)) فهذه الصفة حاضرة لدى الإنسان ومشاهدة فيه بوضوح إلا مَن عصم الله تعالى فحررّهم من عبودية المال وغرائز النفس الأمّارة بالسوء وقد أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩) (التغابن: ١٦).

وقد يبرّر الإنسان هذا الحرص على المال والخوف من الإنفاق بخوف الفقر والاحتياج في المستقبل فيدّخره للطوارئ حتى قيل في المثل (القرش الأبيض ينفعك في اليوم الأسود) إلا أنه يخدع نفسه، وتفضحه الآية الكريمة بأنه حتى لو ملك خزائن رحمة الله على سعتها وعدم نفادها، فإنه سيمتنع عن الإنفاق، لأن البخل والشح والحرص على المال صفة راسخة في نفس الإنسان.

وخزائن رحمة الله هي الجهات التي جعلها الله تعالى سبباً لاستدرار رحمته كما في الدعاء (اللهم إني أسألك موجبات رحمتك)، وهي عامة تشمل العطاء المعنوي والمادي.

ولأن الله تعالى هو خالق الإنسان والبصير بما يعاني منه وما يصلحه فقد عالج هذه الصفة المذمومة المتأصلة من خلال عدة أساليب علمية وعملية للدخول إلى أعماق النفس الإنسانية وفتح مغاليقها وكبح جماحها، لتغيير خصالها وتهذيب صفاتها، ويمكن معرفتها من استقراء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، منها:

١- الترغيب في الإنفاق من خلال بيان الآثار المباركة له في الدنيا والآخرة كمضاعفة الثواب أضعافاً كثيرة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١) وأن الإنفاق سبب لغفران الذنوب ومحو السيئات، قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ

سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧١) وسبب للتثبيت على الهدى والصراط المستقيم في الآخرة ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (البقرة: ٢٦٥) (لاحظ مثلاً سورة الحديد فإن فيها ربطاً متعدداً بين التوحيد والإنفاق) وأن الصدقة تستنزل الرحمة الإلهية والاطمئنان والسكينة، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣) وغير ذلك.

وقد أخبرت الأحاديث الشريفة ببعض هذه النتائج المباركة كقول النبي (صلى الله عليه وآله): (أرض القيامة نار ما خلا ظلَّ المؤمن، فإن صدقته تُظِّله)[(١)]، وقال النبي (صلى الله عليه وآله): (الصدقة تسدُّ سبعين باباً من الشرّ)[(٢)]، وقال (صلى الله عليه وآله): (أكثروا من الصدقة ترزقوا)[(٣)].

ولم يكتفِ بذلك بل فرض حقوقاً يجب إيصالها إلى مستحقيها ولا يُعذر المتخلف عنها ولم يدع الإنفاق لرغبة الشخص، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣) وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ١٩) ثم بيَّن موارد كثيرة لاستحباب الإنفاق وهكذا.

---

(١) الكافي: ٤/٣، ح٦.

(٢)بحار الأنوار: ٩٦/١٣٢، ح٦٤.

(٣) ميزان الحكمة: ٥/ ٧٠.

٢- ذم البخل والإمساك عن الإنفاق الراجح، واعتبارها صفة مذمومة مقيتة، ليتحرّك الإنسان التوّاق إلى الكمال والرقي والسعادة إلى معالجتها، وبيان أن البخيل لا ينفع نفسه بل يضرها، قال تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٨) وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٠) وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (البخل جامع لمساوئ العيوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء)[1]، وروي عن الإمام الهادي (عليه السلام) قوله: (البخل أذمّ الأخلاق)[2]، ومما قيل من شعر الموعظة في البخيل:

يفني البخيل بجمع المال مدّتَه   لم يعتبر بأناس قبله جمعوا
كدودة القزّ ما تبنيه يهلكها   وغيرها بالذي تبنيه ينتفعُ

٣- التحذير من سوء عاقبة المتخلفين عن الإنفاق كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤_٣٥)

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٨، راجع ميزان الحكمة: ١/ ٣٥١ للاطلاع على مزيد من الأحاديث.
(٢) بحار الأنوار: ٧٢/ ١٩٩، ح ٢٧.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ*ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ*ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ*إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ*وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الحاقة: ٣٠-٣٤) وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الماعون: ١-٣) وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾(المدثر ٤٢-٤٤) فهذه صور لعواقب فظيعة يكفي مجرد تصورها للإصابة بالذعر والهلع الشديدين ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥)۞ فقد جعلت عدم الإنفاق سبباً لوقوع الفرد والمجتمع في التهلكة بصورها المتعددة التي بيّناها في القبس السابق.

أما الأحاديث الشريفة فإنها تفوق حد الإحصاء ولا يسع المجال لذكرها نذكر أحدها وهو قول الإمام الباقر (عليه السلام): (الذي يمنع الزكاة يحوّل الله ماله يوم القيامة شجاعاً (أي ثعبان) من نار له ريمتان [1] فيطوقه إياه ثم يقال له: الزمه كما لزمك في الدنيا، وهو قول الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٠)) [2].

(١) كذا في جميع النسخ، وهكذا نقله في المستدرك أيضا، والصحيح "زبيبتان" تثنية زبيبة وهما نقطتان سوداوان فوق عيني الحية والكلب. يخيل للرائي أن لها أربعة أعين وإذا كانت كان عضها قتالاً.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٣ – ص ٨.

٤- الوعد بأن الله تعالى يخلف على الإنسان ما ينفقه في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ:٣٩) مضافاً إلى أنّ له أجر ما أنفق[1] قال تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٧٢) وهذا الإيفاء متحقق في الدنيا والآخرة؛ لذا يتعجّب الإمام الصادق (عليه السلام) من البخيل ويستنكر فعله قال: (إن كان الخلف من الله عز وجل حقاً فالبخل لماذا!)[2].

٥- بيان حقيقة أن هذا المال ليس مملوكاً حقيقة للإنسان، وإنما هو وديعة لديه وأمانة استُخلف عليها وعمّا قريب تستردّ الوديعة ويرث الله تعالى الأرض وما عليها، قال تعالى معاتباً ومستنكراً: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحديد:١٠) وحينئذٍ يخرج الإنسان من الدنيا صفر اليدين ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام: ٩٤) ولا يبقى له إلا ما أنفق في سبيل الله، وحينئذ لا يتردد عاقل في تقديم أكبر مقدار ممكن مما خوّله الله

---

(١) يوجد في إحدى الدول الأوروبية بنك للوقت تسجِّل فيه حساباً للوقت الذي تنفقه في خدمة الآخرين على نحو المداراة الصحية أو الأعمال المنزلية وغير ذلك وهذا الرصيد يُستفاد منه عند الاحتياج إلى المساعدة في الشيخوخة أو المرض أو أي سبب آخر فيأتي من يخدمك مدة تستقطع من الرصيد فهذا تطبيق لما افادته الآية الكريمة من أن الله تعالى يخلف على المنفق.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٨/ ١٩٠، ح ١.

تعالى إلى حسابه الثابت في الآخرة ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (البقرة : ١١٠) (المزمل : ٢٠) وعدم تركه وراءه بلا استثمار في ما ينفعه في حياته الباقية، قال الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد: ٧) وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ*وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إذا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: ١٠-١١) وسيندم الإنسان على بخله وعدم تقديم الزاد لآخرته، وسيلتمس من المؤمنين أن يسعفوه بقبس من نورهم ليضيء ظلمته في القيامة فيأتيه الجواب: ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾ (الحديد: ١٣) فإن الدنيا هي دار العمل واكتساب الحسنات والنور، وروت عائشة (أنَّهم ذبحوا شاةً فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ ما بقيَ منْها؟ قلتُ ما بقيَ منْها إلا كتفُها. قال: بقيَ كلُّها غيرَ كتفِها) [1]، فإن الباقي الحقيقي هو ما أُنفِق في سبيل الله وفي وجوه البرِّ والإحسان.

٦- معالجة الإشكالات التي يوسوس بها الشيطان لمنع الإنسان من الإنفاق وعلى رأسها خوف الفقر، ولا يلتفت إلى أن الآمر بالإنفاق هو الرزّاق الكريم وبيده خزائن السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ

(١) صحيح الترمذي: ح ٢٤٧٠.

وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨) والشيطان يُخوِّفكم من الفقر إذا أنفقتم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥) والتخويف هنا مطلق شامل لكل أسبابه وموارده، فقال تعالى في الجواب: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٢٨) والعيلة تعني الفقر، ويقال عال الرجل إذا افتقر، وقد منَّ الله تعالى على نبيه (صلى الله عليه وآله) برفع هذه الحاجه ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (الضحى: ٨). ويتعجّب الإمام الصادق (عليه السلام) من هذا التناقض المثير للسخرية الذي يقع فيه البخيل، فقال (عليه السلام): (عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء)[1].

ويمكن أن يوسوس الشيطان من جهة مصداقية المستحق للإنفاق او وثاقة الوسيط في نقل المال المستحق، وهذه كُلُها لا تبرّر الامتناع عن الإنفاق وإنما توجب التثبت والتأكد من مورد الصرف والقائمين عليه ونحو ذلك.

٧- إلفات النظر إلى أنهم إن لم ينفقوا المال في طاعة الله تعالى وما يوجب رضاه فإنهم سيبتلون بإنفاق ما هو أكثر منه في معصية الله تعالى ويجمعون عليهم خسارة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ١٩٩، ح ٢٨.

عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦)◉ فهذه الأموال التي بخلوا بها عن طاعة الله تعالى سينفقونها في معصيته [1].

٨- التعجيل في فعل الخير والمبادرة الى عمل المعروف لان التأنّي والتأخير يفسح مجال للشيطان أن يثير الوساوس لمنعه من الإقدام قال الإمام الباقر (عليه السلام): (من همَّ شيء من الخير فليعجلّه، فإن كل شيء فيه تأخير فإن للشيطان فيه نظرة) [2]

موارد البخل ومصاديقه:

ونحن وإن ركّزنا في الحديث على الإقتار والبخل و الشُّح بالمال إلا أنه شامل لكل موارد الإنفاق التي فصلناها في قبس سابق [3]، كالبخل بالعلم والمعرفة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيضلّ ويكون سبباً لإضلال غيره، وهو أحد مصاديق قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ (النساء: ٣٧) فعدّه الله تعالى أمراً بالبخل عملياً فيتحمل وزره ووزر من تأثر به.

وأسوأ درجات البخل وافظعه الامتناع عن الشهادة لله تعالى بالوحدانية

(١) راجع تفسير هذا القبس القرآني لمعرفة تفصيل الفكرة.

(٢) الكافي: ١٤٣/٢، ح٩.

(٣) راجع تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿البقرة: ١٩٥﴾.

ولمحمد (صلى الله عليه وآله) بالرسالة، وعدم أداء الواجبات الشرعية كالصلاة اليومية أو صوم شهر رمضان فإنه بخل فظيع، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (أبخل الناس من بخل بما افترض الله عليه) (١)، كما يروى عن أحد طواغيت قريش أنه أجاب النبي (صلى الله عليه وآله) حين طلب منه أن ينطق بالشهادتين فقال: ((إن حمل الجبال الرواسي على ظهري أهون عليّ من النطق بهما)).

وهكذا من البخل كتمان كل شهادة حق، وعلى رأسها الشهادة لأمير المؤمنين (عليه السلام) بالولاية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣) ومنها البخل على أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) بالمودّة، وهو حقهم الذي فرضه الله تعالى وجعله أجر تبليغ الرسالة، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى: ٢٣).

وتصل ذروة البخل بالامتناع عن أداء حق النبي (صلى الله عليه وآله) وشكره على جهده وجهاده بالصلاة عليه وعلى آله عند ذكره، ففي الحديث النبوي الشريف: (إن أبخل الناس من ذُكِرتُ عنده ولم يصلِّ عليَّ) (٢). وقال (صلى الله عليه وآله): (البخيل حقاً من ذُكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ) (٣).

ومن موارد الشحّ ما ورد في تفسير الآية المتقدمة بالنسبة للمرأة بأنه:

---

(١) بحار الأنوار: ٧٣/ ٣٠٠، ح ٢.

(٢) كنز العمال: ٢١٤٤.

(٣) بحار الأنوار: ٧٣/ ٣٠٦، ح ٢٨.

عدم ارتدائها اللباس الفاخر وترك التزين والامتناع عن تلبية احتياجات الزوج، فيعالج الشح بأداء حق الآخر وقد يتطلب التنازل عن بعض حقه لإيقاع الصلح قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: ١٢٨).

ومن موارد المنع والإمساك أن يبخل الشخص بالسلام فلا يبتدئ أحداً بالسلام، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (البخيل من بخل بالسلام)[1].

بل قد لا يردّ السلام مع وجوبه، وآخر يبخل بالكلمة الطيبة فلا يقول شكراً لمن قدَّم له خدمةً كزوجته مثلاً، وآخر لا يسدي معروفاً إلى أحد مع قدرته عليه.

(١) معاني الأخبار: ٢٤٦/ ٨.

القبس/٢٠٠

الكهف: ٢٨

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾

موضوع القبس: مصاحبة الصالحين تحمي من الوقوع في الفتن

قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

أي احبس نفسك ووطّنها على مصاحبة الصالحين وملازمة مجالسهم، وهم الذين صدقوا مع الله وأخلصوا نياتهم لله تعالى، وكرّسوا أنفسهم لما يحب ويرضى، فقّربهم وتقرَّب إليهم، واستمع إلى مشاكلهم، واقض حوائجهم ودارهم، وتحمّلهم إن ضاقت نفسك بمواساتهم، وتحمل معاناتهم ومقاطعة المجتمع لك بسببهم، فإنهم انقطعوا إلى الله تعالى وكرّسوا حياتهم بكل تفاصيلها لله، واستوعبوا رسالة الإسلام عقيدة وفكراً و سلوكاً، فهم القوة الحقيقية للدين ويعوَّل عليهم في مواجهة الأخطار والفتن، وإن كانوا لا يملأون العين لخلو أيديهم من مظاهر الترف وزينة الدنيا.

ولعل في التعبير بالغداة والعشي كنايةً عن ذكرهم المستمر لله تعالى واستيعاب الوقت فيه، قال تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ

وَالْإِبْكَارِ﴾ (غافر : ﴿٥٥﴾) وقال تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران : ﴿٤١﴾) وحضور الهدف لديهم وهو طلب رضا الله تعالى في كل تفاصيل حياتهم: عبادتهم وعملهم وعلاقاتهم الاجتماعية وأحاديثهم وحركتهم، ويراد أيضاً بالغداة والعشي جمعهم في أوقات الصلاة روي عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) في تفسير هذه الآية قالا: (إنما عنى بها الصلاة) [(١)].

ورفعت الآية من منزلتهم حينما وصفتهم بأنهم يريدون وجهه أي مخلصين لله تعالى لا يريدون جزاءً ولا شكوراً.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولا تُعرض بوجهك عنهم وتبتعد عن مصاحبتهم، مجاملة للأغنياء والمترفين والمستكبرين واللاهين العابثين الذين يستنكفون من مجالسة هؤلاء المستضعفين، و طمعاً في إصابة شيء من دنياهم أو لتحظى بمكانة عندهم، فالآية الكريمة لا تدعو إلى مقاطعة المترفين وعدم إيصال صوت الحق إليهم، لأن الإسلام دين الرحمة والهداية لكل الناس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ﴿١٠٧﴾)، و لا إلى عدم الاستفادة من إمكانياتهم لنصرة الدين وتحسين أوضاع المحرومين، ولكن مع الفطنة والحذر من مكائدهم وشيطنتهم، و تنهى عن مجاملتهم والانسياق وراء رغباتهم على حساب الحق طمعاً في الدنيا.

ولا يبرّر إبعاد المؤمنين حتى لو كان الهدف كسب المترفين وهدايتهم

---

(١) نور الثقلين: ٢٥٨/٣ عن تفسير العياشي.

حيث عدّت آية سورة الأنعام من يفعل ذلك من الظالمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٢).

روي في سبب نزول الآية أن مشركي قريش عرضوا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يبعد عنه أصحابه من الطبقة الاجتماعية المتدنية بحسب نظرتهم كعمار وبلال وخبّاب حتى يجلسوا إليه ويسمعوا منه وأنهم ما يمنعهم منه إلا وجود هؤلاء حوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (عبس: ١ - ١٢).

والأمر بالصبر يكشف عن تعرض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لضغط من قبل المترفين لإبعاد الفقراء والمستضعفين، وكانت خديعة منهم لتفريق شمله وتوهين منزلته لدى أصحابه لما في ذلك من الإهانة والتحقير لهم.

وقد وقع مثل ذلك في المدينة بعد فتح مكة من بعض الوجهاء الذين اضطروا للدخول في الإسلام، فقد روى علي بن إبراهيم في تفسيره قال: (فهذه نزلت في سلمان الفارسي كان عليه كساء فيه يكون طعامه وهو دثاره ورداؤه وكان كساء من صوف فدخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وآله وسلمان عنده، فتأذى عيينة بريح

كساء سلمان وقد كان عرق فيه وكان يوم شديد الحرّ فعرق في الكساء، فقال: يا رسول الله إذا نحن دخلنا عليك فأخرج هذا واصرفه من عندك فإذا نحن خرجنا فأدخل من شئت فأنزل الله ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ وهو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري)[1].

فجاء الرد من الله تبارك وتعالى حازماً واضحاً في رفض كل هذه العروض، لأن الإسلام رسالة إلهية لإصلاح الإنسان وقلع جذور الجاهلية في نفوس الناس، ومنها هذا الاستعلاء والطبقية.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ واحذر أن تنزلق إلى مطاوعة ما يريدونه منك، أو يخدعك أولئك الذين أعمت الدنيا بصيرتهم وشغلتهم عن معرفة الحقيقة، فقضوا حياتهم في اللهو والعبث والاستمتاع واللامبالاة، وشغلوا فكرهم وقلوبهم بهذه الأمور وغفلوا عن الوصول إلى الغاية، وتحقيق الغرض الذي خُلقوا من أجله وهو السعي نحو الكمال والفوز برضوان الله تعالى، فحرموا من توفيق الله تعالى وتأييده.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ولم تكن أفعالهم عن حكمة ورُشد وبصيرة بل اتباعاً للأهواء والنزوات والإثارات العاطفية شهوة أو غضباً أو جهلاً أو تعصّباً، فكأنَّ تلك الغفلة سبب لسقوطهم في اتباع الأهواء والشهوات أو نتيجة له أو كل

(١) البرهان في تفسير القرآن: ج٦، ص ١٣٢ ح٢ عن تفسير القمي: ج٢، ص ٣٤، الدر المنثور:٣٥٤/٥.

منهما سبب للآخر، فهُم في هذا التسلسل من الانحدار: غفلة ثم اتباع هوى حتى يصلوا إلى قعر الانحطاط.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي ضائعاً مشتتاً غير محافظ على الاستقامة، منحرفاً عن الحق ومثله التعبير في سورة مريم ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم: ٥٩) وهو الضلال وفقدان الرشد.

إن الآية الكريمة ترشد إلى أدب من آداب القرآن يربّى عليه قادة الإسلام في نظرتهم إلى الناس وكيفية تعاملهم معهم، ويربّي أتباعه أيضاً على هذا الأساس خصوصاً الحوزة العلمية والمتصدين لمواقع المسؤولية والعاملين الرساليين، بأن لا يترفعوا عن عامة الناس وأن لا يضعوا الحواجز بينهم.

وبنفس الوقت تقدم الآية الكريمة هذا العلاج لأكثر من مشكلة:

حل مشكلة التمايز الطبقي:

١- اجتماعية: وهي التمايز الطبقي حيث يُصنَّف أبناء المجتمع الواحد إلى طبقة مستعلية من أهل الثراء والترف وهم قلة، وطبقة متدنيّة لا تملك ما عند أولئك وهم الكثرة، وتُميِّز الطبقة الأولى نفسها عن الثانية في مجالسها ونمط حياتها في المأكل والملبس وواسطة النقل وسائر شؤونها حيث يعتادون الإسراف والتبذير وبعثرة الأموال على اللهو والعبث، بينما تعيش الطبقة العامة في ضنك من العيش وصعوبة في تدبير احتياجاتها الأساسية، مما يولّد شعوراً بالانتقام من الذين يعتاشون على دمائهم، وقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام)

قوله :(فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إلاَّ بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِي)[1]، ونقل عن بعض النسخ المخطوطة للنهج (بما منع).

وهذه مشكلة معقّدة عانى منها جميع الأنبياء (عليهم السلام) فواجهوا بها نوحاً (عليه السلام) ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الشعراء: ١١١ - ١١٥) وواجهوا بها النبي هوداً (عليه السلام) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود: ٢٧) وهذا ما جرى عليه فرعون في خطابة لموسى وهارون وقد جاءاه بهيئة الفقراء يدعوانه إلى الإيمان بالله تعالى ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف: ٥١ - ٥٣) فهم يريدون من الأنبياء والقادة المصلحين الرساليين أن يدُوروا في فلكهم ويحفظوا لهم مصالحهم وزعامتهم، و أن يسكتوا عن مظالمهم واستئثارهم بأموال الناس، وأن يجعلوا من الدين غطاءً يشرعنون به كل هذه الجرائم والانحرافات، ويجلدوا به معارضيهم، مقابل أن يحظوا بالمكانة عندهم ويعدّونهم من طبقتهم، وإلا فسيواجهونهم بشراسة، وهذا

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٣٢٥.

التحدي مستمر يواجهه العلماء الربانيون ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ: ٣٤ - ٣٥) فهذه النظرة الاستعلائية وجعل المقياس الأمور الدنيوية موجودة عندهم.

وضمن هذا المنهج الإصلاحي لهذه العقدة الجاهلية يجيء هذا الأمر فإن في الاستجابة لهم تأكيداً لهذه الفوقية التي يتعاملون بها مع بقية الناس مع ما يتطلبه من تقديم تنازلات على حساب العقيدة الحقة والأخلاق السامية والمداهنة ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم: ٩).

فجاءت الآية الكريمة بهذا الأمر الإلهي ليردم هذه الفجوة، ويشعر طبقة المستضعفين بأهميتهم ويزرع الثقة بأنفسهم وأنهم الأقرب ما داموا يريدون وجه الله تعالى مع زجر المتعالين حتى يتواضعوا ويحسّوا بمعاناة غيرهم ويواسوهم ويعطوهم حقوقهم.

وقد دأب قادة الإسلام المعصومون (عليهم السلام) على هذا الأدب الإلهي في حياتهم فكانوا - مع جلالة قدرهم وعلوّ مكانتهم التي لا يضاهيها أحد - يجالسون الفقراء والعبيد ويؤاكلونهم ويدعونهم إلى دورهم.

وبذلك وحّد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الجميع تحت راية الإسلام وصنع من أعراب الجاهلية خير أمة أخرجت للناس ومنحها القوة والاقتدار لتفتح العالم وتبني أرقى حضارة إنسانية.

لما علم أمير المؤمنين (عليه السلام) أن واليه على البصرة عثمان بن حنيف

دعي إلى مأدبة للأغنياء ورجال الأعمال كما يسمونهم أسرع في إرسال كتاب له جاء فيه (أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قومٍ عائلهم مجفوّ وغنيهم مدعوّ) (١).

وتنقل الآيات الكريمة مشهداً في يوم القيامة للمفاجأة المذهلة التي يصدم بها المترفون المتعالون حينما يجدون أنفسهم في الجحيم ويجدون من كانوا يصفونهم بالأراذل في أعالي النعيم ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ (ص: ٦٢ - ٦٣).

وتصف الآية التالية للآية محل البحث عاقبة هؤلاء وصورتهم الحقيقية في الآخرة بعد أن خدعوا بالصورة الدنيوية المزوّقة، لكن الحقيقة أن ما أكلوا من أموال ناس بالباطل سيصير سوائل مذابة فائقة الحرارة تشوي الوجوه عند تقريبها قبل شربها، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩) فالمشروبات المثلّجة التي كانوا يتنعّمون بها في الدنيا على حساب المحرومين أصبحت بهذه الصورة لأنهم بترفهم حرقوا قلوب أولئك المحرومين والمستضعفين.

وبالمقابل يتساءل أصحاب الجنة فيما بينهم وهم يرفلون بأنواع النعم التي

---

(١)نهج البلاغة: قسم الكتب، رقم ٤٥.

وصفتها سورة الصافات ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (الصافات: ٥٤ - ٥٧) وفي هذا كله تحذير وتنبيه لأهل الغفلة من المترفين.

حل مشكلة القلق والتخبّط في الفتن:

٢- دينية وأخلاقية: وهي مشكلة الضياع والقلق وعدم الاستقرار وسط تجاذبات الفتن فتعالج الآية الكريمة هذه المشكلة لترويض النفس حتى تكون مطمئنة ولتطهير القلب حتى يكون سليماً من الرذائل وتشير الأحاديث الشريفة إلى أن التدبر في سورة الكهف يقي من الفتن ففي مجمع البيان عن أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (من قرأها فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة، فإن خرج الدجال في تلك الثمانية الأيام عصمه الله من فتنة الدجال) وروي أيضاً عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ستة أيام من كل فتنة تكون فإن خرج الدجال عصم منه) [1].

فقدّمت السورة عدة عواصم منها ومثبتات على الهدى والاستقامة، منها:

أ- الإخلاص لله تعالى كما في الآية الأخيرة من السورة.

ب- والاهتداء بالقرآن حيث جاء في الآية السابقة ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾

(١) مجمع البيان:١٦٨/٦، الدر المنثور:٣٥٤/٥.

(الكهف:٢٧).

ج- تحقير الدنيا التي من مساوئها مفارقة الصالحين، والتحذير منها والانخداع بزخارفها التي هي وهمٌ تزول لذّتُه وتبقى تبعته كقوله تعالى في الآية: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (الكهف:٤٥) فإن (حب الدنيا رأس الفتن وأصل المحن) كما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأن (رأس كل خطيئة حب الدنيا) [١] كما عن الإمام الصادق (عليه السلام).

د- ما في هذه الآية فيكون أحد وسائل الإنقاذ من الفتن والثبات على الاستقامة، مصاحبة الصالحين وملازمة مجالسهم خصوصاً إذا كانوا من العلماء الذين يتحفونك بالنصيحة والإرشاد والهداية وتعليم ما ينفعك في دنياك وآخرتك، روى ابن عباس قال (قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الجلساء خير قال (صلى الله عليه وآله وسلم): من يذكّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله) [٢].

والمتأمل في سورة الكهف يجد أنها عرضت أشكالاً من الفتن من خلال قصص أصحابها، فورود الآية ضمن السورة فيه إرشاد لبعض وسائل مواجهتها، وقد ذكرت السورة عدة فتن منها:

---

(١) الحديثان في ميزان الحكمة:٨٩٦/٢.

(٢) امالي الطوسي:١٥٧/١.

١- الفتنة التي عاشها أصحاب الكهف وهي فتنة الدين المزيف الذي يصنعه بعض المتاجرين المتسترين بالدين ويضعون من عندهم طقوس وتعاليم وآلهة تعبد من دون الله تعالى ويستعينون بالدجل والخداع ليصنعوا لهم زعامة على الناس وليتسلّطوا على أموالهم وأعراضهم ويتحالفون مع السلطات الظالمة لترسيخ زعامتهم وفرض نفوذهم واستئصال خصومهم، لكن أصحاب الكهف لم يُغرِهم ترف القصور ولم يرعبهم بطش الطواغيت فوقفوا ونطقوا بالحقيقة الكبرى أمام الناس ليزيلوا الغشاوة عن بصائرهم ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى۝ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (الكهف: ١٣- ١٤)، وهذا القول الشطط هو علامة من كان أمره فرطاً، وفوجئ أصحاب الكهف ببقاء نفس الثقافة لدى الناس رغم مرور مدة طويلة تبلغ ثلاثمائة عام و تحولهم إلى الإيمان ظاهراً.

حيث اختلفوا فمنهم يريد أن يبني عليهم بنياناً كالمعبد لتنشيط السياحة والحركة التجارية ونحوها من أمور الدنيا، وغفلوا عن الاتعاظ بهذه المعجزة الإلهية ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (الكهف: ٢١).

٢- فتنة المال من خلال قصة الرجلين الذين رزقهما الله تعالى ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ (الكهف: ٣٢) فاغترّ أحدهما وكفر بنعمة الله تعالى وقال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

(الكهف: ﴿٣٤﴾)، بل أعتقد إن إقبال الدنيا عليه والحياة المترفة التي يعيشها دليل على أحقيته وجدارته، وهذا الانحراف في الرؤية يحصل داخل الوسط الديني ويرون إن العامل الرسالي الذي يعاني من الضيق والبلاء ويعيش وسط الفقراء والمحرومين ليس بصاحب حق؟ فيستضعفونهم ويحاصرونهم ويقللون من شأنهم وينفرون الناس منهم، و ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (الكهف: ﴿٣٥﴾-﴿٣٦﴾) ولم يستمع إلى وعظ صاحبه فجاءت الضربة القاضية ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الكهف: ﴿٤٢﴾).

٣- فتنة العلم من خلال قصة موسى (عليه السلام) والعبد الصالح ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ﴿٦٥﴾) فتواضع موسى (عليه السلام) وهو الرسول الكريم من أولي العزم لعلم العبد الصالح ولم يغتر بما عنده، وسعى للاستفادة منه.

٤- فتنة السلطة من خلال قصة ذي القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (الكهف: ﴿٨٤﴾) فلم يشغله هذا الملك العظيم عن ذكر ربّه ولم ينسبه إلى نفسه، بل يردّد إنه من فضل ربّه والاعتراف بفضله ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ (الكهف: ﴿٩٨﴾) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ (الكهف: ﴿٩٥﴾) واستثمر هذه القوة في تحرير المستضعفين الذين لجأوا إليه لتخليصهم من

ظلم وطغيان يأجوج ومأجوج فكان مثالاً لهؤلاء المحررين وسيدهم أمير المؤمنين لذا ورد في التفسير إنه (عليه السلام) (ذو قرني هذه الأمة) (١) وكان ميزان ذي القرنين في التعامل: التقوى والعمل الصالح ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف: ٨٨).

فتكفّلت الآية الكريمة ببيان هذا العلاج مع جملة من العلاجات للخروج من الأزمات ومواجهة الفتن بنجاح.

ولذا حثّت الأحاديث الشريفة على مجالسة العلماء والصالحين والاستفادة منهم روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (ما من مؤمن يقعد ساعة عند العالم إلا ناداه ربّه عز وجل: جلست إلى حبيبي، وعزتي وجلالي لأسكننّك الجنة معه ولا أبالي)(٢) وقال الإمام الباقر (عليه السلام):(اجتمعوا وتذاكروا تحفّ بكم الملائكة، رحم الله من أحيا أمرنا) (٣) وقال الإمام الصادق (عليه السلام):(يا خيثمة: اقرئ موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم عز وجل، وأن يتلاقوا في بيوتهم فإن لقياهم حياة أمرنا، ثم رفع يده (عليه السلام) فقال: رحم الله أمرؤاً أحيا أمرنا) (٤) حتى روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله:(النظر إلى وجه العالم عباده) (٥) وفسّره الإمام الصادق (عليه السلام) بقوله:(هو العالم الذي إذا نظرت إليه ذكرّك الآخرة، ومن كان

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ١٦٢/٦.

(٢) بحار الانوار١٩٨/١ عن أمالي الصدوق.

(٣) وسائل الشيعة:٢٣/١٢.

(٤) بحار الأنوار:٢٠٠/١ عن أمالي الطوسي.

(٥) بحار الأنوار:١٩٥/١ ح١٤.

خلاف ذلك فالنظر إليه فتنة) [(١)].

وورد في الأحاديث أن مجالسة العلماء والصالحين من أسباب التوفيق، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (لا يستغني المؤمن عن خصلة وبه الحاجة إلى ثلاث خصال: توفيق من الله عز وجل، وواعظ من نفسه، وقبول من ينصحه) [(٢)] وأن الابتعاد عنهم سبب للخذلان وعدم التوفيق ورد في دعاء أبي حمزة للإمام السجاد (عليه السلام): (أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني، أو لعلك رأيتني آلِفُ مجالس البطالين فبيني وبينهم خلّيتني).

كما إن هؤلاء الصالحين الذين أمرنا بمجالستهم ليسوا موجودين في المساجد وأماكن الشعائر الدينية فقط، بل يجب أن نعمل لنوجد هذه المجالس المباركة التي تتناول قضايا الدين والمجتمع والوطن والإنسان في الجامعات وفي الأسواق أو البيوت بل حتى في المقاهي والحدائق العامة وأرصفة الطرقات، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله:(تذاكروا وتلاقوا وتحدّثوا، فإن الحديث جلاء، إنّ القلوب لترين (أي تصدأ) كما يرين السيف وجلاؤها الحديث) [(٣)] ولم يحدد (صلى الله عليه وآله وسلم) مكاناً محدداً لهذا اللقاء وقال الإمام الصادق (عليه السلام):(رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكر أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما أجتمع اثنان على ذكرنا إلا باهى الله تعالى بهما الملائكة فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعاتكم ومذاكرتكم أحياءُنا وخير الناس مِن بعدنا مَن ذاكر بأمرنا

(١) ميزان الحكمة:١٥٥/٦ عن تنبيه الخواطر:٨٤/١.

(٢) وسائل الشيعة:٢٥/١٢.

(٣) بحار الانوار:٢٠٣/١.

ودعا إلى ذكرنا)[1] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال : ٢٤).

(١) بحار الانوار:١/٢٠٠.

القبس/٢٠١

طه:٧٢

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

موضوع القبس: مبدأ استراتيجي في الحياة

إنها ليست مجرد كلمات قالها السحرة في وجه فرعون الطاغية بل هو موقف لهم في قمة الشموخ والاباء والثبات وصلابة الإيمان غير مبالين بتهديداته المرعبة ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾(طه:٧١) ولا بوعوده المغرية التي منّاهم بها إن هم انتصروا على موسى وأبطلوا حجته (عليه السلام) ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الأعراف:١١٣ - ١١٤) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الشعراء:٤١ - ٤٢) فأجابوا وعده ووعيده بموقف ملؤه الإيمان ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ (طه:٧٢) وأنَّ من المحال أن نقدّم طاعتك وعبوديتك على طاعة الله تعالى وعبوديته، فقد رسخت المعرفة في قلوبهم عندما رأوا عصا موسى (عليه السلام) تتحول إلى ثعبان يلقف سحرهم ويبطل إفكهم وخداعهم الذي جعله فرعون وسيلة لتطويع الشعب واستعباده، فقالوا لفرعون بكل ثبات: لا يمكن ان نتخلى عن هذه الآيات

الافاقية من خلال الحجج البيّنة القوية التي أقامها موسى (عليه السلام)، والأنفسية بانبلاج نور الفطرة الذي اضاء قلوبنا ونفوسنا وأوقده موسى (عليه السلام) بكلماته النورانية ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (طه:٦١) وايقظنا من غفلتنا بهيبته وعزة الله التي بها أولياؤه يعتزون والتأييد الذي تعهد به الله تعالى لموسى وأخيه (عليهما السلام) ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه:٤٦) فأي تأييد ونصرة أعظم من ان يكون خالق السموات والأرض القوي العزيز حاضراً معهما يسمع كل ما يقال لهما ويرى كل ما يجري عليهما؟ فما قيمة مخلوق بائس ضعيف كفرعون بإزاء هذا؟ مما جعل فرعون الطاغية وشياطينه يتنازلون عن جبروتهم ويقبلون تحدي موسى (عليه السلام) ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (طه:٥٨) ويجمعون كل امكانياتهم لمواجهته ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (طه:٦٤) وهو الذي وصف موسى (عليه السلام) في لقائه السابق ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢).

واستمر السحرة في خطابهم لفرعون بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان ولذة الانتصار على النفس والشيطان واتصلت أرواحهم بالملأ الأعلى فطهرت من أغلال الجُبُن والطمع والعبودية والذل وتزينت بالتوحيد وبمكارم الشجاعة والمعرفة والتضحية وحب الله تعالى، وحينئذٍ قالوا: فكيف تريد منّا أن نترك كل ذلك ونستمر على طاعتك وعبادتك ومن أجل ماذا؟ متع زائفة زائلة.

وأقسموا على ذلك بالذي فطرهم ﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا﴾ ويمكن أن تكون الواو عاطفة وليست للقسم، والعطف يمكن أن يكون على مدخول على فيصير المعنى (لن نؤثرك على الذي فطرنا) وهو الله تعالى، أو يكون العطف على البيّنات، أي بعد ان جاءتنا البينات من موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مضافاً إلى نداء الفطرة الذي استيقظ فينا وهو يدعونا إلى التوحيد والإيمان بالخالق القادر العظيم، ولعلهم أرادوا بضمير الجمع في ﴿فَطَرَنَا﴾ ما يشمل فرعون نفسه بأنك أنت أيضاً لو رجعت إلى فطرتك لوجدتها تدعو بوضوح إلى التوحيد، وعليك الاستجابة لهذا النداء، واستخفوا بتهديداته ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء:٥٠).

ثم اطلقوا هذه الكلمة البليغة الحكيمة العميقة والحجة البالغة المملوءة بالمعرفة الشامخة ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي فاحكم بما شئت من وعيد وتهديد فان غاية جبروتك وطغيانك هي هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ثم ننتقل جميعاً إلى الله تبارك وتعالى وهو الذي يفصل بين الخصوم ويكافئ المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إسائته وهي حياة خالدة ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤) وستكتشف حينئذٍ يا فرعون بؤس الصفقة حيث ضيّعتَ الآخرة الباقية من أجل لذة فانية ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة:٣٨) وأردفوا كلمتهم بقولهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:٧٣) مما تدعونا إليه من زخارف الدنيا التي كان فرعون قد أستعبدهم بها.

هذه هي الحقيقة التي ثبّتت قلوبهم في ذلك الموقف العصيب المزلزل حيث يقف فرعون بجبروته وقدراته الهائلة وجيوشه الضخمة وهو يزمجر ويلقي التهديدات ثأراً لكرامته الجريحة، وامام الحشد العظيم من الناس المغلوبين على أمرهم حيث سبق الحدث تحشيد اعلامي ضخم وجمعوا السحرة والناس من كل أنحاء البلاد، وحُدِّد للتحدي يوم اجتماع عام للناس وفي ساعة الذروة عند الضحى ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (طه:٥٩).

وفي ذلك الموقف العصيب المهول يخرون لله تعالى ساجدين تلقائياً ﴿فَأُلْقِيَ﴾ وقد ملأهم الإيمان والتسليم للنداء الإلهي وأصبح هو الذي يحرّكهم وكأنه من دون إرادتهم ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه:٧٠) وكأنهم أرادوا بالسجود أن يظهروا انقيادهم التام لله تعالى وسط ذلك الجمع الهائل ويتوجهون إلى الله تعالى بكل خشوع ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:٧٣) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء:٥١)● ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف:١٢٦).

الانسان يمكن أن يرتقي الى الكمال بلحظة:

إن هذه الانعطافة الكبيرة في حال السحرة تشبه المعجزة بل هي معجزة حقاً، فكيف ارتقوا في لحظة من سحرة مشعوذين ماكرين يخدعون الناس عبيد لفرعون الطاغية ويتخذونه إلهاً ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (الشعراء:٤٤) طمعاً في فتات موائده، إلى هذه القمة السامقة في الإيمان الراسخ المتجذر في قلوبهم بحيث يستقبلون بهدوء وسرور الحكم القاسي بالقتل والصلب والتقطيع ويتخلون عن الامتيازات العظيمة التي وعدهم بها.

وهذه الحادثة العجيبة التي كرّر القرآن الكريم ذكرها في عدة مواضع تزرع أملاً واسعاً في قلوب طالبي الكمال والعاصين على حدِ سواء بإمكان الارتقاء وتحصيل المقامات الرفيعة في لحظة، وعدم اليأس من فضل الله تبارك وتعالى، كما أرتقى الحر الرياحي في لحظة من انحطاط التبعية المهينة لابن زياد إلى الخلود في الشهادة مع الإمام الحسين (عليه السلام).

ونستلهم من هذه الآية الكريمة أيضاً مبدءاً أساسياً أو استراتيجياً كما يقال بأن نجعل كلمتهم النورانية هذه التي حكاها القرآن بنظمه البديع نبراساً في حياتنا لتثبيت قلوبنا على الحق وتهذيب نفوسنا امام وسائل الاغراء والتهديد التي يتعرض له المؤمنون للتنازل عن مبادئهم وثوابتهم الدينية والأخلاقية، بأن غاية تأثير هذه الأمور في نفعها وضرها هي هذه الدنيا الفانية فالصبر عليها هين بتأييد الله تعالى، من وصية الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام) لهشام بن الحكم (يا

هشام اصبر على طاعة الله، واصبر عن معاصي الله، فإنما الدنيا ساعة)[١]، ومن كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) (الشجاعة صبر ساعة)[٢] وشجاعة الموقف قد تكون تجاه النفس الأمّارة بالسوء أو الشيطان أو سائر الأعداء من شياطين الانس والجن.

وهذا المبدأ القرآني كان واضحاً في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تجاه حلال الدنيا الزائد عن الحاجة فضلاً عن حرامها ونحو ذلك، روى أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (أخبرني حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن جبرئيل (عليه السلام) نزل إليه ومعه مفاتيح كنوز الأرض وقال: يا جبرئيل وما يكون بعد ذلك؟ قال: الموت، فقال: اذاً لا حاجة لي في الدنيا، دعني أجوع يوماً وأشبع يوماً، فاليوم الذي أجوع فيه أتضرع الى ربي وأسأله، واليوم الذي أشبع فيه أشكر ربي وأحمده، فقال له جبرئيل: وفقت لكل خير يا محمد)[٣].

هذا الموقف منه (صلى الله عليه وآله وسلم) لمعرفته بحقارة الدنيا وهوانها وعدم استحقاقها للالتفات اليها مهما عظم المعروض منها ولو كان من حلال ولو كان من دون ان ينقص من قدره عند الله تعالى شيء.

وكذلك كان هذا المبدأ القرآني حاضراً في حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) وحفلت به كلماته (عليه السلام) فمن خطبة له (عليه السلام) قال بعد أن ذكر حادثة أخيه عقيل عندما طلب منه زيادة على عطائه (وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٥ /ص ٣١١

(٢) ميزان الحكمة: الحديث ٩١٥٧

(٣) بحار الانوار:٢٧٦/٤٢.

طَـارِقٌ(١) طَرَقَنَـا بِمَلْفُوفَـةٍ(٢) فِـي وِعَائِهَـا وَمَعْجُونَـةٍ شَـنِئْتُهَا(٣) كَأَنَّمَـا عُجِنَـتْ بِرِيـقِ حَيَّـةٍ أَوْ قَيْئِهَـا(٤) فَقُلْـتُ أَصِلَةٌ(٥) أَمْ زَكَـاةٌ أَمْ صَـدَقَةٌ فَـذَلِكَ مُحَـرَّمٌ عَلَيْنَـا أَهْـلَ الْبَيْـتِ فَقَـالَ لَـا ذَا وَلَـا ذَاكَ وَلَكِنَّهَـا هَدِيَّـةٌ فَقُلْـتُ هَبِلَتْـكَ(٦) الْهَبُـولُ أَعَـنْ دِيـنِ اللَّـهِ أَتَيْتَنِـي لِتَخْـدَعَنِي أَمُخْتَـبِطٌ(٧) أَنْـتَ أَمْ ذُو جِنَّـةٍ(٨) أَمْ تَهْجُـرُ وَاللَّـهِ لَـوْ أُعْطِيـتُ الْأَقَـالِيمَ السَّـبْعَةَ بِمَـا تَحْـتَ أَفْلَاكِهَـا عَلَـى أَنْ أَعْصِـيَ اللَّـهَ فِـي نَمْلَـةٍ أَسْلُبُهَا جُلْـبَ شَـعِيرَةٍ مَـا فَعَلْتُـهُ وَإِنَّ دُنْيَـاكُمْ عِنْـدِي لَـأَهْوَنُ مِـنْ وَرَقَـةٍ فِـي فَـمِ جَـرَادَةٍ تَقْضَـمُهَا مَـا لِعَلِـيٍّ وَلِنَعِـيمٍ يَفْنَـى وَلَـذَّةٍ لَـا تَبْقَـى نَعُـوذُ بِاللَّـهِ مِـنْ سُـبَاتِ الْعَقْلِ وَقُبْحِ الزَّلَلِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ)(٩).

ومن كتاب لهُ (عليه السلام) إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف يشير فيه إلى فدك وهي الأرض الزراعية الشاسعة التي وهبها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى ابنته الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) بأمر الله تعالى ثم غصبها أصحاب السقيفة قال فيه (بَلَى! كَانَتْ في أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ

---

(١) قيل الطارق من يأتي ليلاً

(٢) نوع من الحلواء

(٣) أي أبغضتها

(٤) الريق: اللعاب، والقيء: الرجيع

(٥) الصلة: العطية كالرشوة

(٦) أي ثكلتك

(٧) وهو المصروع وفاقد التوازن

(٨) أي المجنون

(٩) نهج البلاغة: الخطبة / ٢٢٤

عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَك وَغَيْرِ فَدَك، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَد جَدَثٌ، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا) (١).

فليكن قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ مبدأً ثابتاً واستراتيجياً في حياتنا عندما نتعرض لمغريات الدنيا أو تمارس علينا أنواع من الضغوط، فإن هذا المبدأ من القواعد الاساسية التي تستندون اليها في بناء مستقبلكم المعنوي وحياة الاستقامة التي يريدها الله تبارك وتعالى.

ولنتأسَّ برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وليكن شعارنا (ثم ماذا؟ اليس هو الموت وفناء الدنيا وثرواتها) اذن لا قيمة لها، وكذا لنتخذ من قول أمير المؤمنين (عليه السلام) (ما لعلي ولنعيم يفنى) وقوله (عليه السلام) (وما أصنع بفدك وغير فدك) بوصلة لحياتنا ومنظاراً نرى من خلاله الدنيا ولا أقل من العمل بهذا الشعار عندما تعرض لنا معصية والعياذ بالله لان نتيجتها النار.

فلا تغرّنا نحن الحوزة العلمية عناوين برّاقة أو ألقاب علمية أو مواقع مرموقة أو جاه وامتيازات فنخالف أوامر الله تعالى ونرتكب نواهيه في تنافس غير شريف، وهكذا كل إنسان في موقعه، فعندما تميل النفس الى شهوة ونزوة بغير ما أحلَّ الله تعالى كالذي يحصل في أروقة الجامعات او الدوائر الرسمية فليخاطب الشخص نفسه وليقل لها: ثم ماذا؟ وكيف ستكون النتيجة لو انساق وراء الشهوة والنزوة وإذا دعاه غضبه أو أنانيته أو حسده أو حقده لظلم أحد

---

(١) نهج البلاغة، باب المختار من كتبه (عليه السلام)، رقم ٤٥

فليكبح جماحه بسؤال ثم ماذا؟ وإذا خدعه موقعه ومنصبه ووظيفته ليمّد يده على المال الحرام أو التجاوز على الحق العام أو الخاص فليتذكر ماذا بعد ذلك: انه الموت.

وبتعبير آخر: أنه عليك ان تحسب النتائج قبل الاقدام على الفعل، فان كانت العاقبة سيئة أو أن الحاصل لا يستحق تبعة هذا الفعل فلا تقدم عليه، لان النتيجة المؤلمة إذا حصلت فان الندامة والتأسف لا ينفعان في إزالتها فتذهب لذة الفعل وما كان يرجو منه وتبقى تبعته وشقاؤه والله المستعان ونسأله تعالى العفة والسداد والورع والاجتهاد في طاعته إنه نعم المولى ونعم النصير.

القبس/٢٠٢

النور:٢١

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾

موضوع القبس: خطط الشيطان الناعمة للوصول الى غرضه

قال الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (النور:٢١)

الخطوة: مصدر مرة من الخطو، وهي مسافة ما بين القدمين عند السير، وجمعها خُطُوات وتقرأ بضمتين مثل غُرفة وغُرُفات، وقد حكي عن الفّراء قوله (العرب تجمع فُعلة من الأسماء على فُعُلات نحو حُجرة وحُجُرات، فرقاً بين الاسم والنعت، النعت يُخففَّ مثل حُلوة وحُلوات)[١] (والمشي يقتضي تجاوز الموضع، فالتعدي والتجاوز من لازم المعنى وليس هو مدلول اللفظ كما في معجم مقاييس اللغة، قال (والخطأ من هذا لأنه مجاوزة حد الصواب)[٢].

واتباع الخطوات تعني اقتفاء الأثر والملازمة في السير، وكذا اتباع خطوات الشيطان يعني السير على منهجه ومتابعته والاستجابة لما يأمر به، وقد ذكرت الآية سبب النهي عن اتباع الشيطان ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ ويسوق أتباعه إلى الضلال والشقاء وتعدي

---

(١) التحقيق للمصطفوي: ٣/٩٩

(٢) معجم مقاييس اللغة: ج٢ / ص١٩٨ مادة (خَطُوَ)

حدود الله تعالى والابتعاد عن طاعة الله تعالى وتكون النتيجة ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص:٨٥).

فمنهج الشيطان هو الدفع باتجاه الوقوع في المنكر وهو كل أمر سيء يستقبحه العقل والشرع فعلاً أو قولاً، والفحشاء وهي المنكرات التي تتجاوز الحدود المقبولة على صعيد الفرد أو المجتمع خصوصاً ما يتعلق بأعراض الناس وأموالهم وأمنهم وغذائهم.

والأمر بمعنى الدعوة الى الفحشاء والمنكر بتزيينهما والتحريض عليهما وإيجاد الدوافع لهما كما تقول: نفسي تأمرني بكذا أي تدعوني إليه، إذ من المعلوم أن الشيطان ليس له سلطة قاهرة على الإنسان ولا يستطيع إكراهه على شيء، وكل فعله الوسوسة وتحديث النفس الأمارة بالسوء وتزيين فعل الشيء والإغراء بالفحشاء والمنكر لا أزيد من ذلك، وقد حكى الله تعالى قوله لمن ضلوا بسببه ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم:٢٢) والإنسان مخير في اتباعه أو مقاومته بتأييد الله تعالى ولطفه، وقد يُسلِّم الشقي قياده للشيطان فيُسيّره كيف يشاء ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل:١٠٠) ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ (المجادلة:١٩)، وهذا ما يقوم به أعوانه من شياطين الجن والإنس فإنهم يقعدون في طريق الناس الذين يسيرون نحو الله تعالى بحسب فطرتهم فيحرفون مسيرتهم بخطوات ضالة مبعدة عن الغرض الأسمى.

والمراد بخطوات الشيطان ضلالاته التي تؤدي الى ابتعاد الإنسان عن الدين القويم والصراط المستقيم فمنهجه ومشروعه الأمر بالفحشاء والمنكر، فهو سبب كل فساد وانحراف، وهو المهيّج لكل جريمة وفعل منكر سواء كان على مستوى العقيدة أو الفكر أو السلوك. وأضاف تعالى في آية أخرى دعوة الشيطان إلى أمر آخر غير الفحشاء والمنكر وهو ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٦٩) أي يدعوهم إلى الحكم بغير ما أنزل الله ونسبة أشياء إلى الشريعة وهي ليست منها.

وقد وقع هذا التحذير والنهي عن اتباع خطوات الشيطان في سياق الآيات الكريمة التي سجّلت ما يعرف بحديث الإفك وهي الاشاعة الباطلة التي مسّت عرض وشرف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سيد الخلق على الاطلاق والقائد الأعلى للدولة، وهي خطوة دفع الشيطان باتجاهها لتكون بداية لخطوات على طريق نشر الفحشاء والمنكر بعد أن كسر هذا الحاجز العظيم، وكادت هذه الإشاعة أن تفتك بالمجتمع المسلم وتؤدي إلى إنهياره لولا رحمة الله تعالى ولطفه، لذا كانت بقية الآية ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:٢١).

وقد صور الله تعالى الحالة بأبشع صورة تهزّ الوجدان بعنف وتدفع الإنسان إلى الابتعاد عنها حيث يسير الشيطان الذي هو عدو مبين ومجمع القاذورات نحو هدفه وهو الخراب والتدمير ونشر الشقاء والهلاك ويسير خلفه جماعة متبعين خطواته مبتعدين عن منهج السعادة والكمال فأي حال أشقى من

هذا، وحديث الإفك وإشاعته كان نموذجاً له.

وقد تكرر التحذير من اتباع خطوات الشيطان في عدة مواضع أخرى (سورة البقرة: الآيات ﴿١٦٨﴾- ﴿٢٠٨﴾ / سورة الأنعام: الآية ﴿١٤٢﴾) ووصفه الله تعالى فيها بما يوجب هذا الحذر قال تعالى ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:٦) والعقل والفطرة يدعوان الى الحذر من العدو والفرار منه.

والذي يتأمل في هذه المواضع المتعددة من التحذير يجد فيها بياناً لبعض منافذ الشيطان وتطبيقات لخطواته، فقد جاء النهي عن اتباع الشيطان تارة في مورد التشريعات المحرمة بغير ما أمر الله تعالى به، كما في بعض قضايا الطعام حيث جعل الله تعالى كل ما في الأرض حلالاً طيباً الا ما استثناه، لذا كان الأصل في الأشياء الحلّية، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٦٨-١٦٩) ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأنعام:١٤٢) لكن أهل الكتاب والمشركين حرموا بعض ما أحله الله تعالى وبذلك فقد جعلوا أنفسهم آلهة يشرعون من دون الله تعالى فاستنكر الله تعالى ذلك منهم وقال ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ

تَفْـتَرُونَ﴾ (يـونس:٥٩) ونفـى حرمـة هـذه الأشـياء، قـال تعـالى ﴿مَـا جَعَـلَ اللَّهُ مِـنْ بَحِـيرَةٍ وَلَا سَـائِبَةٍ وَلَا وَصِـيلَةٍ وَلَا حَـامٍ وَلَكِـنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا يَفْـتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ وَأَكْـثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُـونَ﴾ (المائـدة:١٠٣) كمـا أحلوا بعـض مـا حـرّم الله تعـالى كالربـا ﴿الَّذِيـنَ يَـأْكُلُونَ الرِّبَـا لَا يَقُومُـونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّـيْطَانُ مِـنَ الْمَـسِّ ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُوا إِنَّمَـا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة:٢٧٥).

وورد النهي عن اتباع خطوات الشيطان تـارة أخـرى فـي مـورد التنـازع والعنف وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُـوا فِي السِّـلْمِ كَافَّـةً وَلَا تَتَّبِعُـوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨). فالقطيعة التي تحصـل بين الأخوة والتباغض والمهاترات هي من فعل الشـيطان ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّـيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ (المائدة:٩١).

وذكرت الروايات مصاديق لخطوات الشيطان كصحيحة منصور بن حازم في التهذيب قال (قال لي أبو عبدالله (عليه السلام): آما سمعت بطارق، ان طارقـاً كـان نخاساً بالمدينة فأتى أبا جعفر (عليه السلام) فقال: يا أبا جعفر إنـي هالـك إنـي حلفـت بالطلاق والعتاق والنذر، فقال له: يا طارق ان هذه من خطوات الشيطان)[1].

وفي رواية الكافي بسند معتبر عن الامام الصـادق (عليه السلام) قـال (إذا حلـف الرجل على شيء والذي حلف عليه اتيانه خير من تركه فليـأت الـذي هـو خيـر

(١) التهذيب: ٨/٢٨٧

ولا كفارة عليه، وإنما ذلك من خطوات الشيطان)[١] وروى العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم مثالاً على ذلك عن الامام الباقر أو الصادق (عليهما السلام) (أنه سُئل عن امرأة جعلت مالها هدياً وكل مملوك لها حراً إن كلمت أختها أبداً، قال: تكلمها وليس هذا بشيء إنما هذا وأشباهه من خطوات الشيطان)[٢]

ومن خطوات الشيطان الوسوسة في العبادات وخطور الأوهام والشكوك التي لا واقع لها، فقد روى في الكافي بسنده عن عبدالله بن سنان قال (ذكرت لأبي عبد الله (عليه السلام) رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة وقلت: هو رجل عاقل، فقال: أبو عبد الله وأي عقل له وهو يطيع الشيطان؟ فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو؟ فإنه يقول لك من عمل الشيطان)[٣].

وفي الحقيقة فان لاتباع الشيطان مراتب عديدة أوضحها ترك الواجب وفعل المحرم على مستوى العقيدة أو السلوك، ثم اقتحام الشبهات من دون تحقّق، ثم ترك المستحبات وفعل المكروهات، ولا ينتهي عند الغفلة عن الله تعالى والتعلق بما سواه من الأسباب، فان كل هذه مصاديق بمراتب متعددة لخطوات الشيطان الذي يسير نحو هدف هو الإبعاد عن طاعة الله تعالى ورضوانه ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (النور:٢١) (ولا يخفى أن أوّل قدم منه هو رؤية النفس والتوجه إليها وتكبيرها

(١) الكافي: ٧/ ٤٤٣ ح١

(٢) تفسير العياشي: ١/٧٣ ح ١٤٦

(٣) الكافي: ج١، كتاب العقل، ح١١

وتجليلها، وهذا يخالف العبودية ويجرُّ الإنسان إلى أي وادٍ مظلم مضلٍّ مهلك)[١].

ومن الخطوات المؤثرة والحاسمة في اتباع الشيطان وعدمه هي الولاية فقد وردت روايات عديدة في تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨) أنهم أمروا بالدخول في ولاية أهل البيت (عليهم السلام)، وان اتباع خطوات الشيطان بالدخول في ولاية غير أهل البيت (عليهم السلام)[٢].

ولأن الإنسان في هذه الدنيا لابد له من إتباعٍ ما، وهي الحقيقة التي نبّه إليها أمير المؤمنين (عليه السلام) (الا وإن لكل مأموم إماماً يقتدى به ويستضيء بنور علمه)[٣] فاذا لم يتبع المنهج الرباني الذي يدعو إليه الله تعالى والأنبياء والرسل والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين والعلماء الأبرار العاملون، فلا شك في أنه واقع في اتباع الشيطان وجنوده والنفس الأمارة بالسوء لأنه بين هذين الخيارين والدافعين، وهنا يسجل القرآن الكريم استغرابه ممن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير قال تعالى ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ١٦٢).

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن للمصطفوي: ٣/١٠٠

(٢) راجع الروايات في البرهان: ٢/٩٢

(٣) نهج البلاغة: ج٣ / ص ٧٠ من رسالته (عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف الأنصاري واليه على البصرة.

ويمكن النظر الى ورود خطوات الشيطان في الآيات الكريمة على نحو الجمع باتجاه متوازي أو متوالي ـ إذا صح التعبير ـ أما التوازي فبلحاظ ان تعدد الخطوات تعني تنوع ضلالاته وشبهاته وفتنه المردية والسبل الموصلة اليها، فينقلهم من معصية إلى معصية حتى يوقعهم فيها جميعاً، لذا كانت سبل الضلال متعددة أما الصراط المستقيم فواحد، قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام:١٥٣).

وأما التوالي فنقصد به اتخاذ الشيطان عدة خطوات تدريجية مترتبة للوصول إلى غرضه وعدم دعوته إلى المنكر والفحشاء مباشرة، لأن الإنسان قد يرفض مثل هذه الدعوة المباشرة للخروج عن الدين أو الفطرة السليمة ويأباها الضمير الحي إذا جاءت بشكل دفعي، وهذا مما يوجب زيادة الحذر منه لأن الخطوة الأولى منه قد تكون مقبولة ظاهراً لدى الشخص وكذا الثانية وهو لا يعلم النتيجة التي يريد أن يوصله إليها، وهو عين ما يفعله شياطين الإنس للتغرير بضحاياهم بحرب ناعمة لا يلتفت الى بداياتها الا الفطن إلى أن تحصل الكارثة.

مثلاً يريد أن يغري شاباً وفتاة في الجامعة بعلاقة غير مشروعة فيقنعهما أولاً بتبادل المحاضرات ومساعدة أحدهما الآخر في حل المسائل العلمية وأنها علاقة بريئة بين زملاء في الدراسة، ينشأ منها حب ومودة ثم يحصل إعجاب بينهما وميل، ثم مواعيد للقاء بينهما بدون رابطة شرعية، وقد يسعيان للزواج فيلاقيان إعتراضاً من الأهل فيقرّران الهروب معاً وقد يعثر الأهل عليهما فيقتلون

الفتاة غسلاً للعار بحسب العرف ويقتلون الشاب انتقاماً وتستمر الثارات، وكان بالإمكان تجنب هذه الكارثة من أول خطوة وغلق باب أي علاقة مع الجنس الآخر حتى لو كان لأمر مباح ظاهراً لأنه باب للشرور والآثام.

وكذا النزاعات العشائرية العبثية التي تخلّف قتلى ومصابين وأرامل وأيتام وعدم أمن واستقرار قد تبدأ بكلمات مزاح بين إثنين يتطور إلى بذاءه وكلمات جارحة ثم عراك شخصي ثم وعيد وتهديد واستنصار بالعشيرة وتستمر الحماقات الناتجة من اتباع خطوات الشيطان حتى تصل الى القتال وفي ذلك كلمة لأمير المؤمنين (عليه السلام) عندما نهى عن بعض المكروهات خشية انتهائها إلى ارتكاب المحرمات فقد روى الشيخ الصدوق في العلل قال (جاء رجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: أقبّل وأنا صائم؟ فقال (عليه السلام): أعفَّ صومك، فإن بدء القتال اللطام)[1].

إن كل ما تعانيه البشرية من كوارث وأزمات في مختلف المجالات هو نتيجة ابتعادهم عن المنهج الإلهي واتباع خطوات الشيطان فالله تعالى يدعوهم إلى الانتفاع بكل ما جعل لهم في الأرض ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾(البقرة:١٦٨) وقال تعالى ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ (الأنعام:١٤٢) ثم عقبهما بقوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فأنه يدعوكم إلى الكسل والاتكالية المنتجة للتخلف والانحطاط أو يوحي إلى اتباعه بسنِّ قوانين وضعية تعيق حركة الانتفاع هذه كإقطاع الأراضي الواسعة

(١) وسائل الشيعة: ٩٩/١٠ أبواب ما يمسك عنه الصائم، باب ٣٣ ح ٩ وكذا ص ٩٨،١٠٠

لذوي النفوذ وحرمان الأيدي العاملة منها، أو تركز الثروات بيد فئة قليلة تستخدم أساليب الظلم والقهر لإدامة هيمنتها وتسلطها واستئثارها وتقرر الرواتب العالية والهبات الجزيلة للمتسلطين، فارفضوا هذه القوانين الشيطانية التي تحطُّ من كرامة الإنسان وتستعبده وتحرمه من حقوقه.

وهذا واحد من الفروق بين المنهج الرباني الذي يؤسس للعدالة الاجتماعية وكرامة الإنسان وبين المنهج الشيطاني الذي يستعبد الإنسان ويذلّه ويحقّره ويقوده إلى الهلاك.

أعاذنا الله تعالى وإياكم من مكائد شياطين الجن والإنس ومن اتباع خطواتهم.

القبس/٢٠٣

القصص: ﴿٢٥﴾

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾

موضوع القبس: العفة والحياء يرفعان قيمة المرأة

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ﴿٢٢﴾-﴿٢٥﴾).

يقع هذا المقطع ضمن مجموعة من الآيات تتحدث عن فصل من فصول حياة النبي موسى كليم الله (صلوات الله وسلامه عليه) عندما هرب من مصر خائفاً يترقب بعد أن علم بأن فرعون وزبانيته يبحثون عنه لقتله بعد أن ذاع خبر قتله للقبطي المعتدي على مظلوم من بني إسرائيل، فتوجه إلى مدين التي تقع قرب رأس خليج العقبة فراراً من ظلم فرعون لأنها كانت خارج سلطة الفراعنة.

وبعد مسيرة شاقة لعدّة أيام بلا زاد ولا راحلة ولا دليل يرشده إلى الطريق مع الخوف والحذر من ملاحقة جنود فرعون الطاغية وصل (عليه السلام) إلى مدين

وجلس يستريح عند بئر ماء كان الناس يستخرجون منه لسقاية أغنامهم ولحمله إلى دورهم، ولفت انتباهه وجود امرأتين تنحتّا جانباً ويمنعان غنمهما من ورود الماء لكيلا يختلطا بالرجال الأجانب، فسألهما عن سبب عدم تقدمهما لاستقاء الماء وقال ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ولم يُزد على ذلك في التكلم مع الأجنبية، والخطب يقال للأمر العظيم، وهذا يعني أنه استعظم في نفسه وهو الغيور الرحيم الحنون خروج المرأتين للسقي وعدم مساعدة الناس لهما خلافاً لما تقتضيه المبادئ الإنسانية من تكريم المرأة فقالتا: ان طريقتنا عدم مزاحمة الرجال على الماء فننتظر حتى ينتهوا من استخراج الماء وسقي أغنامهم، وعلّلتا خروجهما بأنه ليس لنا من يقوم بهذا العمل وأبونا[1] شيخ كبير لا يستطيع السقي وليس خروجنا لعين الماء تنزهاً أو عبثاً أو لملئ أوقات الفراغ، ولو لم يكن أبوهما ـ وهو النبي شعيب (عليه السلام) ـ شيخاً كبيراً لما استنكف عن الخروج للعمل ورعي الأغنام ككثير من الأنبياء غيره.

فأعجب موسى (عليه السلام) بعفاف المرأتين وثارت غيرته عليهما وغضب من هؤلاء الناس اللذين لا يساعدون الضعيف ولا يراعون الحرمات، فتقدّم نحو البئر و قام وحده باستخراج الماء فسقى أغنام المرأتين وزودهما بالماء وذهبتا، وآوى (عليه السلام) إلى الظل ليستريح من حرارة الشمس مما يكشف أن هذه الرحلة الشاقة كانت في فصل حار، كما آوى إلى الظل المعنوي وهو فضل الله تعالى

---

(١) ورد في رواية صحيحة عن البزنطي عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنه شعيب النبي (الكافي: ٤١٤/٥ ح ١) وتؤيده الأجواء الصالحة في الأسرة فلا وجه لتردد بعض المفسرين في ذلك.

وكرمه، ولم ينتظر من المرأتين ولا من غيرهما جزاءاً ولا شكورا وإنما كان يعمل لوجه الله تعالى، ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤) وأجمل طلبه إلى الخير مطلقاً ولم يذكر حاجته مفصلاً، هل هو الطعام ليسدَّ [(١)] رمقه؟ أم العمل ليضمن رزقاً من حلال وحياة كريمة؟ أم زوجة صالحة ليسعد معها؟ أم مزيد من القوة والقدرة على مساعدة الناس ونصرة المستضعفين؟ أم بسطة في العلم والحكمة؟ لأنه يعلم ان ما يختاره الله تعالى له خير مما يختاره هو لنفسه لأن ربَّه أرحم به وألطف وأشفق عليه من نفسه.

وما أسرع ما استجاب الله تبارك وتعالى حيث عادت إحدى البنتين بسرعة ـ بقرينة استعمال الفاء وليس ثم ـ تدعوه للقاء أبيهما الشيخ ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ (القصص: ٢٥).

مما يعطينا درساً في المسارعة الى مجازّاة المعروف والإحسان وإن تبرع به صاحبه.

وتصف الآية بشكل رائع عفاف المرأة إذ تمشي على استحياء وذكر بصيغة نكرة ليُشعر بأنه أشدّ من الاستحياء المعروف لدى النساء بحسب ما تقتضيه طهارتها وعفتها وتجنبها لمحادثة الرجال الأجانب كما تجنبت

---

(١) كما في (نهج البلاغة: ٥٧/٢ رقم الخطبة: ١٦٠) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (والله ما سأله الا خبزاً يأكلها لأنه كان يأكل بقلة الأرض).

مزاحمتهم على الماء من قبل لكنها بنفس الوقت مشية المرأة القوية الواثقة بنفسها غير المضطربة ولا المتلجلجة التي تغري الطرف الآخر بضعفها، وأوصلت دعوة أبيها وليس دعوتها فالنساء لا توجّه الدعوة للرجال ولا العكس، وعبّرت عنها ببيان واضح مختصر ليس فيه فضول ولا خضوع وابتذال وتغنّج، وشعر موسى بصدقها وحسن استجابة الله تعالى له وهو غريب جائع منهك لا حول ولا قوة، وكان في نفسه اعتراض وتحفظ[1] ـ كما يقال ـ على قولها ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ لأنه من كرام الخلق الذي لا يريدون من فعلهم الخير والأعمال الصالحة جزاءاً ولا شكورا وإنما يبتغون رضوان الله تعالى، والآية تخبر عن نبله وشهامته اذ تقول ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ (القصص: ٢٤) أي لم ينتظر منهما أي جزاء، لكنه عرف أن الشيخ الكبير رجل صالح فعلاً أبى أن يمر هذا العمل بدون مكافأة جزاء وإن تطوع به صاحبه لتشجيع المجتمع على فعل الإحسان، واستطاعت البنت أن تعطي صورة عن إخلاق والدها ووجدت في ذلك مبرراً لدعوة موسى (عليه السلام) إلى دارهم.

ولأجل التمسك بهذا الشاب القوي الغيور العفيف والأسرة بحاجة إلى مثله للقيام بمسؤولياتها ولأنه لا يمكن أن يبقى ضيفاً إلى الأبد اقترحت البنت

---

(١) روى في (الدر المنثور: ١٢٥/٥) انه لما دخل موسى (عليه السلام) على شعيب وكان على العشاء فقال له: كُلّ، قال موسى (عليه السلام): أعوذ بالله، قال: ولِمَ ألست جائعاً؟ قال: بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وإنّا من أهل بيت لا نبتغي شيئاً من عمل الآخرة بملئ الأرض ذهبا! قال: لا والله ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى (عليه السلام) وأكل.

على أبيها أن يستأجره، معللة بحكمة استفادتها من أبيها الصالح ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦) وعرفت قوته من إخراجه دلو الماء الكبير ـ أو رفع الصخرة كما في بعض الروايات ـ لوحده بينما يجتمع عدد من الرجال لإخراجه[(١)]، وعرفت أمانته من تقدمه في المشي على البنت حينما اخذته إلى والدها ولم يماشيها ولا جعلها تتقدم عليه خشية أن تظهر الريح معالم جسمها[(٢)].

وهاتان الصفتان أهم عناصر الإدارة الناجحة، فالقوي هو المتمكن من عمله الضابط له المحيط بتفاصيله بمهنية وحرفيّة ويمتلك الخبرة الكافية فيه، والأمين هو المخلص الذي يكون همّه رضا الله تعالى وخدمة الناس وحفظ المصالح العامة، فعلى المتصدين لإدارة أمور الناس أن يتصفوا بهاتين الصفتين، وعلى الأمة أن تتحقق من وجودهما في من ينتخبونه للسلطة والإدارة في جميع مواقعها.

فعرض الأب الشيخ الكبير على موسى (عليه السلام) أن يزوّجه احدى ابنتيه والظاهر أنها المتحدثة وفي هذا درس للآباء أن لا يترددوا في عرض التزويج على الشاب المؤمن المهذب الذي يُكرّم المرأة، وجعل مهر زوجها أن يقوم

---

(١) في (نور الثقلين: ٤/١٢٠) عن تفسير القمي رواية عن الامام الباقر (عليه السلام) وفيها أن الدلو يرفعه عشرة رجال.

(٢) في المجمع عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ان موسى (عليه السلام) قال للمرأة: (امشي خلفي فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك) وروى في كتاب كمال الدين وتمام النعمة قريباً منه، وفي رواية أخرى عن الامام الرضا (عليه السلام) (بحار الأنوار: ١٣/٤٤).

بمسؤوليات الأسرة ثمان سنين، فإن أتمها عشراً فهو تبرع منه، ووافق موسى (عليه السلام) وهكذا وجد موسى (عليه السلام) بركة حركته البسيطة حينما ساعد المرأتين بما يصلح شاهداً للمثل الشعبي (الحركة بركة) ، وتحققت له مطالبه بتوكله المطلق على الله تعالى فهو من أول خروجه كان يقول ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وببركة العفاف والأمانة والغيرة على حرمات الله تعالى ونصرة المستضعفين ـ ولو بعمل بسيط كسقي دلو ماء ـ حيث وجد الأمان والطمأنينة ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٢٥) والرزق المضمون (ثماني حجج) أي سنوات، مما يعني ان الحج كان شعيرة عالمية معروفة يومئذٍ، والسعادة والزوجة الصالحة ﴿أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ (القصص: ٢٧) بعد أن كان غريباً مطارداً خائفاً جائعاً وحيداً.

ووجدت البنت ببركة عفافها وحيائها وحكمتها السعادة وراحة البال وزوجاً صالحاً وراعياً أميناً لأسرتها حيث عاشت في ظل رسول كريم من أولي العزم.

وكان في هذا التدبير الإلهي لموسى (عليه السلام) برعاية الأغنام تدريباً لموسى (عليه السلام) على سياسة الناس ورعايتهم والحرص عليهم ومداراتهم كما حصل للأنبياء الآخرين (صلوات الله عليهم أجمعين).

وهنا لطيفة قرآنية ينبغي الالتفات إليها وهي تأثير الاتصاف بالخصال الكريمة في سمو مكانة الإنسان وعلّو مقامه وارتفاع قيمته، فإن هذه البنت اكتسبت بالعفة والحياء قيمة كبرى بحيث يكون مهرها أن يخدم النبي العظيم

موسى (عليه السلام) كليم الله أسرتها ثمان سنوات وهو تشريف عظيم بلا شك، وهكذا تزداد منزلة الإنسان عند الله تعالى وعند الناس بمقدار ما يتحلى به من الصفات الكريمة والسلوك الحسن، وقد لخصّ أمير المؤمنين (عليه السلام) هذه الحقيقة بقوله (قيمة كل امرئ ما يحسنه)[١].

وقد أوضحنا في قبس سابق ان العفة لا تقتصر على السلوك تجاه الجنس الآخر بل تعم كل سلوك الإنسان كعفة اللسان واليد والرجل والعين والبطن بل والقلب أيضاً.

وهذه الحقيقة لم يلتفت إليها الأديب المشهور أبو العلاء المعري حين وجّه إشكالاً إلى الشريعة المقدسة بقوله:

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَت   ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا إلا السكوت له   ونستعيذ بمولانا من النار

أي ان الشارع المقدس فرض دية اليد اذا قطعت بجناية هي خمسمائة دينار ذهبي يدفعها الجاني، فلماذا جعل الشارع المقدس حكم القطع عليها اذا ارتكبت سرقة لربع دينار من الذهب وهل هذا الا تناقض؟ وكان الجواب:

عز الأمانة أغلاها، وأر خَصَها   ذل الخيانة، فأفهم حكمة الباري[١]

وتصرح الأحاديث الشريفة بعظمة صفتي العفة والحياء وأثرهما في سعادة الإنسان وصلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة، وتقرن أحاديث أخرى

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٨١.

بينهما كقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (إن الله يحب الحيي المتعفف)[١] وقول أمير المؤمنين (عليه السلام) (على قدر الحياء تكون العفّة) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) (العفة رأس كل خير) وعنه (عليه السلام) قال (بالعفاف تزكو الأعمال) وقال الإمام الباقر (عليه السلام) (ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج) وقد تناولنا الموضوع مفصلاً في كلمات سابقة وجعلنا يوماً باسم العفاف في ذكرى ميلاد العقيلة زينب (عليها السلام).

وورد في الحياء مثل ذلك كقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (الحياء لا يأتي إلا بخير)[٢] وقول أمير المؤمنين (عليه السلام) (الحياء مفتاح كل خير) ويوصي الإمام الصادق (عليه السلام) شيعته بقوله (عليكم بالحياء، والتنزه عما تنزّه عنه الصالحون قبلكم) ويوصي الإمام الكاظم (عليه السلام) قائلاً (استحيوا من الله في سرائركم كما تستحيون من الناس في علانيتكم) بل عليه أن يستحي من نفسه وإن كان بعيداً عن الناس، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (أحسن الحياء استحياءك من نفسك)، فقد يكون الانسان في خلوة من الناس ولا يفعل القبيح لأنه يستحيي من نفسه ويُنزهها عن مثله.

ولأهمية هاتين الخصلتين الكريمتين بالنسبة للنساء فقد أعطى الله تبارك وتعالى للنساء تأييداً إضافياً بهما، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (الحياء عشرة أجزاء، فتسعة في النساء وواحد في الرجال) وفي دعاء الإمام الحجة (عليه السلام) في زمن الغيبة الذي أوّله (اللهم ارزقنا توفيق الطاعة وبُعدَ المعصية) ثم خصَّ فيه كل

---

(١) تجد هذه الأحاديث وغيرها في ميزان الحكمة للريشهري: ٧٢/٦-٧٤

(٢) تجد هذه الأحاديث وغيرها في ميزان الحكمة للريشهري: ٥٠٩/٢

شريحة بوظيفتها الرئيسية في زمن الغيبة كالعلماء والآمراء والأغنياء والفقراء وبما يصلحها بلسان الطلب من الله تعالى ان يتفضل عليهم بتلك الخصّال إلى أن قال (عليه السلام) (وعلى النساء بالحياء والعفّة).

نسأل الله تعالى ان يُحسِّنَ خُلُقنا بمحاسن الأخلاق كما حسَّن خَلْقَنا وجعلنا في أحسن تقويم أنه ولي النعم.

القبس/٢٠٤

الروم: ﴿٤١﴾

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾

موضوع القبس: إرتباط فساد الحياة وصلاحها بأفعال الناس

قال الله تبارك وتعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ﴿٤١﴾).

﴿ظَهَرَ﴾ بمعنى بان واتَضّح أو كثر وشاع ـ كما في المفردات ـ بعد أن لم يكن موجوداً، أو كان خفياً مستوراً غير بادٍ للعيان كالأشياء الموجودة في باطن الأرض ثم تخرج إلى ظهرها أي سطحها.

ويمكن أن يكون بمعنى تغلَّبَ وتسلَّطَ وتَمكّن كما في قوله تعالى ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ (التوبة: ﴿٨﴾) واشتق منه لفظ المظاهرة التي تعني المعاونة كقوله تعالى ﴿وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ (الممتحنة: ﴿٩﴾).

﴿الْفَسَادُ﴾ خروج الشيء عن حدّ الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضادُّه الصلاح، واستعملا كمعنيين متقابلين في القرآن الكريم، ويعبِّر الفساد عن حالة من الاختلال في نظام الشيء وتركيبه، والخروج عن خطّ سيره نحو الهدف المقصود الموجب للسعادة والحياة الطيبة مما يسبب آثاراً سيئة ويحرم الناس من المنافع المتوقعة.

والاختلال قد يقع في النظام الكوني الخارجي كما في قوله تعالى ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (المؤمنون: ٧١) كما يمكن يقع في الأفعال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١١)◉ ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ (الفجر: ١١ - ١٢).

﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كناية عن شمول الفساد جميع انحاء الأرض كما نقول ملأ الخافقين، أو انه مراد حقيقة بأن الفساد ملأ البر والبحر فعلاً على كلا المستويين: الواقع الكوني وأفعال الإنسان، فمن الأول تلوث البيئة والاحتباس الحراري والحرائق والاعصارات وانتشار الأوبئة الفتاكة والأمراض الخبيثة والأزمات الاقتصادية والتصّحر ونقص المياه والمجاعة والزلازل والفيضانات وانبعاث الغازات التي تدمر طبقة الأوزون وغيرها، ومن الثاني أي فساد الأفعال: الشرك والالحاد والقتل والزنا والسرقة والربا وشرب الخمر والخيانة والظلم والعدوان والتعصب والحقد والبغضاء والقطيعة والحروب العبثية واسلحة الدمار الشامل وزواج المثلّيين وغيرها مما تشهده الأرض من فظائع وجرائم كبرى.

وما يشهده البحر كالذي يحصل على شواطئها من فسق وفجور، وان سفناً كانت ترسو على سواحل الخليج تحمل العاهرات والخمور ويقصدها السكان المسلمون!! لممارسة الرذيلة، ومن فساد البحر ما يحصل في باطنها من تفجيرات نووية وقتل للكائنات الحية فيها، واساطيل تجوب البحار مسلّحة بأحدث التكنولوجيا العسكرية لإرعاب الشعوب ومحاصرتها واخضاعها لسلطة

المستكبرين، ومن أمثلة فساد البحر أنَّ تمردَّ الإنسان على قوانين حفظ البيئة قد سبّب قلة الأمطار وهو يضر حياة الكائنات الحية في البحار كما يضرها على اليابسة، روى القمي في تفسيره عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله (حياة دواب البحر بالمطر فاذا كفّ المطر ظهر الفساد في البر والبحر وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي)[1]. ونقل بعض الاعلام المعاصرين عمّن يقطنون ساحل البحر قولهم (إن فائدة الغيث للبحر أكثر من فائدته للصحراء)[2].

ولابد أن نفهم من الفساد مساحاته المتعددة العقائدية والسياسية والاقتصادية والأمنية والأخلاقية والفكرية والاجتماعية.

وأعظم فساد هو انحراف العقيدة عن خط التوحيد إلى الشرك والكفر والإلحاد لأنه سبب كل انحراف وفساد ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

وقد طبّق الإمام الباقر (عليه السلام) الآية الكريمة في صحيحة محمد بن مسلم[3] على حادثة السقيفة حيث أقصي أمير المؤمنين (عليه السلام) من مقام خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وولاية أمر الأمة.

وقد ازدادت سرعة انحطاط الناس وتسافلهم في السنين الأخيرة بشكل لم يخطر على بال أحد، حتى سنّوا القوانين لترويج المثلية والتحول الجنسي حتى للأطفال من دون اذن والديهم وحمايتهم باسم الحرية واظهروهم وكأنهم

---

(١) تفسير القمي: ٢/١٦٠

(٢) الأمثل: ١٠/١٨٠

(٣) الكافي: ٨/٥٨ ح ١٩، تفسير القمي: ٢/١٦٠

ضحايا للعنف، ويعاقب من ينتقدهم، ولا أدرى لماذا الحرية مكفولة لمن يروِّج للفساد ولا تكفل لمن يعبِّر عن رأيه برفض الفساد؟! ويقول شخص مقيم في السويد بأنني لا أستطيع أن أمنع ولدي أو بنتي من مصادقة المثليّين لأنه إذا نقل ذلك عني ببراءة الأطفال فان الأب سيسجن سنة إلى ست سنوات.

فهذا الجزء من الآية يخبر عن اتساع هذه الحالة من الفساد وانتشارها في عموم الكرة الأرضية براً وبحراً، وامتلاكها زمام الأمور حتى عاد المؤمنون قلة مستضعفين، ورجع الإسلام غريباً كما بدأ غريباً[1] حتى عند المتسمّين به، فلو أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدعو إلى تطبيق أحكام الشريعة فان فعلك يكون مستهجناً، إلى أن يملأ الله تعالى الأرض قسطاً وعدلا على يد المهدي (عليه السلام) الموعود بعد ما ملئت ظلماً وجورا.

والملفت ان القرآن الكريم استعمل نفس لفظ ﴿ظَهَرَ﴾ للتعبير عن حالة انتصار الإيمان وغلبته وهيمنته على جميع الأنظمة والايديولوجيات الأخرى في النهاية، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة: ٣٣)، (الفتح: ٢٨)، (الصف: ٩).

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ثم تُرجع الآية في هذا الجزء منها سبب وقوع هذا الفساد والاختلال إلى فعل الناس أنفسهم فهم الذين يجرّون إلى أنفسهم هذه الكوارث بحماقتهم وجهلهم وغرورهم واتباعهم للشهوات

(١) مضمون حديث شريف عن أخبار آخر الزمان ورد فيه قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء) / إكمال الدين: ج ١ / ص ٣٠٨

وانصياعهم لشياطين الجن والإنس، وليس سبب هذه الكوارث غضب الطبيعة ونحو ذلك مما يجري على ألسنتهم.

واذا عُرِف السبب فلابد أن يتركز العلاج على ازالته ولا يكفي معالجة نتائجه وآثاره، كالطبيب الحاذق الذي لا يكتفي بعلاج مظاهر المرض كالصداع وعدم الشهية وانما يجري الفحوصات والتحليلات لتشخيص المرض ومعالجته، لكن الغرب الأحمق الغارق في الشهوات لا يسير وفق منطق العقل، فقد ابتلوا مؤخراً بمرض خطير سمّوه جدري القردة واعترفوا بأن سببه زواج المثليين، وأن انتشاره الواسع هذه الأيام حصل بعد مهرجان موسع للمثليّين أقيم في بريطانيا قبل شهرين تقريباً وحضره ثمانون ألفاً، وبدلاً من نبذ المثلية والاعتراف بخطورتها دعوا الناس إلى التلقيح ضد جدري القردة!!!

وهكذا يتسبب هؤلاء الحمقى في تعريض البشرية لكوارث غير مسبوقة لأنهم أحدثوا فساداً غير مسبوق، وهو معنى ورد في حديث عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال (كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون)[1].

وهذا الجزء من الآية ينبّه إلى حقيقة مهمة وهي ان ما يتعرض له الانسان من بلاءات هو بسبب الإنسان نفسه كفرد أو كجزء من المجتمع يصيبه ما يصيبهم، وهي حقيقة كرّرها القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا

(١) الكافي: ٢/٢٧٥ ح ٢٩

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٧٩) وقوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) وقوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢) وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٥٣).

وأشارت إليها أحاديث كثيرة كقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (ما اختلج عرق ولا عثرت قدم إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله عنه أكثر)[١] وقول الإمام الصادق (عليه السلام) (من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال)[٢].

وفي ذلك تنبيه وتحذير ودعوة صادقة لترك المعاصي حتى يجنّبوا أنفسهم الويلات، ولكي لا يقعوا في ما وقعت فيه الأمم السابقة، وقد أوضحتُ هذه الملازمة بين صلاح الإنسان وصلاح الكون حوله وفسادهما في كلمات عديدة.

تصحيح فكرة: إرجاع البلاء الى الله تعالى:

وهذا يصحّح فكرة سائدة لدى عامة الناس تنسِبُ هذه البلاءات إلى الله تعالى فإذا وقع له حادث سير قال هذا ابتلاء من الله واذا مرض بسبب عدم مراعاته الوصايا الصحية اعتبره ابتلاء من الله تعالى وهكذا وهي فكرة خطيرة

---

(١) بحار الأنوار: ١٩٤/٨١ ح ٥٢

(٢) الأمالي للطوسي: ٧٠١ ح ١٤٩٨ وأحاديث كثيرة غيرها في ميزان الحكمة: ٣/ ٣٦٩-٣٩٠

لأنها تؤدي إلى الاعتراض على الله تبارك وتعالى أو سوء الظن به سبحانه أو الشك في وجوده أو النفور من الإيمان ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات: ١٥٩) ومن أهم ما يتذرع به الملحدون هو نسبة الشرور إلى الخالق، وقد تبيّن الآن أنها من فعل الإنسان مباشرة أو غير مباشرة، حيث تُسبّب بعض الذنوب الضرر لكل الناس بل المخلوقات عموماً كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل: ٦١) وقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥).

نعم إنما ينسب الفعل إلى قضاء الله في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة باعتبار أنه تبارك وتعالى وضع هذه القوانين الكونية المؤثرة في حياة الإنسان، لكنه تعالى وضعها لمصلحة العباد وهم الذين يسيئون استخدامها، كقانون الجاذبية فأنه ضروري لاستقرار الحياة ولولاها لما أمكن وضع حجر على حجر ولا سارت قدم على الأرض كالذي تراه عند روادّ الفضاء، ولكن الإنسان اذا رمى نفسه من شاهق وتهشمت عظامه ومات بفعل الجاذبية فان الذنب ليس ذنب القانون وإنما سوء فعل الإنسان، فعلينا تجنّب كل ما ينفّر الناس عن الخالق العظيم ومنها هذا الاعتقاد بأن ما يصيب الإنسان من مصائب هو من فعل الله سبحانه وتعالى عما يصفون.

ويظهر من الآية الكريمة ان الناس ما داموا يمارسون المعاصي سراً ولا

يجهرون بها فان البلاء يكون محدوداً وقد يقتصر عليهم، لكنهم اذا أظهروا الفساد وجاهروا بالمعصية فأن البلاء سيكون عظيماً وعاماً، وهذا المعنى ورد في الروايات الشريفة ففي الحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال (لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون ـ وهو وصف عام للجوائح والاوبئة العامة مثل فايروس كورونا ـ والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)[1] وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال (إن المعصية اذا عمل بها العبد سرّاً لم تضرّ الا عاملها، واذا عمل بها علانية ولم يغيَّر عليه أضرّت بالعامة)[2].

﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ هذا الظهور للفساد في البر والبحر لا يتدخل الله سبحانه لمنعه كليّاً ولا يعطّل السُنن والقوانين الجارية في الكون لأن الله تعالى جعل الإنسان حرّاً مختاراً لما يفعل حتى يتحمل مسؤولية أفعاله ويستحق على أساسها الثواب او العقاب، فيدعهم يذوقون بعض ما عملوا وليس كل الذي عملوا لأن الدنيا ليست دار جزاء وإنما الجزاء في الآخرة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨) ولأن الله تعالى يعفو عن كثير كما في آية الشورى المتقدمة، ولولا هذا العفو وتسخير الملائكة لحماية البشر من شرورهم ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ١١) لكان سكان الأرض في

---

(١) ميزان الحكمة: ٩٧/٧ عن الترغيب والترهيب: ٥٦٨/٢ ح ٣

(٢) بحار الأنوار: ١٠٠/ ٧٤ ح ١٥

كارثة حقيقية ولانعدمت الحياة على الأرض من أفعال الحمقى الذين يقودون العالم وما يملكونه من أسلحة دمار شامل بحسب الإحصاءات المرعبة التي تنشرها المجلات والكتب المتخصصة.

وتكون الإذاقة لنفس عملهم عندما يظهر لهم بصورته الحقيقية السيئة حيث يتحول إلى ألم ما توهموه لذة، وإلى شرّ ما ظنّوه خيرا، أو ليذيقهم وبال العواقب الوخيمة لبعض أفعالهم ليس انتقاماً منهم لأن الله تعالى غني عن العالمين لا تضره معصية العباد ولا تزيده طاعتهم شيئاً، وهو سبحانه يحب عباده ويريد لهم الخير والرحمة ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ١٢) وفي الحديث القدسي (الخلق عيالي فأحبهم إليّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم)[1] فهل رأيت ربّ عائلة عاقل يريد الشر بعائلته؟ وإنما يذيقهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فالغرض من إذاقتهم بعض ما عملوا هو تربيتهم وإصلاحهم من خلال إلفات نظرهم وتنبيههم من غفلتهم التي لو استمروا عليها فانها تورثهم الحسرة والندامة، قال تعالى ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١).

ونستنبط من الآية الكريمة عدّة مسؤوليات:

منها: أنَّ على المؤمنين الدعاة إلى الله تبارك وتعالى توعية الناس جميعاً إلى أن ما يحلّ بهم من كوارث ونكبات وآلام وشرور هو نتيجة طبيعية لأفعالهم فاذا أرادوا التخلّص منها فليصلحوا أنفسهم وليغيروا نظمهم الاجتماعية

(١) الكافي: ٢/١٩٩ ح ١٠

والسياسية والاقتصادية المخالفة لسنن الله تعالى وقوانينه.

ومنها: أنَّ على المؤمنين أيضاً أن يجهدوا أنفسهم في جلب السعادة والخير للناس وتحقيق العدالة الاجتماعية وتوفير الحياة الكريمة لهم في أي موقع كانوا وبالطريقة التي يستطيعونها حتى يصدّق الناس بأن الالتزام بالدين يحقق لهم ذلك، روى في الكافي بسنده عن الإمام الكاظم (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ١٩) قوله(عليه السلام) (ليس يحييها بالقطر ولكن يبعث الله رجالاً فيحيون العدل فتحيى الأرض لإحياء العدل، ولإقامةُ الحدِّ لله أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً)[1].

(١) الكافي: ١٧٤/٧ ح ٢

القبس/٢٠٥

الأحزاب: ﴿٥٦﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾

موضوع القبس: فضل الصلاة على النبي وآله وآثارها المباركة

قال الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ﴿٥٦﴾)

أطلق لفظ النبي ولم يُذكر اسمه بينما ذُكرت أسماء الأنبياء الآخرين؛ تعظيماً لشأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ولتفرّده بسموّ المنزلة حيث لا يشاركه ولا يدانيه ملكٌ مقرّب ولا نبي مرسل.

ومعنى الصلاة عليه من الله تعالى حسن الثناء عليه في الملأ الأعلى والأدنى وزيادة نوره وبركته ورفع درجاته حتى يبعثه المقام المحمود الذي وعده، والصلاة من الملائكة طلب إنجاز ذلك له، ومن المؤمنين الدعاء من الله تعالى له بذلك، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله (صلوات الله عليه تزكية له وثناء عليه، وصلاة الملائكة مدحهم له، وصلاة الناس دعاؤهم له والتصديق والإقرار بفضله)[1].

وبذلك يلتحم الكون في حركة ودّيّة دؤوبة تلهج بعظمة هذا الوجود

(١) نور الثقلين: ج٤، ص ٣٠٠، ح ٢١٢.

المبارك والنعمة العظيمة والرحمة المهداة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، أما من يسيئون إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) وينتقصون منه ويشوّهون صورته ويفترون عليه فهم محرومون من الحضور في هذا العالم الجميل الطيب السعيد ولا يظلمون إلا أنفسهم.

فالآيةُ الكريمة تبيّن أن رسول الإسلام محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) أعظم المخلوقين منزلةً وأرفعهم مقاماً في الملأ الأعلى وفي الملأ الأدنى، وهذه الصلوات مستمرة دائمة ﴿يصلّون﴾ وليست مختصة بحياته الشريفة، ومع تكرار هذه الصلوات واستمرارها يزداد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رفعةً وعلواً.

ولم يُذكَر متعلّق هذه الصلاة من الله تعالى ومن الملائكة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهي مطلقة ومفتوحة على كل ما يُوجب المقام المحمود عند الله تعالى، أما صلاة الله تبارك وتعالى وملائكته على الناس فقد ذُكر متعلّقها وهي الهداية من الظلمات إلى النور ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ (الأحزاب: ٤٣) فهذه ليست كتلك والفرق بينهما واضح، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كله نور ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥) ويزداد نوراً بهذه الصلوات.

وفي الآية أمرٌ من الله تبارك وتعالى بالتسليم على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأيضاً التسليم له تسليماً مطلقاً، إذ لم يذكر متعلق التسليم فيحتمل فيه المعنيان، روى الشيخ الصدوق في معاني الأخبار بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (وأما

قوله عز وجل ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فإنه يعني التسليم له فيما ورد عنه)[1] وعلى رأسها الولاية، امتثالاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥).

والقدر المتيقن من الوجوب ذكرها في تشهّد الصلاة وفي خطبة الجمعة والأذان، روي عن عائشة قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: (لا تُقبَل صلاة إلا بطهور وبالصلاة عليَّ)[2]، ونظم الشافعي ذلك شعراً فقال:

يا آل بيت رسول الله حبكـمُ   فرضٌ من الله في القرآن أنزلـهُ
كفاكمُ من عظيم القدر أنكمُ   مَن لا يصلي عليكم لا صلاة له[3]

ولتأكيد هذا الأمر والحث عليه فقد بدأ الله تعالى نسبة القيام بالفعل إليه سبحانه تعظيماً لشأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم ثنّى بالملائكة امتثالاً لأمره، ثم دعا المؤمنين إليها تحبيباً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأن توفيقهم للصلاة من الآثار المباركة لصلاة الله تعالى وملائكته وأنَّ الله تعالى هو أصل هذا الفعل ومبعثه، مضافاً إلى ما فيه من الترغيب والتشجيع للمؤمنين حين يشعرون بأنهم وهم يصلّون على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تقترن صلاتهم بصلاته سبحانه، ويقفون في صف الملائكة ممتثلين لإرادة الله تبارك وتعالى، وكفى ذلك تشريفاً لهم، روى في الدر المنثور بسنده عن أنس قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إن أنجاكم يوم القيامة من

---

(١) وسائل الشيعة: ١٩٦/٧ عن معاني الأخبار: ٣٧٦.

(٢) بحار الأنوار: ٨٢/ ٢٧٨ (باب التشهد وأحكامه).

(٣) قال في تفسير (الأمثل: ١٠/ ٤٧٥): ذكر العلامة الأميني في كتابه النفيس (الغدير) نسبة هذه الأشعار إلى الشافعي عن شرح المواهب للزرقاني: ٧/ ٧ وجماعة آخرين.

أهوالها ومواطنها أكثركم عليّ في دار الدنيا صلاةً، أنه قد كان في الله وملائكته كفاية ولكن خصَّ المؤمنين بذلك ليثيبهم عليه)[1].

وتوجيه الخطاب لهم بعنوان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يكشف عن أنَّ من علامات صدق إيمانهم هذه الصلوات على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والتسليم له، والاعتقاد بأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) يسمع هذه الصلوات بعد موته ويشكرها من أصحابها، روى البيهقي في شعب الإيمان وغيره بإسنادهم عن أبي هريرة قال: (من صلّى عليَّ عند قبري سمعته ومن صلّى عليَّ نائياً كفي أمر دنياه وآخرته وكنتُ له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة)[2].

ولا تخلو هذه البداية من درس بأن مَن يدعو إلى الخير لا بد أن يبدأ بنفسه وبمن يرتبط به أولاً فيفعله، ليكون صادقاً في دعوته ويطابق قوله فعله.

كما أن فيها ضبطاً لعقيدة المسلم بأن لا يغلو في نبيّه فيعتقد فيه الربوبية والألوهية فهو في صلاته عليه يتوجّه إلى الله تعالى بأن يصلّي على نبيه ويرفع درجته وبذلك ينصهر في التوحيد الخالص ويذوب في محبة نبيه الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).

لا تتم الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله) الا بالصلاة على آله:

وقد روى الفريقان بما لا يحصى كثرةً أنَّ حقيقة الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إنما تتم بضمِّ آله إليه، ونقل ما رواه البخاري في تفسير هذه الآية

(١) الدر المنثور: ٦/ ٦٥٣.

(٢) الدر المنثور: ٦/ ٦٥٤.

عن كعب بن عجرة عنه (قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)(1)، والغريب أن علماء العامة يروون عشرات الروايات في هذا المعنى ولكنهم لا يذكرون الآل في الصلوات.

ووصف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الصلاة عليه بدون الآل بالبتراء ونهى عنها فقد روى ابن حجر في صواعقه أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (لا تصلّوا عليَّ الصلاة البتراء، فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: اللهم صلِّ على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد)(2)، ولم تفرّق الصلوات بين النبي وآله بـ(على) لتدل على أن الصلاة عليهما واحدة.

وفي أمالي الصدوق أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (من صلى عليَّ ولم يصلِّ على آلي لم يجد ريح الجنة، وإنّ ريحها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام)(3)، وروى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (سمع أبي رجلاً متعلقاً بالبيت وهو يقول: اللهم صلِّ على محمد، فقال له أبي

---

(1) صحيح البخاري: باب قوله إن الله وملائكته يصلون على النبي ... ، ص ١٨٠٢ / ح ٤٥١٩، وأخرج في الدر المنثور: ٦/ ٦٤٦-٦٥٦ عشرات الأحاديث من طرق عديدة في هذا المعنى.

(2) الصواعق المحرقة: ١٤٤.

(3) سفينة البحار: ١٧١/٥ عن أمالي الصدوق: ١٦٧، ح ٩، وسائل الشيعة: ٢٠٣/٧ ط. أهل البيت (عليهم السلام).

(عليه السلام): لا تبترها، لا تظلمنا حقنا، قل: اللهم صلّ على محمد وأهل بيته)[١]، وروى السيد المرتضى عن تفسير النعماني بسنده عن علي (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (لا تصلّوا عليَّ صلاة مبتورة، بل صِلوا إليَّ أهل بيتي، ولا تقطعوهم)[٢]، وروى الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال بسنده عن عمار بن موسى قال: (كنت عند أبي عبد الله عليه سلام فقال رجل: اللهم صلِّ على محمد وأهل بيت محمد، فقال له أبو عبد الله عليه سلام: يا هذا لقد ضيّقت علينا، أما علمت أنَّ أهل البيت خمسة أصحاب الكساء: فقال الرجل كيف أقول؟ قال: قل اللهم صلّ على محمد وآل محمد فسنكون نحن وشيعتنا قد دخلنا فيه)[٣].

وقد وردت أحاديث متواترة من طرق الفريقين في الحث على الصلاة على النبي وآله والإكثار منها في كل زمان ومكان، لما فيها من بركات في الدنيا والآخرة، روى في كنز العمال عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (حيثما كنتم فصلّوا عليَّ فان صلاتكم تبلغني)[٤] وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (الصلاة عليَّ نور على الصراط)[٥]، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (بالشهادتين تدخلون الجنة وبالصلاة

(١) وسائل الشيعة: ٢٠٢/٧ عن الكافي: ٣٥٩/٢ ح ٢١.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٠٧/٧ ح ١٧.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٠٥/٧ عن ثواب الأعمال ١٨٩ ح ٢.

(٤) كنز العمال: ٢١٤٧، ٢١٤٩.

(٥) بحار الأنوار: ج ٩١ / ص ٦٤، مستدرك الوسائل: ج ٥ / ص ٣٣٥

تنالون الرحمة فأكثروا من الصلاة على نبيّكم وآله)[١].

وروى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن عبد السلام بن نعيم قال: (قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: إني دخلت البيت ولم يحضرني شيء من الدعاء إلا الصلاة على محمد وآله، فقال عليه السلام: أمَا أنّه لم يخرج أحدٌ بأفضل مما خرجت به)[٢].

روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن محمد بن مسلم عن الإمام الباقر أو الصادق (عليهما السلام) قال: (ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد وإن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيُخرِجُ صلى الله عليه وآله وسلم عليه فيضعها في ميزانه فترجح)[٣] وروى في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من صلى عليَّ صلى الله عليه وملائكته، فمن شاء فليُقِلّ ومن شاء فليُكثِر)[٤].

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم عليَّ صلاة في الدنيا، من صلى عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة، سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا، ثم يُوكِلُ الله بذلك ملكاً يدخله في قبري كما يدخل عليكم الهدايا يخبرني بمن صلّى عليَّ باسمه

(١) نور الثقلين: ٤/ ٣٠٢، ح ٢٢٤.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/ ١٩٣ عن الكافي: ٢/ ٣٥٧، ح ٦.

(٣) وسائل الشيعة: ١٩٢/٧ عن الكافي: ٣٥٨/٢ ح ١٥.

(٤) وسائل الشيعة: ١٩٤/٧ عن الكافي: ٣٥٨/٢ ح ١٣، ٨.

ونسبه إلى عشرة فأثبته عندي في صفحة بيضاء)[١].

وروى الشيخ الصدوق في العيون عن الرضا (عليه السلام) قوله: (مَن لم يقدر على ما يكفِّر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله فإنها تهدم الذنوب هدماً)[٢].

وبالمقابل فقد ذمّت الأحاديث الشريفة من تكاسل عن هذا الفعل الكريم، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (إن أبخل الناس من ذُكِرت عنده ولم يصلِّ عليَّ)[٣] ويُخشى على تاركها أن يكون منافقاً، فقد روى الكليني بسند صحيح عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصلاة عليَّ وعلى أهل بيتي تُذهِبُ النفاق)[٤].

وروى في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: (من ذُكِرت عنده فنسي أن يصلي عليَّ أخطى الله به طريق الجنة)[٥] أي جعله يتخطاه أي يتعداه، وروى الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما اجتمع في مجلس قوم لم يذكروا الله ولم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس حسرةً عليهم يوم القيامة، قال أبو جعفر (عليه السلام): إن ذكرنا من ذكر الله

(١) الدر المنثور: ٦/ ٦٥٤.

(٢) سفينة البحار: ٥/ ١٧٠ عن عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ج٢، ص ٢٦٥.

(٣) كنز العمال: ٢١٤٤.

(٤) وسائل الشيعة: ١٩٣/٧ عن الكافي ٣٥٨/٢ ح ١٣، ٨.

(٥) بحار الأنوار: ٣١/١٧.

وذكر عدوّنا من ذكر الشيطان)[١].

وروى أيضاً عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إذا ذُكر النبي صلى الله عليه وآله فأكثروا الصلاة عليه فإنه من صلى على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صلاة واحدة صلى الله عليه ألف صلاة في ألف صف من الملائكة ولم يبق شيء مما خلقه الله إلا صلى على العبد لصلاة الله عليه وصلاة ملائكته، فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور قد برئ الله منه ورسوله وأهل بيته)[٢].

ويستحب إعلان الصلاة والإجهار بها لتثبيت الانتماء والهوية والصدع بها والتزام الطاعة والتسليم للقائد الديني، روى عن الإمام الصادق (عليه السلام) بنفس السند قوله: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ارفعوا أصواتكم بالصلاة عليَّ فإنها تُذهب النفاق)[٣] وكان الطغاة والحكام المنحرفون يعرفون هذا المعنى ويقلقون منها، وحكم على كثير من المؤمنين بالسجن بضع سنوات في عهد النظام البائد لأنهم رفعوا أصواتهم بالصلوات، عندما أعلن عبدالله بن الزبير دولته في مكة ذكرت الأخبار (تحامل عبد الله بن الزبير على بني هاشم تحاملاً شديداً، وأظهر لهم العداوة والبغضاء، حتى بلغ ذلك منه أن ترك الصلاة على محمد في خطبته، فقيل له: لم تركت الصلاة على النبي؟ فقال: إن له أهل سوء يشرئبون لذكره، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به)[٤].

---

(١) وسائل الشيعة: ١٩٨/٧ عن الكافي: ٣٦٠/٢ ح ٢.

(٢) سفينة البحار: ١٧٣/٥ عن الكافي: ج٢ / ص ٤٩٢، ح ٦.

(٣) وسائل الشيعة: ١٩٣/٧ عن الكافي ٣٥٨/٢ ح ١٣، ٨.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ / ص ٢٦١

إن صلاتنا لا قيمة لها في جنب صلاة الله تعالى، لكن بفضله وكرمه أراد تشريفنا وتكريمنا بذلك، وأن ينشئ هذه العلاقة الوثيقة والعروة الوثقى التي لا انفصام لها بين المعصومين الهداة (صلوات الله عليهم أجمعين) وبين أتباعهم وأن تكون هذه العلاقة متبادلة ومستمرة ﴿يُصَلُّونَ﴾ فهم يصلّون على نبيّهم ويسلّمون له وعليه، وفي ذلك اعتراف بفضله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الناس جميعاً وإظهار لعظمته وسموّ منزلته، وردٌّ على مَن يسيئون إليه وينتقصون منه، وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) كذلك يصلي ويسلّم عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: ٥٤) وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

والصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله تستنزل كل خير وتدفع كل شرّ، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم وزكاة لأعمالكم)[1] وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) (كل دعاء محجوب حتى يُصلّى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم)[2] فبها نبدأ وبها نختم لأنها دعاء حتمي القبول ولا يردُّ، وحاشا لكرم الله تعالى أن يقبل الطرفين ويردّ ما بينهما، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (من كانت له إلى الله حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآله ثم يسأل حاجته ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد فإن الله عز وجل أكرمُ من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط إذا كانت

(١) وسائل الشيعة: ٧/ ٩٦.

(٢) كنز العمال: ٢١٥٣

الصلاة على محمد وآل محمد لا تحجب عنه)[1].

أعمالنا بين القبول وردّها إلا الصلاة على النبي محمدِ

(١) بحار الأنوار: ٩٠/ ٣١٦.

القبس/٢٠٦

فاطر: ١٥

﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥)، وفي معناها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد: ٣٨).

الفقير مقابل الغني، وهي صفة مشبهة فتدل على حال علق بالذات على نحو مستمر كما في قتيل بمعنى مقتول، وليس مؤقتاً كاسم الفاعل، أو هي صيغة مبالغة تدل على شدة اتصاف الموصوف بالصفة على نحو رحيم وكريم وعظيم.

والفقر يتضمن معنى النقص والضعف الموجب للاحتياج، فنقول إن هذا الشيء يفتقر إلى كذا أي يحتاج إليه، أما الغني فيتضمن معنى الكمال والقوة الرافعة للاحتياج، والاحتياج سببه الفقدان والانفصال عمّا يحتاج إليه، ولعله لهذا سميت الفقرات في العمود الفقري لأنها حلقات منفصلة محتاجة إلى بعضها.

وبذلك يتحصّل لنا أكثر من وجه لتسمية الفقير:

أ- لانفصاله وانقطاعه عن سبب كماله وحاجته وفقدانه له كالمال وغيره.

ب- لأن الفقر بذلّته ومسكنته وشدة وطأته كسر ظهر صاحبه وقطع عموده الفقري، ومن كسر عموده الفقري فإنه يكون مشلولاً عاجزاً عن الحركة

والنهوض وهكذا الفقير لا يستطيع سد احتياجاته إلا بأن يكمل أحدٌ نقصه، سواء كان على مستوى الفرد أو الأمة فإنها إذا كانت لا تمتلك مقومات القيام فإنها عاجزة مستعبدة.

وقد أطلق القرآن الكريم على المصيبة العظيمة بأنها فاقرة أي قاطعة للعمود الفقري وكاسرة للظهر في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٤) أي عابسة بائسة ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٥) وهي الداهية العظمى التي تكسر فقار الظهر كما يقال قاصمة الظهر، وفي الحديث الشريف عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (من القواصم الفواقر التي تقصم الظهر جار السوء) [1].

ويراد بالفقير في المصطلح هو الذي لا يستطيع توفير احتياجاته المعاشية الأساسية بشكل مستمر فهو في ضعف عن سد الحاجة ونقص من هذه الجهة ويحتاج إلى من يسّد حاجته، وعرّفه الفقهاء بأنه من لا يملك قوت سنته وأشكلنا على التعبير [2] وقلنا إن الصحيح هو أنه لا يجد قوت سنته، لأنه قد يتوفر لديه ما يحتاج على نحو غير التمّلك كإباحة التصرف أو دخوله في عنوان الموقوف عليهم ونحو ذلك، فهو ليس فقيراً مع عدم تملكه.

وفي حصر الفقير بنقص المال تضييق لمعناه الواسع إذ يمكن أن يكون فقيراً في الدين أو العلم أو الأخلاق أو الجاه أو العلاقات الاجتماعية ونحو

---

(١) الكافي – الشيخ الكليني: ٢/ ٦٦٨.

(٢) سبل السلام، العبادات، كتاب الزكاة، (ط ٦/ ص ٤٧٧/ مسألة: ١٦٦٥).

ذلك، روى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (الفقر الموت الأحمر، فقلت لأبي عبد الله: الفقر من الدينار والدرهم؟ فقال عليه السلام: لا، ولكن من الدين) [1] وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله:(الفقر فقر القلب) [2] ومن كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام):(لا فقر كالجهل) [3] و (أكبر الفقر الحمق) [4].

بل الأهم من ذلك أن يلتفت إلى فقره الذاتي وحاجته إلى الغني المطلق وهو الله تبارك وتعالى، وهذا هو الفقر الحقيقي الذي تفرعت عنه المصاديق الأخرى، فقد يكون صاحب مال أو علم أو زعامة أو أي شيء آخر من هذه الأمور الدنيوية لكنه في حقيقته فقير.

وهذا الفقر دليل على وجود الله تعالى الغني لأن الفقير لا يتمكن من الحياة إلا بإمداد الغني، (إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك) [5].

فالإنسان محتاج إلى الله تعالى ابتداءً حيث أعطاه الله تعالى كل تلك النعم ولم تكن عنده، واستمراراً إذ يمكن أن يسلبها في أي لحظة وإلى هذا أشار الإمام الحسين (عليه السلام) في دعائه يوم عرفة: (إلهي أنا الفَقِيرُ فِي غِنايَ

---

(١) الكافي: ٢/ ٢٦٦.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/٧٢، ح٨٦.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٥٤.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة ٣٨.

(٥) مفاتيح الجنان، الدعاء الملحق بدعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة.

فَكَيْفَ لا أكُونُ فَقِيراً فِي فَقْرِي) [1]، فهذا الغنى نسبي بلحاظ حالة معينة، وإلا فإن الفقر صفة ذاتية ثابتة فيه.

وثمرة الالتفات إلى هذه الحقيقة ألا يغترّ الإنسان بما عنده من هذه الأمور فيطغى ويؤدي به الطغيان إلى كفران النعمة والتمرد على الله تبارك وتعالى وعصيانه، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: ٦-٧) فهو لم ولن يستغني ولكنه توهم الغنى ورآه بعينه غير البصيرة فتصور أن الثراء وكثرة المال واقتداره الظاهري يحميانه من الفقر و الحاجة، ولم يلتفت إلى أن هذا كله معرض للزوال فأعجب بنفسه وطغى، لذا يتعوذ المعصومون (عليهم السلام) من هذا الغنى الوهمي ففي الدعاء (اللهم أغنني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك)[2].

ويذكر القرآن الكريم قارون مثالاً على ذلك فقد أعطاه الله تعالى مالاً كثيراً ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ (القصص: ٧٦) ولما نصحوه بأن يحسن ولا يبغي الفساد في الأرض ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨) أي بقدراتي الذاتية وليس بفضل الله تعالى، ولم يلتفت إلى حقيقة مهمة ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: ٧٨).

وروى الشيخ الكليني (قدس سره) في الكافي عن الإمام الصادق (عليه

---

(١) بحار الأنوار: ٩٥/ ٢٢٥، مفاتيح الجنان: دعاء يوم عرفة.

(٢) بحار الأنوار: ٦٩/ ٣١.

السلام) قال: (جاء رجل موسر إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) نقي الثوب، فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسوله الله صلى الله عليه وآله: أخفت أن يمسك من فقره شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يوسخ ثيابك؟ قال: لا، قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إن لي قريناً يزيّن لي كل قبيح ويقبّح لي كل حسن وقد جعلت له نصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: للمعسر أتقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل: ولمَ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك)(١).

وهذا ما أرادت الآية الكريمة التنبيه عليه وإخراج الناس من وهمهم وغفلتهم وطغيانهم، فأنتم فقراء ومحتاجون دوماً إلى الله تعالى وهو الغني المطلق عنكم وعن غيركم ولا تنفعه عبادتكم ولا أي شيء.

ونحن محتاجون إليه تعالى بجميع أسمائه الحسنى كالرحيم والغفور والهادي والرازق والعليم؛ لذا جيء بلفظ الجلالة الجامع لصفات الكمال، وإن الإنسان ليخجل من غفلته عن هذه الحقيقة التي يشهد بها وجدانه وكيانه حتى يذكّره الله تعالى بها.

وهو الحميد الذي يستحق أن يحمد لأن الغنى صفة كمال تستحق الحمد، وهو محمود على كل ما يفعل لأنه يختار الخير لعباده حتى وإن منع

(١) الكافي: ٢/ ٢٦٢-٢٦٣، بحار الأنوار: ٧٢/ ١٥.

عنهم العطاء، وهو حميد لأنه مع غناه عن خلقه يذكرهم برحمته ويشفق عليهم وينزل إليهم كل ما فيه صلاحهم وسعادتهم، وجعل الإنسان خليفته في أرضه، وهو حميد لأنه يعطيهم بلا عوض لأنه غني عنهم وهذا وجه ارتباط الغني بالحميد، وينحصر الحميد به لأن طبع البشر الأغنياء هو اللؤم، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً﴾ (الإسراء: ١٠٠).

لكن الشيطان ينسي الإنسان هذه الحقيقة ويوهمه بأن غناه في الحرص على تملّك هذه الأمور الدنيوية والاستزادة منها بأي نحو كان ليمنعه من إنفاقها في سبيل الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٦٧) إلى أن قال ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٨).

وتذكر الآية التالية لمحل البحث مثالاً لفقرهم، قال تعالى فيها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بأن يفنيكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ غيركم كما أتى بكم ولم تكونوا موجودين من قبل ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي محال وممتنع، وورد مثله في آيات أخر [1] كما في آخر آية من سورة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) المتقدمة قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٨).

(١) لاحظ مثلاً سورة إبراهيم: ٢٠، النساء: ١٣٣، الأنعام: ١٣٣.

فالإنسان فقير ومحتاج إلى ربه الغني في كل حركاته وسكناته وأفكاره وهواجسه بل هو محتاج في كل نفس وفي كل نبضةٍ للقلب وهكذا. والغنى هو في إدراك هذه الحقيقة ومعرفة أن الفقر صفة لازمة له، لكي يلتجئ إلى الله تعالى في سائر أموره طالباً فضله.

وحينئذٍ يكون هذا الإحساس بالفقر كمالاً للإنسان وقوة لأنه سيتّصل بفيض المنعم الواسع العليم، ولأنه سوف لا يرجو أحداً سواه ولا تذلّه الحاجة إلى أحد من الخلق، ولأنه يحفّزه على التحلي بالأخلاق الفاضلة والإتيان بالأعمال الصالحة راجياً ما عند ربّه الكريم، ولأنه سيدرك عظمة نعمة الله تعالى حين يلتفت إليه وهو الغني عنه ومع افتقاره إليه سبحانه فكيف يقابله بالجحود والعصيان؟!.

انما الصدقات الإلهية للفقراء الذين انقطعوا اليه تعالى:

وتوجد ثمرة أخرى لإدراك هذا الفقر الذاتي للإنسان والاحتياج إلى ربّه الغني تعرف من ضمّ هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ (التوبة: ٦٠) حيث يفهم أن لله تعالى عطاءً خاصاً يتصدق به ويتفضل به على من أدرك معنى الفقر في حقيقته فانقطع إلى الله تعالى، وهذا العطاء متفاوت بتفاوت المعرفة بهذا الفقر واستحضاره.

وهذا الفقر الذاتي صفة كل المخلوقات الممكنات المحتاجة إلى الواجب الغني بذاته فإنها جميعاً لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا قدرة ولا قوة (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا

أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤).

وتذكر آية أخرى صورة من صور الاحتياج لكل المخلوقات، وهي الزوجية قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات: ٤٩-٥٠).

وهنا يأتي سؤال بأن الآية لا تخلو من ظهور في حصر الفقر بالناس المخاطبين وكأن لسانها: أنتم أيها الناس دون سواكم الفقراء لله تعالى كما حصرت الغنى به تعالى، فكيف ينسجم هذا مع حقيقة أن كل المخلوقات فقراء إلى الله تعالى؟، ويمكن جوابه بوجوه: -

أ- الأولوية بأن يقال: إذا كان الإنسان خليفة الله في الأرض المجعول بأحسن تقويم شأنه الفقر والنقص والاحتياج فمن باب أولى بقية المخلوقات الأقل منه شأناً.

ب- التجريد عن الخصوصية فإن ملاك الفقر والاحتياج الذي جعل الناس فقراء إلى الله موجود في غيرهم أيضاً، وقال السيد الطباطبائي (قدس سره): ((وذلك أن عموم علة الحكم يعمم الحكم)) (١).

ج- إن الناس إنما خُصّوا بهذا الخطاب لأنهم وحدهم المتمردون والمتوهمون بخلاف الحق، أما المخلوقات الأخرى فإنهم مطيعون مذعنون مسلمون ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ٣٤، وذكر (قدس سره) عدة أجوبة وصفها بأنها لا تلائم مفاد الآية وهي بعيدة فعلاً.

(الإسراء: ٤٤).

د- إن هذا الحصر إضافي، فإنما خوطب به الناس لأنهم يظنون أن الله تعالى حينما يدعوهم إلى توحيده ونبذ الشركاء عنه ويجاهد الرسل من أجل هدايتهم إلى طاعته وعبادته فإنه محتاج إليهم، وكذا حينما يطلب منهم الإنفاق فإنه سبحانه محتاج إليهم وأنهم أغنياء بما عندهم وبآلهتهم التي يعبدونها وتعطيهم ما يشاؤون، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّه قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّه فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾ (آل عمران: ١٨١)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٦٤) فنبههم الله تعالى إلى هذا الوهم وأن الحقيقة معكوسة فأنتم الفقراء إلى الله تعالى والله غني عنكم، وحينئذٍ لا تدل الآية على حصر الفقر بهم بل تدل على حصرهم بالفقر.

والغفلة عن هذا الفقر نقص وفقر مذموم فلا بد أن نفهم وجوه الفقر ونفرّق بين أحواله.

ومما ينبغي الالتفات إليه أنَّ المعصومين (عليهم السلام) تارة يذمون الفقر حتى قالوا فيه: (كاد الفقر أن يكون كفراً) [1] ويتعوذون منه كما في الدعاء (اَللّـهُمَّ اِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ . . . والْفَقْرِ وَالْفاقَةِ وَكُلِّ بَلِيَّة) [2] لكنهم (عليهم السلام) يفتخرون باتصافهم به تارة أخرى كما في الحديث النبوي الشريف (الفقر فخري وبه

(١) أمالي الصدوق: ٣٧١.

(٢) بحار الأنوار: ٩٥/ ٩٣، مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثمالي.

أفتخر) [(١)] وسئل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ما الفقر؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): خزانةٌ من خزائن الله تعالى، قيل ثانياً: ما الفقر يا رسول الله؟ قال: كرامة من الله، قيل ثالثاً: ما الفقر؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): شيء لا يعطيه الله إلا نبياً مرسلاً أو مؤمناً كريماً على الله تعالى) [(٢)].

ومن وجوه الجمع أنّ الأول استعاذة من الحاجة الموجبة إلى نقص الدين وتدنيس الكرامة الإنسانية والاحتياج إلى الناس، والثاني هو الانقطاع إلى الله تعالى وشدة الاحتياج إليه وإنما يفتخر به لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان في أكمل صور الانقطاع إلى الله تعالى والفقر والحاجة إليه سبحانه، وقد ورد في المناجاة الشعبانية لأمير المؤمنين (عليه السلام):(اللهم هب لي كمال الانقطاع اليك).

---

(١) بحار الأنوار: ٦٩/ ٣٠. عوالي اللئالي: ٤/ ١٢٥.

(٢) ميزان الحكمة:١٣٨/٧ عن جامع الأخبار: ٢٩٩ ح ٨١٥.

القبس/٢٠٧

يس: ﴿٨٢﴾

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

مظهر من مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى، وتمام سلطنته على كل مخلوقاته تكشف عنه الآية الكريمة، من خلال بيان حقيقة شأنه تبارك وتعالى في خلق الأشياء، بأنه اذا تعلقت مشيئة الله تعالى بإيجاد شيء وأراد إحداثه فإنه يحصل مباشرة بمجرد إرادته بدون فاصلةٍ؛ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، ولا يحتاج إلى أزيد من تعلق إرادته عز وجل بالشيء حتى يتحقق، فلا يوجد أي تأمل أو تروّي أو دراسة لديه سبحانه، ولا يوجد ما يمنعه كما لا يمتنع شيء عن التحقق والحصول اذا أراده الله تبارك وتعالى، وإن جميع الموجودات مطيعة له وممتثلة لإرادته ﴿فَيَكُونُ﴾، ولا يحتاج الى شريك يساعده ولا إلى وقت لإيجاده كما يحصل للمخلوقين إذا أرادوا شيئاً، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر : ﴿٥٠﴾).

هذا بناءً على تفسير الأمر هنا بمعنى الشأن، ولا مانع من تفسيره بالطلب مقابل النهي، فإن طلبه سبحانه عين إرادته، فاذا أراد شيئاً فقد طلبه، وسيتحقق بمجرد تعلق الإرادة به، لعدم وجود ما يمنع أو يؤخّر ذلك، ولا يحتاج حتى إلى قوله كلمة ﴿كُنْ﴾، لأن إنشاء أي لفظ يحتاج في وجوده إلى لفظ ﴿كُنْ﴾ آخر ليوجد، وهذا تسلسل باطل، مضافاً إلى أن إنشاء خطاب يعني وجود المخاطب وهذا خلاف الفرض بأنه يراد إيجاده.

فالقول هنا إذن ليس التعبير اللفظي لأن الله سبحانه منزّه عن مجانسة مخلوقاته، وإنما المراد فحواه ومضمونه بتوجه الأمر والطلب نحو الشيء وتعلق الإرادة به ليقع ويحصل، قال الإمام السجاد (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في دعائه: (ومضت على إرادتك الأشياء، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة، وبإرادتك دون نهيك منزجرة)[1] ، أي ان الأشياء تمضي على وفق إرادة الله تعالى حتى من دون الحاجة الى امر ونهي لتحريكها نحو الفعل وعدمه.

وهكذا تفهم سائر الآيات الكريمة التي ظاهرها القول اللفظي حيث ورد التعبير عن هذه الحقيقة بصيغ مختلفة في آيات متعددة كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل : ٤٠) وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة : ١١٧) وقوله تعالى ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران : ٤٧) وقوله تعالى ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (مريم : ٣٥) وقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (غافر : ٦٨) فإن قضاء الله تعالى لأمرٍ وحكمه به يعني تعلق إرادته سبحانه بإيجاده، ومن تطبيقاته ما ورد في خلق آدم (صلوات الله عليه) أبي البشر في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران : ٥٩).

قال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (يقول لمن أراد كونه ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ لا

(١) الصحيفة السجادية :٤٥ الدعاء السابع الذي اوله (يا مَن تُحَلُّ به عُقَدُ المَكارِهِ).

بصوت يُقرع ولا نداء يُسمع وإنما كلامه سبحانه فعل منه وإنشاء ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً)[١] وعن الإمام الرضا (عليه السلام) قال (الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل وأما من الله سبحانه وتعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق، فإرادة الله، الفعل، لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك، كما أنه لا كيف له)[٢] .

والشيء هنا مطلق فيشمل كينونة كل الموجودات، ولا يستثنى فرد من أفرادها أو حالة من حالاتها، فكلها تتحقق بمجرد تعلّق الإرادة (كن فيكون) بلا فاصل، ولا يحتاج الى زمان، إلا إذا شاء الله تعالى غير ذلك كما في خلق السماوات والأرض ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (ق : ٣٨).

أو أن طبيعة الأسباب تقتضيه فيكون الفاصل الزمني بلحاظ المخلوق كرزق المال والولد الذي يحتاج في نفسه الى مدة ليتحقق، وإلا فهو بلحاظ الخالق قد تمّ ونجز.

وهذه الحقيقة التي تضمّنتها الآية تهيمن على الموجودات كافة، روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لما صعد موسى عليه السلام إلى الطور فناجى ربَّه عز وجل، قال: ربِّ أرني خزائنك، فقال: يا موسى،

(١) نهج البلاغة: ج ١، ص ٣٥٠، الخطبة/١٨٦

(٢) أصول الكافي: ١/ ١١٠

إنما خزائني إذا أردت شيئاً أن أقول له: كن فيكون)[1].

وجاءت الآية في سياق الرد على من أنكر المعاد واستغرب بعث الموتى بعد أن تبلى أجسادهم وقال باستحالته، وهي شبهة قديمة حديثة تمسّ أصلاً من أصول الدين، فلا بد من إجابتها بوضوح لإزالة أي شك ودفع أي إشكال، مثل قولهم الذي حكته الآيات السابقة على الآية محل البحث ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس: ٧٨) وهو وهم ناشئ من ملاحظة قدرة المخلوق العاجز القاصر، فتجيبه الآية بسهولة ذلك على الخالق العظيم، وأنّ وجود الأشياء لا يحتاج إلى أزيد من تعلق إرادته تعالى بذلك، فهو ذو القدرة المطلقة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (فاطر:٤٤) لذا جاءت الآية التالية لتنزيهه من كل عجز وقصور وضعف ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس:٨٣).

إن الله تعالى يهب هذه الكرامة لبعض عباده بدرجات متفاوتة بحسب صدقهم في عبوديتهم لله تعالى وإخلاصهم في طاعته، كما ورد في وصف أهل الجنة ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ (يس:٥٧) أي أنهم بمجرد تعلق إرادتهم بشيء واشتهائهم له يجدونه حاضراً عندهم. وقال تعالى في وصي النبي سليمان (عليه السلام) ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

(١) التوحيد، للشيخ الصدوق: ١٣٣، ح ١٧، تفسير البرهان: ٨/ ١٢٠، ح ١١.

طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ (النمل: ٤٠) فإنه بمجرد إرادته حضور عرش بلقيس وجده حاضراً عنده.

وورد في الحديث القدسي قول الله عز وجل: (ما تقرَّب إليَّ عبدٌ بشيء أحبُّ إليَّ مما افترضت عليه، وإنه ليتقرَّب إليَّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته..)(1).

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أجدر الخلق بأن يتحلى بهذه المنحة الإلهية لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يسارع إلى فعل كل ما يريده الله تبارك وتعالى وإن لم يصدر به أمر وجوبي أو استحبابي، ويجتنب كل ما يكرهه الله تعالى وإن لم يَرِد فيه نهي على نحو التحريم أو الكراهة.

ونذكر أمثلة مما جرت إرادة الله تعالى به على وفق ما يريده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويرضاه:-

(منها) التوجه بالصلاة إلى الكعبة، بعد أن كان المسلمون يُصلّونَ إلى بيت المقدس فنزل قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٤).

(ومنها) أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يرجو أن يكون للمسلمين يومٌ يعظّمونَه كما أن لليهود يومَ السبت وللنصارى يومَ الأحد فأعطاه الله تعالى يومَ الجمعة سيد الأيام

(١) الكافي: ٢/ ٣٥٢، ح ٧ من باب (من آذى المسلمين واحتقرهم).

وأعظمها بركة.

(ومنها) ما روي أن امرأة من الأنصار وهبت نفسها للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بلا مهر، فاغتاظت اثنتان من أزواجه وأهانتا المرأة، فزجرهما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وشكر المرأة وأثنى على نصرة قومها الأنصار، وأجَّلَ قراره حتى يأتيه أمر الله تعالى، فنزل قوله تعالى ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأحزاب: ٥٠) (فقالت عائشة: ما أرى الله إلاّ يسارع في هواك؟ ـ أي أنه تعالى يجري الأمور على وفق إرادتك فيريد ما تريد ـ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنّكِ إن أطعت الله يسارع في هواك)[1] فبيَّن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) السر في الوصول إلى هذا المقام المحمود بأنها لو كانت مخلصة في طاعة الله تعالى لأعطاها الله ما تريد[2].

---

(١) مجمع البيان: ٩٣/٨ والملفت ان السيوطي رواها في الدر المنثور في عدة مواضع (٦٢٩/٦، ٦٣٤) من عدة مصادر كالبخاري واحمد ومسلم وابن جرير والحاكم وابن سعد وغيرهم ولم يذكر ذيل الحديث.

(٢) روى ابن حجر العسقلاني الشافعي المتوفي سنة ٨٥٢ ما هذا نصه: بسنده عن أنس قال مرض أبو طالب فعاده النبي صلى الله عليه وآله، فقال يا ابن أخي، أدعُ ربك الذي بعثك يعافيني فقال (صلى الله عليه وآله): اللهم اشف عمي: فقام أبو طالب كأنما نشط من عقال، فقال يا بن أخي إن ربك ليطيعك. قال: وأنت يا عماه لئن أطعت الله ليطيعنك). الإصابة: ٧/ ١١٣، والخصائص، لجلال الدين السيوطي الشافعي: ١/ ١٢٤، باب (دعائه صلى الله عليه وآله لأبي طالب بالشفاء).

أقول: لو صحّت الرواية فإنها منسجمة مع التقية التي كان يعمل بها مؤمن قريش وسيدها أبو طالب، وهي تتضمن إشارة إلى إيمان أبي طالب بأن الرب بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) وأنه له شفاعة عنده.

معنى ان الله تعالى يرضى لرضى فاطمة (عليها السلام)

وأعطيت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) هذه الكرامة الإلهية حينما قال فيها أبوها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحسب ما رواه الفريقان: (إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها)[1]، لا مجاملة ولا محاباة لقربها من أبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنما عن استحقاق وجدارة وفق ما ذكره النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في الرواية الآنفة فهي المطهرة المعصومة الصدّيقة المخلَصة ،وقد عرفنا الآن وجه قول أبيها فيها لأنها كانت تسارع إلى فعل ما يريده الله تعالى ورسوله قبل أمره وتجتنب ما يسخط الله قبل نهيه، وجعلت رضاها رهن رضاه تبارك وتعالى، وغضبها رهن غضبه عز وجلَّ ، فأجرى الله تعالى الأمور على وفق إرادتها .

وأذكر لكم مثالاً على مسارعة الصديقة الطاهرة الزهراء (عليها السلام) لرضا الله تعالى ورضا رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد روي في الكافي وأمالي الصدوق ومكارم الأخلاق عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد السفر سلّم على مَن أراد التسليم عليه من أهله ثم يكون آخر من يسلم عليه فاطمة عليها السلام فيكون وجهه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها. فسافر

---

(١) الأمالي للصدوق: ٤٦٨/١، بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ١٩، وهو مجمع عليه عند الشيعة، ورواه جمع كبير من علماء العامة كما في مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابوري ج ٣ ص ١٥٣ ــ ١٥٤، مجمع الزوائد للهيثمي: ج ٩ ص ٢٠٣: رواه الطبراني وإسناده حسن، ميزان الاعتدال للذهبي: ج ٢ ص ٧٢، ابن الأثير أيضا فى أسد الغابة: ج ٥ ص ٥٢٢

وابن حجر أيضا فى إصابته: ج ٨ / ص ١٥٩، تهذيب التهذيب: ج ١٢ / ص ٤٤١، ذخائر العقبى: ص ٣٩: خرجه أبو سعيد فى شرف النبوة وابن المثنى فى معجمه.

مرة وقد أصاب علي عليه السلام شيئاً من الغنيمة فدفعه إلى فاطمة فخرج فأخذت سوارين من فضة وعلّقت على بابها ستراً، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله دخل المسجد فتوجّه نحو بيت فاطمة كما كان يصنع، فقامت فَرِحةً إلى أبيها صبابة وشوقاً إليه، فنظر فإذا في يدها سواران من فضة وإذا على بابها ستر، فقعد رسول الله صلى الله عليه وآله حيث ينظر إليها، فبكت فاطمة وحزنت وقالت: ما صنع هذا بي قبلها، فدعت ابنيها فنزعت الستر من بابها وخلعت السوارين من يديها، ثم دفعت السوارين إلى أحدهما والستر إلى الآخر ثم قالت لهما: انطلقا إلى أبي فأقرئاه السلام، وقولا له: تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول: اجعل هذا في سبيل الله، فلما أتاه قال: فعلت فداها أبوها ثلاث مرات ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها كافراً شربة ماء ثم قام فدخل عليها)[1].

وحينما نزل قوله تعالى في أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦) سبق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى تسمية فاطمة بأنها (أم أبيها) لقطع الطريق أمام من تشمخ بأنفها من أزواج النبي وتفتخر عليها[2]، وأين الأول الذي هو مجرّد كناية عن حرمة زواج المؤمنين منهن من هذا الوسام الشريف الذي قلّده

---

(١) بحار الأنوار: ٤٣/ ٨٣-٨٤. وأمالي الصدوق: ١/ ٣٠٥، وفي البحار أنه عن الكافي والمكارم.

وفي بعضها (ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله)): رحم الله فاطمة ليكسونها الله بهذا الستر من كسوة الجنة، وليحلينها بهذين السوارين من حلية الجنة).

(٢) هذا واحد من عدة وجوه شرحنا فيها معنى كون فاطمة (عليها السلام) (أم أبيها)، راجعها في موسوعة خطاب المرحلة: ٧/ ٥٦.

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ابنته.

هذه هي فاطمة سلام الله عليها، وكيف لا تكون كذلك وهي من أهل البيت (عليهم السلام) الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) لأنهم ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣) من الميثاق حين قال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف: ١٧٢) فاستخلصهم الله تبارك وتعالى لنفسه وطهرهمّ من كل منافٍ لصدق العبودية ومحض الإخلاص، وأجرى إرادته على طبق إرادتهم، قال الإمام الحسين (عليه السلام) في خطبته في مكة لما عزم على الخروج إلى العراق (رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين)(١).

فهم (عليهم السلام) ممن وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٧) فهم (صلوات الله عليهم) إن أرادوا شيئاً فإنه يتحقق بأمر الله تعالى الذي شرحته الآية الكريمة بأنه ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، فلأن إرادتهم تبع لإرادة الله تعالى كانت إرادة الله مستجيبة لإرادتهم، ومما ورد من السلام على أهل بيت النبوة في الزيارة الجامعة الكبيرة (وَعِبادِهِ الْمُكْرَمينَ الَّذينَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأمْرِهِ يَعْمَلُونَ.. وأَشْهَدُ أَنَّكُمُ الأَئِمَّةُ الرّاشِدُونَ.. الْمُطيعُونَ للهِ، الْقَوّامُونَ بِأَمْرِهِ، الْعامِلُونَ بِإِرادَتِهِ).

---

(١) بحار الأنوار: ٣٦٧/٤٤ عن كتاب الملهوف: ص ٥٢، ص٥٣.

ولو أرادت السيدة الزهراء (عليها السلام) أن يهلك الله ظالميها لأعطاها الله تعالى ما تريد لكنها صبرت رحمة بالأمة وشفقة عليها وحرصاً على دوام نداء (أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).

وكان خصوم فاطمة (عليها السلام) يعلمون جيداً أنها إن لم ترضَ عنهم فإنهم في أسوأ عاقبة، لذلك حرص الأول والثاني على استرضائها، وطلبا الإذن بزيارتها فلم تأذن لهما فاستشفعا بأمير المؤمنين (عليه السلام) لتحصيل الإذن فعرض الإمام (عليه السلام) عليها ذلك فتركت القرار له (عليه السلام) قالت المصادر ((ودخلا وقرآها السلام فلم تُجب، وتقدّما فقعدا أمامها، فولّت وجهها عنهما إلى الحائط؛ قالت تخاطبه وهي تشرك عمر بن الخطاب: أرأيتكما إن حدّثتكما عن رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) حديثاً تعرفانه وتعملان به؟ أجابها وصاحبه: نعم. قالت: نشدتكما اللّه ألم تسمعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول: «رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني»؟ قالا: قد سمعناه من رسول اللّه. فرفعت وجهها وكفّيها إلى السماء وقالت: فإني أشهد اللّه وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لأشكونّكما إليه)) (١).

(١)الإمامة والسياسة لابن قتيبة:٢٠/١ ، الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء سلام الله عليها: ١٤/ ٢١٢.

القبس/٢٠٨

ص:٦٢

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾

موضوع القبس: عاقبة التسقيط والاستهزاء الذي يتعرض له الرساليون

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص:٦٢-٦٤)

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ينقل لنا حواراً يجري بين أهل النار زعماءاً واتباعاً يسألون فيه عن اشخاص كانوا يعدُّونهم في الدنيا من سقط الناس وأراذلهم وأنهم لا قيمة لهم وان النار والعذاب والشقاء خلق لهم وهو استحقاقهم، كما كان ينظر طواغيت قريش وأثريائها مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل وأبي سفيان وأمية بن خلف إلى ضعفاء المسلمين الأوائل كبلال الحبشي وخبّاب بن الأرت وعمار بن ياسر، ففي يوم القيامة حيث يُلقى هؤلاء الطواغيت واتباعهم في النار ينظرون في أهلها الأشقياء فلا يجدون أولئك الذين كانوا يترفعون عنهم ويسخرون منهم فيتساءلون بينهم: لماذا لا نجدهم معنا في النار؟ هل هم في الجنة وقد فازوا بالنعيم وإننا كنا مخطئين حينما كنا نسخر منهم ونستهزئ بهم ونحتقرهم ونستصغر شأنهم ولم نحمل أمرهم على الجدّ وننظر في دعاواهم بإنصاف وموضوعية؟ أم إنهم معنا في النار فعلاً كما كنا

نظن في الدنيا الا أن أبصارنا مالت عنهم فلم ترهم بسبب ظلمات النار وعذابها وشقائها ودخانها.

وكما كانوا في الدنيا أهل خصومة ولجاج وعناد واستكبار ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (الزخرف:٥٨) فإنهم يصحبون صفاتهم هذه إلى يوم القيامة، فيتخاصمون في النار حتى الاتباع مع قادتهم بعد أن كانوا يفدونهم بأرواحهم في الدنيا، والمستكبرين مع مستضعفيهم حيث يتبادلون الاتهامات والأوصاف البذيئة، قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾(سبأ:٣١ - ٣٢) ولو كانوا عقلاء وأهل حكمة لاستفادوا مما يقال فيهم من نقد وتقويم وتصحيح ولاعترفوا بأخطائهم، لا أن يرشقوا منتقديهم ببذيء الكلام والبهتان والافتراء.

وتتناول آيات أخر من سورة الصافات هذه الحالة لكن من زاوية أخرى في الجنة حيث يحصل نفس التساؤل عند أهلها، قال تعالى بعد أن وصف الحياة الطيبة السعيدة التي يتنعم بها المؤمنون ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي

لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (الصافات:٥٠-٥٧) ففي بعض جلسات الود والهناء والإقبال وهم ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:٤٧) يتحدث بعض المؤمنين إلى بعض بأنه كان لي زميل في الجامعة أو في العمل أو في المنطقة يسخر مني ويستهزئ بمعتقداتي ويقول لي هل انك تصدق فعلاً بأننا سنبعث بعد الموت وتلاشي أبداننا ونقوم للحساب يوم القيامة فيعاقب المسيء على أساءته ويكافأ المحسن على إحسانه؟ فكان يعد هذه العقائد وهماً وخرافات لا يصدقها العقل وتخلّفاً ورجعية.

وحينئذ يطلب هذا المؤمن المنعّم من رفقائه في الجنة أن يتطلعوا إلى النار لعلهم يجدون هذا الزميل فيها بعد أن افتقده بين أهل الجنة، وليطمئن قلبه إلى نتائج الأعمال في الدنيا إحساناً وإساءةً كما كان يؤمن ويعتقد، فلما نظروا في أهل النار وجدوا ذلك الزميل في وسطها كما كان في الدنيا وسط العصاة والفسقة والملحدين، وهنا يستعيد المؤمن ما كان يفعله هذا الزميل الشقي البائس من الاستهزاء والتسقيط والافتراء والضغط النفسي وقد يصل الى استعمال العنف والتهديد ليصدَّه عن دينه ويشكّكه في معتقداته، ويقسم المؤمن بالله تعالى أن هذا الزميل مارس كل ألوان الضغط عليه والكيد له وكاد أن ينجح في مساعيه لأن مقاومة الإنسان للإغراء أو التهديد محدودة وقد يضعف أمام بعض مراتبها، لكنه هنا يستذكر نعمة الله ولطفه وتأييده إذ ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات:٧) وتولى عصمته من الزلل والانحراف ولولا ذلك لكان من

المحضرين في عذاب جهنم كهذا الزميل ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات:١٢٧-١٢٨) فإنه وإن لم يفلح في هداية هذا الزميل من الضلال لسبب منه أو من الآخر أو لأمر خارج عنهما إلا أنه بفضل الله تعالى لم يتأثر به ولم يخضع لإغراءاته أو تهديداته بل بقي متمسكاً بدينه وأخلاقه الفاضلة.

ثم يصف هذه النتيجة السعيدة التي حصل عليها ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الصافات:٦٠) ويوصي بالثبات على هذا المنهج الرباني العظيم وتكريس الجهود والطاقات له لا لغيره من أمور الدنيا الفانية ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات:٦١).

إن المقصودين بهذا الحوار فئات عديدة إذ يمكن أن يجري بين المؤمنين وغيرهم وهو الظاهر من سياق الآيات الكريمة، أو بين طائفة وطائفة أخرى من المسلمين كالذي يتعرض له اتباع أهل البيت (عليهم السلام) من بعض الحسّاد والحاقدين وأهل المصالح الدنيوية الضيقة والمتطرفين والتكفيريين والنواصب ممن يدّعون الإسلام فيكفّرون الشيعة ويقتلونهم ويفترون عليهم ويصفونهم بأقذر الأوصاف.

ويمكن أن يجري هذا الحوار في بعض مراتبه بين أبناء الطائفة الواحدة حيث يتعرض بعضهم من البعض الآخر إلى شتى أنواع الافتراء والأوصاف القذرة الشنيعة لإقصائهم وعزلهم والتنفير منهم، ويمكن ان تجري الآيات الكريمة على الحكومات الجائرة الظالمة التي تصف الشعب الثائر عليهم

المطالب بحقوقه بأنهم غوغاء وفوضويون وعملاء للأجانب وجواسيس وطابور خامس ومفسدون وأشرار كما وصف صدام المقبور أبطال الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ من أبناء محافظات الوسط والجنوب عندما ثاروا على ظلمه وطغيانه وهكذا يمكن تطبيق المشهد على كثير من الحالات.

وقد تحتقر شخصاً لأنك ترى أنك تمتلك من الدين أو الثقافة أو الورع ما لا يمتلكه فتتكبر عليه وتستصغر شأنه، ولعلك تنكر نعمة ينعمها الله عليه وتستغرب من اختصاص الله له بها. وقد تستمر بفكرة قديمة عنه ويكون قد تاب عنها وانصلح وتغير، أو أنه كان وقتها يمر بانتكاسة، فتتمسك بها ويعفو الله عنها، ويتوب على عبده فيما تستمر أنت باحتقاره وكرهه.. وأنت تظن أنك تكرهه لسبب ديني وأن معاداتك له مبررة ولا بأس فيها، بينما هي تنخر بإيمانك وتظلم بها نفسك.

إن هؤلاء الذين كانوا يحتقرون المؤمنين ويظنونهم من الأشرار يحتمل أنهم من داخل العنوان الديني ويَزنون الشر والخير بميزان ديني، ولكنهم احتقروا فئة من المؤمنين مذهبياً أو سلوكياً، واحتفظوا بسخريتهم واحتقارهم لهم حتى وهم في النار، فلا يتصورون أن أولئك الذين سخروا منهم أخيار فيحتملون أنهم في النار أيضاً ولكن لم يروهم. وهذه مواقف خطيرة ينبغي على المؤمنين الانتباه لها، والحذر منها لا سيما أولئك الذين يظنون أنهم محسوبون على الله، ويتكبرون باسم الدين وينقمون بسوط الله على الناس، وقد رأينا خلال عمرنا وتجربتنا أنه كانت هناك فئة من المتدينين تكبروا على المجتمع الجاهل وفرحوا بما عندهم من التدين، ثم قيض الله للجاهلين من يعلمهم حتى صاروا

خيراً من أولئك في الثقافة والورع والعمل، وعادت قلوب أولئك قاسية وألسنتهم جارحة وتحول التكبر إلى حقد وكبرياء وجنون. وهناك حديث ينبغي أن يحمل المنتظرين للإمام المهدي (عليه السلام) والداعين لدولته على القلق والأرق ومحاسبة النفس والتدقيق في حقيقتها، وهو ما رواه النعماني في الغيبة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إذا خرج القائم عليه السلام خرج من هذا الأمر من كان يَرى (أو يُرى) أنه من أهله ودخل فيه شبه عبدة الشمس والقمر)[1].

وتطبق الروايات الشريفة هذا المشهد على اتباع أهل البيت (عليهم السلام) الصادقين وما يلاقونه من خصومهم، فقد روى الشيخ الكليني بسنده عن ميسر قال (دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) فَقَالَ كَيْفَ أَصْحَابُكَ فَقُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ لَنَحْنُ عِنْدَهُمْ أَشَرُّ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسِ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا قَالَ وَ كَانَ مُتَّكِئاً فَاسْتَوَى جَالِساً ثُمَّ قَالَ كَيْفَ قُلْتَ قُلْتُ وَ اللَّهِ لَنَحْنُ عِنْدَهُمْ أَشَرُّ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسِ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا فَقَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمُ اثْنَانِ لَا وَاللَّهِ وَ لَا وَاحِدٌ وَاللَّهِ إِنَّكُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ- ﴿وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ثُمَّ قَالَ طَلَبُوكُمْ وَاللَّهِ فِي النَّارِ فَمَا وَجَدُوا مِنْكُمْ أَحَداً)[2].

وروى الشيخ الطوسي في أماليه بإسناده قال (دَخَلَ سَمَاعَةُ بْنُ مِهْرَانَ عَلَى

---

(١) بحار الأنوار: ج ٥٢ / ص ٣٦٣/ ح ١٣٧

(٢) الكافي: ج ٨ / ص٧٨ / ح ٣٢

الصَّادِقِ (عليه السلام)، فَقَالَ لَهُ: «يَا سَمَاعَةُ مَنْ شَرُّ النَّاسِ؟» قَالَ: نَحْنُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ: فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ ثُمَّ اسْتَوَى جَالِساً، وَكَانَ مُتَّكِئاً، فَقَالَ: «يَا سَمَاعَةُ مَنْ شَرُّ النَّاسِ عِنْدَ النَّاسِ؟» فَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، نَحْنُ شَرُّ النَّاسِ عِنْدَ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ سَمَّوْنَا كُفَّاراً، وَرَافِضَةً. فَنَظَرَ إِلَيَّ، ثُمَّ قَالَ:«كَيْفَ بِكُمْ إِذَا سِيقَ بِكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَ سِيقَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ، فَيَقُولُونَ: مٰا لَنٰا لاٰ نَرىٰ رِجٰالاً كُنّٰا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرٰارِ. يَا سَمَاعَةَ بْنَ مِهْرَانَ، إِنَّ مَنْ أَسَاءَ مِنْكُمْ إِسَاءَةً مَشَيْنَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَقْدَامِنَا فَنَشْفَعُ فِيهِ فَنُشَفَّعُ، وَ اللَّهِ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ عَشْرَةُ رِجَالٍ، وَاللَّهِ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ خَمْسَةُ رِجَالٍ، وَ اللَّهِ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ ثَلاَثَةُ رِجَالٍ، وَ اللَّهِ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَتَنَافَسُوا فِي الدَّرَجَاتِ، وَ أَكْمِدُوا عَدُوَّكُمْ بِالْوَرَعِ، وَ اللَّهِ مَا عَنَى وَ لاَ أَرَادَ يْرَكُمْ، صِرْتُمْ عِنْدَ أَهْلِ هَذَا الْعَالَمِ شِرَارَ النَّاسِ، وَأَنْتُمْ وَ اللَّهِ فِي الْجَنَّةِ تُحْبَرُونَ، وَ فِي النَّارِ تُطْلَبُونَ»(1).

أيه الأحبة:

أنتم مقبلون على الدراسة الجامعية التي لها مميزات تختلف عمّا تعودتهم عليه في دراستكم السابقة، ومن تلك المميزات وجود تنوع فكري وايديولوجي وديني وطائفي واجتماعي وطبقي، وهذا التنوع فيه جانب إيجابي لأنه يقوّي الشخصية وينضجها ويثري الثقافة ويفجّر الطاقات، وبنفس الوقت يشكل لكم تحدياً وصراعاً يستلزم تحصيل الأدوات والصفات والقدرات التي تمكنكم من

(١) أمالي الطوسي: ٣٠١/١، البرهان: ١٩٩/٨ ح ٧

النجاح في هذا الاختبار.

فالطالب والطالبة الجامعيان المتدينان سيجدان من يسخر من التزامهما بالتعاليم الدينية ويصفهما بالتخلف والرجعية والأفكار البالية التي لم تعد مناسبة للعصر ولا توجد حاجة إليها ونحو ذلك، فيقال للفتاة المحجبة ان الحجاب تضييق للحرية وحرمان لها من التمتع بالجمال والجاذبية واعجاب الآخرين، فعليها أن تكون شجاعة وذات ارادة قوية وتمتلك الإجابات الداحضة لشبهات المعارضين، كأن تقول أن التبرج وإظهار المفاتن امام الغرباء مرض فتّاك يؤدي إلى تخريب المجتمع وفساده، وان المتبرجة لا تقلّ خطراً عن الفايروسات المعدية التي تنقل الأمراض الفتاكة فيجب الوقاية منها وتجنّبها، وان الحجاب يحمي المجتمع من هذا الخطر المدمّر، ولإثبات ذلك عملوا في الغرب استبياناً لحالات التحرش الجنسي فوجدوها تزداد كلما كانت المرأة أكثر إغراءاً وإظهاراً للمفاتن وينعدم التحرش عندما تكون المرأة محجّبة فارتداء الحجاب وقاية للنفس والمجتمع.

أو تقول: إن حجابي هو التزام بالقانون الذي أؤمن به وهو الذي وضعه خالق الإنسان والعارف بتركيبته وما يصلحه وما يفسده وما يكفل سعادته في الدنيا والآخرة، فهل في الالتزام بالقوانين مصادرة للحريات أم هو تضحية ببعض الأهواء والمشتهيات الشخصية من أجل حفظ النظام الاجتماعي العام؟ فالذي يتوقف عند الإشارة المرورية الحمراء وهو يودّ أن ينطلق بسيارته لا يقال له بأنك مسلوب الحرية، وكذا المرأة التي تمرّ بسوق الصاغة وترى المجوهرات والمصوغات الذهبية التي تشتهي أن تمد يدها وتأخذها لتتزين بها لكنها تكبح

جماح أهوائها وتتوقف لأن القانون يحرّم الاعتداء على ممتلكات الآخرين وغير ذلك، فهذه كلها ليست مصادرة للحريات بل تنظيم لها وتهذيبها بقوانين تحفظ النظام الاجتماعي العام ، وهكذا القوانين الإلهية فإنها شُرِعَّت لحفظ كرامة الإنسان والمجتمع وسعادتهما وتحقيق العدالة الاجتماعية، مع البون الشاسع بين القوانين الوضعية التي يشرعها بشر ناقصون قاصرون خطاؤون تتحكم فيهم الأهواء والمصالح الضيقة وبين القوانين الإلهية التي أودعها في كتاب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت:٤٢).

وقد كشفت آيات صورة ص والصافات المتقدمة ان المتدينين سيقطفون ثمرة ثباتهم على الدين واستقامتهم وعدم انسياقهم وراء الشهوات والاهواء وخضوعهم لضغوط المنافقين والطغاة والمتمردين الذين سيجدون ضلال فعلهم حينما كانوا يسخرون من المؤمنين وينتقصونهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:١٢٨).

ولكي نزداد ثباتاً وتمسكاً بالدين علينا ان نلتفت إلى أن هؤلاء المستهزئين ليسوا مقتنعين بما يقولون فينا ويعلمون أنه باطل وافتراء مثلاً قريش كانت تصف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه الصادق الأمين وتضع عنده الأشياء الثمينة أمانات وما وجدت له كذبة قط، ولكن ما إن دعاهم إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام التي منها مصالحهم الدنيوية حتى وصفوه بأنه ساحر مرتد مثير للفتنة كذاب إلى آخره، وكذلك الفسقة والعصاة فإنهم يعلمون أن ما عليه المتدينون صواب وسمو وكمال وفضيلة حتى أن المجتمع يسمي المتدين (خيِّر) وهي صيغة مبالغة من الخير أي ان المؤمن كله خير ولا يتوقع منه الا الخير، إذن ما

الذي نقموا من المؤمنين حتى عابوهم وسخروا منهم واستهزؤا بهم، يشرح لنا الامام الصادق (عليه السلام) السبب في ما رواه يعقوب بن شعيب ـ وهو حفيد الشهيد ميثم التمار رضوان الله تعالى عليه ـ عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ عَلَيْكُمْ، قَالَ قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ كُلٌّ) أي كل الناس شديدون علينا ومبغضون لنا (قَالَ: أَتَدْرِي مِمَّ ذَاكَ يَا يَعْقُوبُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا أَدْرِي جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَالَ (عليه السلام): إِنَّ إِبْلِيسَ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ وَأَمَرَهُمْ فَأَطَاعُوهُ وَدَعَاكُمْ فَلَمْ تُجِيبُوهُ وَأَمَرَكُمْ فَلَمْ تُطِيعُوهُ فَأَغْرَى بِكُمُ النَّاسَ)[1].

إذن إنه الحسد وعقدة الحقارة والصغار امام المؤمنين وفقدانهم الإرادة والشجاعة للإرتقاء والتكامل حتى يكونوا مثلهم فيتخذون كل وسيلة قذرة للإيقاع بالمؤمنين وإفسادهم حتى ينزلوهم الى الحضيض الذي هم فيه.

فيكون ردّنا عليهم بمزيد من الثبات والاستقامة والبصيرة حتى يحصل عندهم اليأس من أن يسلبونا هذه الجوهرة الثمينة التي حبانا الله تعالى بها أعني الايمان بالله تعالى كما ورد في الرواية المتقدمة (وأكمدوا عدوكم بالورع) وأن ننظر إليهم كمرضى مصابين بالأمراض المعنوية فيستحقون منا الشفقة والنصح والرعاية والتوجيه وتصحيح الأفكار ونحن أهلها لأننا على الحق ونمتلك الأدلة القوية ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (الأنعام:١٤٩).

وعلينا أن نكون واثقين بأنفسنا شجعاناً ولا تهزمنا الاشاعات والافتراءات والتسقيط الإعلامي ولا نكون كبعض الذي يرفعون عناوين إسلامية لكنهم ينهزمون في هذه الحالات خوفاً على دنياهم البائسة.

(١) الكافي: ج٨ / ص ١٤١ (الروضة)، ح ١٠٥

القبس/٢٠٩

الحشر: ٢

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ﴾

موضوع القبس: أسباب انهيار الحضارات والدول

سورة الحشر جليلة القدر ووردت بعض الروايات في فضلها والثواب العظيم في تلاوتها، كالمروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (من قرأ سورة الحشر لم يبق جنة ولا نار ولا عرش ولا كرسي ولا الحجب والسماوات السبع ولا الأرضون السبع والهواء والريح والطير والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صلوا عليه واستغفروا له، وإن مات في يومه أو في ليلته مات شهيداً)[1]، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (مَن قرأ هذه السورة كان من حزب الله المفلحين، ولم يبق جنة ولا نار ولا عرش ولا كرسي.. الحديث)[2].

وهي تحكي تفاصيل غزوة بني النَضير وهم إحدى قبائل اليهود الثلاث الذين سكنوا حول المدينة ترقباً للنبي الموعود الذي تكون دولته في أرض يثرب فأرادوها لهم. وقد وقعت في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة أي بعد معركة أُحُد بستة أشهر، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد عقد معاهدة سلام وحسن جوار مع اليهود عند نزوله المدينة، وكفل لهم حقوقهم لكن بني النَضير نقضوا العهد

---

(١)) وسائل الشيعة: ٦/ ٢٥٧، أبواب قراءة القرآن ولو في غير الصلاة، باب ٥١، ح ٣١، ثواب الأعمال: ١١٨.

(٢)) البرهان في تفسير القرآن، للسيد هاشم البحراني: ٥/ ٣٣١، تفسير سورة الحشر.

وتحالف وفدٌ منهم برئاسة زعيمهم كعب بن الأشرف مع قريش لمناصرتهم عند هجومهم على المدينة، فأخبر الله تعالى نبيّه بهذا الحلف، ثم إنهم تآمروا على قتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قصدهم مع جمع من أصحابه طالباً المساعدة في دفع دية قتيلين من بني عامر وهم حلفاء بني النَضير كان أحد المسلمين قد قتلهما اشتباهاً، فصعد أحدهم إلى سطح دار كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يستند إلى جدارها ومعه حجر كبير ليقتل به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأعلمه الله تعالى بعزم القوم فعاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة فوراً وأرسل وفداً إليهم يأمرهم بالجلاء عن المدينة فلم يكترثوا وأجابوه بالتحدي والحرب، فأمر أصحابه بالاستعداد لتأديب بني النضير الذين ظنوا أن لا أحد يقدر على غلبتهم وإخراجهم من أرضهم لقوتهم المادية والعددية فاغتروا بها وغفلوا عن قدرة الله تعالى على فعل ما يريد سبحانه بجنود لا يرونهم وهذا هو تفكير القوى المادية وهو قائم إلى اليوم، فتحصّنوا بقلاعهم ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ (الحشر: ٢) فلم يتوقع أحد منهم ولا من المسلمين هزيمتهم بهذه السهولة، لكنَّ الله تعالى شاء ذلك وفعل وأجرى إرادته بأيديهم جلّت قدرته، وأغراهم انهزام المسلمين في معركة أحد فظنوا أنهم قادرون على المواجهة، وخدعهم منافقو المدينة بأننا سننصركم ونقاتل معكم إن حاربتم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لكنهم خذلوهم ولم يفوا لهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (الحشر: ١١ -١٢)) وقاموا بعدة محاولات لإحداث خرق في جيش المسلمين لكنهم لم يفلحوا وأفشل أمير المؤمنين (عليه السلام) وعشرة من الأصحاب هذه المحاولات البائسة وقتلَ (عليه السلام) رأسَ الجماعة المهاجمة[1]، وأستمر الحصار حتى دخلهم اليأس مضافاً إلى وهنهم بقتل رئيسهم كعب بن الأشرف[2] قبل ذلك حيث اغتاله أحدُ المسلمين بأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنه كان يحرّض قريشاً على الثأر لقتلى بدر ويتعرض للنساء المسلمات ويتغزل بهن ويؤذيهن، وقد تملّكهم الرعب فوافقوا على ما عرضه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهم من الجلاء عن أرضهم وديارهم وممتلكاتهم وتركها للمسلمين مقابل سلامتهم ولهم ما حملت الإبل عدا السلاح (فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف[3] بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به)[4].

أقول: وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ (الحشر: ٢) لأخذ ما يمكن حمله ولتشكّل الأنقاض عائقاً أمام تقدم المسلمين كما تفعل الجيوش المنسحبة عادةً، ولكي لا تقع صالحةً سليمةً بأيدي

---

(١)) راجع السيرة الحلبية: ج ٢-ص٥٦٢

(٢)) راجع تفاصيل الحادثة في سيرة ابن هشام:١٠٩/٣.

(٣)) النجاف: عتبة الباب العليا.

(٤)) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٩.

المسلمين فيستفيدوا منها، ﴿وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكان المسلمون -من الخارج- يهدمون ما يعيق حركتهم من الحصون وهم يخربونها من الداخل. فذهب بعضهم إلى خيبر وآخرون إلى الشام وقيل إلى الحيرة[1] أيضاً. وهو الجلاء والحشر الذي ذكرته السورة وسميت به ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ (الحشر: ٢).

ولأن النخيل كانت تشكل مانعاً طبيعياً يمنع تقدم المسلمين والاشتباك المباشر مع العدو ويعطي أملاً للعدو بالأمن والسلامة مما يطيل أمد الحرب، فقد أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقطع بعض النخيل التي لا يقتاتون منها وحرقها، وأستغل اليهود هذا الفعل لإثارة الشبهة والشك في فعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و قيادته المباركة، فنزهه الله تعالى عن سوء الفعل، وقال سبحانه مشيراً إلى هذه الحركة العسكرية بقوله سبحانه ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحشر: ٥) فهذا الفعل بأمر الله تعالى ولم يكن فساداً في الأرض ولا انتقاماً ولا عبثاً.

ثم أمرت الآية الكريمة بأخذ العبرة والموعظة من هذه الحوادث ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ﴾ حتى لا يكرروا الخطأ، لكن بني النضير لم يعتبروا بالقبيلة اليهودية التي سبقتهم إلى التمرد ونقض العهد، وهم بنو قينقاع قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١)) مجمع البيان: ٩/ ٢٢٩.

أَلِيمٌ﴾ (الحشر: ١٥) حيث غزاهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد معركة بدر وأوقع بهم.

إن عنوان البيت في الآية الكريمة يمكن توسعته إلى المأوى المعنوي والاعتباري الذي يلجأ إليه الأفراد ويجتمعون فيه ويستمدون منه هويتهم، ويجدون فيه ما يحتاجون من أسباب الأمن والاستقرار والرفاه والسعادة، كالدولة والأمة والحضارة، وحينئذٍ يكون معنى تخريبهم لبيوتهم هو عدم المحافظة على أوضاعهم الاقتصادية القوية واستقرارهم الأمني ونفوذهم الاجتماعي بتوجههم إلى الغدر ونقض العهد مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والتآمر على قتله.

وبناءً على هذا التوسع في المعنى نستطيع القول: إن هذا الجزء من الآية الكريمة يؤسس نظرية اجتماعية سياسية في فهم سرّ انهيار الحضارات والدول والمجتمعات بأنها ترجع إلى عاملين:

١-خارجي: وهم الأعداء المتربصون الذين ينتظرون الفرصة المؤاتية للانقضاض عليهم وإحكام السيطرة عليهم.

٢-داخلي: لفقدانهم الروح المعنوية وتعويلهم على القوى المادية من سلاح ومال وكثرة عددية وهي وحدها لا تصنع النصر. وهذا العامل الداخلي هو الأقوى في التأثير، وقد لا يحتاج العدو الخارجي إلى أكثر من إحداث هذه الهزيمة الداخلية. وهذا ما حصل لبني النضير فقد هُزموا من داخلهم من دون قتال وسلّموا أراضيهم وأموالهم وممتلكاتهم مقابل النجاة بأنفسهم وهي نتيجة طبيعية لمن لا يمتلك مبادئ سامية يقاتل من أجلها.

وهذه النظرية جديرةٌ بالتأمل والاعتبار كما أمرت به الآية الكريمة،

والاستفادة منها في صراع الحضارات، وقد ذكرت السورة جملة من هذه العوامل الداخلية التي تنخر كيان الأمة وتمزّقها وتضعفها وحذرّت منها وعلى رأسها:

١-فقدان التقوى والوازع الديني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ*وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٨-١٩).

٢-عدم طاعة القيادة الحقة ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧).

٣-الاستئثار بالمال والتمايز الطبقي وغياب العدالة الاجتماعية ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر: ٧).

٤-الخلافات الداخلية بسبب التعصب والعنصرية والتحزب مما يؤدي الى صراعات تمزق الأمة لذا شدَّد على التماسك الاجتماعي ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

ومن الأمثلة التأريخية التي توضح هذه النظرية: هزيمة المسلمين في الأندلس بعد أن حكموها أكثر من ثمانمائة عام ولم تقدر الأمم الأوروبية على هزيمتهم، لكن ملوكهم لما انهمكوا في ملذاتهم ولهوهم وشهواتهم ولم يقيموا العدالة الاجتماعية وبدّدوا ثروات البلاد، وصمّوا اذانهم عن سماع الحق، وغفلوا

عن أمور الشعب والدولة وأصبحت أمورها تدار من قبل الخدم و الجواري وبعضهن من الجاسوسات الأوربيات وانشغل الأمراء بصراعاتهم الداخلية التي مزقتهم إلى دويلات وإمارات واستعان بعضهم بالممالك الأوربية على إخوانهم المسلمين، وبفقدانهم لكل القيم المعنوية ومقومات الصمود تمكنت جيوش الأعداء من هزيمتهم فاستسلموا وسلموا البلاد لهم ولحقهم خزي الدنيا وعذاب الآخرة بتضييعهم هذا الجزء المهم من بلاد المسلمين.

ومن التطبيقات المعاصرة لهذه النظرية الإتحاد السوفيتي الذي كان يمتلك قدرات هائلة مكّنته من الوقوف مقابل حلف شمال الأطلسي طيلة عقود الحرب الباردة، لكن عوامل الضعف نخرت كيانه من الداخل خصوصاً بعد احتلاله أفغانستان عام ١٩٧٩ ودخوله في حرب مفتوحة مع الشعب الأفغاني المسلم، فانهار من الداخل بدون قتال وانحلّ الإتحاد عام ١٩٩١ وتشظّى إلى دول عديدة تشهد بعضها صراعات فيما بينها.

والحضارة الغربية سائرة اليوم بهذا الاتجاه خصوصاً بعد اتخاذ أكثر حكوماتهم قراراً بإباحة زواج المثليين وتغيير الجنس وهو عامل تخريب قوي لمقومات الأمة وهي الأسرة، كما أن التخلّي عن المبادئ الإنسانية السامية والتجرد من المعنويات ومن الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، والخواء الفكري والأيديولوجي الذي يعيشونه، وإشاعة ثقافة اللهو والمجون والعبث واللهاث وراء الشهوات وهوس التفاهات يسلب منهم القدرة على استمرار الحضارة، و يجعلهم مجتمعات كسولة مخدَّرة غير منتجة، لذا تجدهم يستعينون بالمهاجرين من البلاد الأخرى لتسيير حياتهم، وهذه كلها أمور تنسف أساس الحضارة،

وسيأتي اليوم الذي يزيح هؤلاء المهاجرون سكان تلك البلاد ويحلّون محلّهم ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٧).

فعلينا أن نستيقظ ونحذّر من تسرّب هذه العناصر المدمّرة إلى مجتمعاتنا الإسلامية، بل علينا أن ننقل إليهم ما عندنا من منهج ربّاني يصلح البشرية ويسعدها لننقذهم مما هم فيه من الضياع.

القبس/٢١٠

الصف:١٤

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾

دعوة الى نصرة دين الله تعالى وأوليائه العظام

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف:١٤).

دعوة من الله تبارك وتعالى إلى جميع المؤمنين أن ينصروا الله تعالى وذلك بأن يكونوا من أنصار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في نشر الإسلام والدفاع عنه، وهذه الدعوة تشريف للإنسان وسبب لرفعته وافتخاره بأن خالق السماوات والأرض ومن بيده ملكوتهما يدعوه إلى نصرته ليحفّزهم على ذلك، فأن ربط النصرة بالله تعالى يعطيها أكبر زخم، كما أنه يحقق شرط تحصيل الأجر بأن تكون النية خالصة لله تعالى، وليس طمعاً بما عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ويذكّرهم الله تعالى بمثل من الرسل أُولي العزم ليتأسّوا به وهو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه حينما دعا الحواريين وهم خاصّة مريديه الملازمين له المنقطعين إليه أن ينصروه في دعوته إلى الله تبارك وتعالى وأن يعينوه على أداء رسالته ـ فالنصر هو العون ـ ويعاضدوه في هداية الناس إلى السبيل الموصل إلى الله تبارك وتعالى، فاستجاب له الحواريون وأعلنوا

استعدادهم لبذل النصرة والعون لله تعالى من خلال نصرة رسوله ودينه، إذ لابدَّ لكل صاحب مشروع أن يكون له أنصار ومؤيدون ليعينوه على إقامة المنهج الإلهي في الأرض.

فلماذا يدعو (عليه السلام) الحواريين إلى نصرته وقد كانوا معه (عليه السلام) ومؤمنين به ويتبعونه ويستفيدون منه، وورد فيهم عن الامام الرضا (عليه السلام) قوله (وأما عندنا فسميّ الحواريون حواريين لأنهم كانوا مخلصين في أنفسهم ومخلِّصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكر)[1]؟ وإنما دعاهم إلى نصرته لأنه (عليه السلام) أراد منهم تأكيد هذه النصرة والثبات عليها لمّا رأى علامات الخذلان والتكذيب من قومه بني إسرائيل رغم الآيات المتواترة والحجج البيّنة، قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران:٥٢-٥٣) فاستجاب له الحواريون وأشهدوه على تسليمهم المطلق واستعدادهم لبذل الغالي والنفيس في سبيل الحق وكان ذلك بلطف الله تعالى وتأييده لهم ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة:١١١).

وقد أخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أصحابه مثل هذا التعهّد بالنصرة والثبات عليها أكثر من مرة ففي بيعة العقبة طالب أهل يثرب أن ينتخبوا اثني عشر رجلاً

---

(١) علل الشرائع: ١/٨٠ باب ٧٢، تفسير البرهان: ٢/٢٢٢، ح١

ليكونوا نقباء عليهم[١]، وكذا في بيعة الشجرة، لإدامة العمل الرسالي وتنظيمه، وتمكين النخبة من قيادة الأمة وإدارة جميع شؤونها، وعدم إحداث فراغ في حياتها، فإذا تحقق ذلك فإن الأمة ستلتف حولهم لما تراه من الخير والصلاح والسعادة، وتنفرز الجماعة المؤمنة عن الفاسدة والمنافقة في معتقداتها وأفكارها وأخلاقها وسلوكها، ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ فاذا تحقق هذا الوضوح في الهوية والانتماء: أتى نصر الله والفتح ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف:١٤) ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان:٣١).

فيدعو الله تعالى المؤمنين بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأتباع رسالته في جميع الأزمنة والعصور إلى تأكيد مثل هذه النصرة والاستمرار عليها والتواصي بها، ويستنهض هممهم للعمل في سبيل الله لأن الخطاب عام ولا يختص بأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد روى الطبرسي في الاحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث (ولم يُخْلِ أرضَه من عالِم بما يحتاج الخليقة إليه ومتعلم على سبيل نجاة، أولئك هم الأقلّون عدداً، وقد بَيّن الله ذلك في أمم الأنبياء، وجعلهم مثلاً لمن تأخر عنه مثل قوله في حواريي عيسى حيث قال لسائر بني إسرائيل (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) يعني مسلّمون لأهل الفضل فضلهم ولا يستكبرون عن أمر ربهّم فما

---

(١) روى السيوطي في (الدر المنثور: ٢١٤/٦) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لأهل بيعة العقبة (أخرجوا إليَّ اثني عشر رجلاً منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم).

أجابه الا الحواريون)[1].

وتصرح الآية الكريمة بأن النصرة المطلوبة مشروطة بأن تكون لله تبارك وتعالى وفي سبيل الله وإعلاء كلمة الله تعالى وإعزاز دينه فلا قيمة لأي نصرة على أساس التعصب للعشيرة أو الحزب أو شخص معين أو أي عنوان آخر.

إن الله تعالى لم يطلب نصرة عباده لعجز أو ضعف أو نقص في القدرة والقوة وهو تعالى وصف نفسه بكل قدرة وقوة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٤٨) وقال تعالى ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:١٦٥) وقال تعالى ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران:١٢٦)، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:١٠) وقال تعالى ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ (آل عمران:١٦٠).

وأثبت سبحانه عجز كل ما سواه من القوى وإنْ استعلت واستكبرت وتجبّرت قال تعالى ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف:١٩٢) وقال تعالى ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء:١٧٣) وقال تعالى ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء:١٣٩).

وكذلك فأنه تبارك وتعالى لم يستقرضنا من فقر أو نقص أو عجز بقوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

---

(١) الاحتجاج: ٣٦٨/١

(الحديد:١١).

وإنما كان طلب النصرة منه تعالى ليوفر لنا فرصاً عظيمة للطاعة والتكامل حتى نسمو ونرتقي وننال الدرجات الرفيعة، وفي ذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام): فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلّ وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1].

والسؤال هنا: كيف لمخلوق ضعيف عاجز مثلنا يطلب منه أن ينصر الله تعالى؟ وفي الإجابة نقول إن نصرة الله تعالى تتجلى في ميادين عديدة ولها اشكال متنوعة:

أولها: النفس وهي الساحة الأولى والأهم لنصرة الله تعالى قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (المائدة:١٠٥) وحكي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (ميدانكم الأول أنفسكم فحاسبوها قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإن انتصرتم عليها كنتم على غيرها أقدر) وهذا المعنى مكرَّر كثيراً في كلمات المعصومين (عليهم السلام) حتى أصبح متواتراً

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣

كقول علي (عليه السلام) (سياسة النفس أفضل سياسة)[1].

وتتحقق هذه النصرة بتهذيب النفس الأمارة بالسوء وكبح جماح شهواتها والسيطرة على غرائزها وتنقيتها من أغلال الأنانية والحقد والتعصب والحسد وحب الدنيا وسائر الرذائل، وتزيينها بالفضائل والعلوم النافعة والتفقه في الدين والعمل به، وقد أطلق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على هذه الحركة المباركة (الجهاد الأكبر)[2] وفي دعاء الصباح لأمير المؤمنين (عليه السلام) (وَاِنْ خَذَلَني نَصْرُكَ عِنْدَ مُحارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطانِ فَقَدْ وَكَلَني خِذْلانُكَ اِلى حَيْثُ النَّصَبُ وَالْحِرْمانُ)[3].

ثانياً: الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وتحبيبه إلى الناس بذكرِ عظيمِ رحمته وكرمه وإحسانه وجميل صنعه وسمو صفاته، ودحض الإلحاد والشرك بالحجج والبينات، وقد أتاح الله تعالى لنا اليوم أعظم الوسائل للدعوة والتبليغ والنشر من خلال التقنيات المعاصرة فنستطيع أن نوصل صوت الإيمان إلى ملايين البشر من خلال المنصات الإلكترونية الفاعلة والجاذبة والمؤثرة.

ثالثاً: نصرة حجج الله تعالى على خلقه وهم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وآله المعصومون (عليهم السلام) وتعظيمهم ومودتهم ونشر سيرتهم العطرة والاستفادة منها والدفاع عن حقهم وإظهار مظلوميتهم.

رابعاً: الالتفاف حول العلماء العاملين المخلصين لربهم ودينهم وأمتهم فإنهم ورثة الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) وحملة رسالتهم

---

(١) غرر الحكم: ٥٥٨٩

(٢) وسائل الشيعة: ١٦١/١٥ أبواب جهاد النفس، باب ١ ح ١

(٣) مفاتيح الجنان: ٩٦ دعاء الصباح

المباركة.

خامساً: نصرة دين الله تعالى بنشره وتعريف الناس به وتحبيبه إلى الناس وتثبيت قلوب المؤمنين ورد الشبهات ووأد الفتن والعمل على هداية الناس وإرشادهم

إلى الحق وتعليمهم الأحكام الشرعية والأخلاق الفاضلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أداء هذه الفريضة الإلهية أعظم نصرة لله تعالى، روي عن الامام الباقر (عليه السلام) قوله (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله، فمن نصرهما أعزّه الله ومن خذلهما خذله الله)[1].

سادساً: السعي لتحقيق العدالة الاجتماعية وكرامة الإنسان وتحريره من أغلال الظلم والانحراف والمعاصي والعبودية للطواغيت والمستكبرين ونصرة المستضعفين والمحرومين التوّاقين للكمال والحرية، قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ فالغرض من بعث الأنبياء والرسل وإنزال الكتب والشرائع إقامة العدالة الاجتماعية وتحرير الإنسان ثم قال تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:٢٥) وقد تعني (بِالْغَيْبِ) في زمان عدم حضور المعصوم (عليه السلام) لوفاة أو غَيبَة كزماننا الحاضر.

سابعاً: إقامة شعائر الله تعالى والحث عليها والمساهمة فيها بما يتيسر، وإعمار المساجد وتفعيل دور المسجد والقرآن في حياة الأمة وفق البرامج التي

(١) وسائل الشيعة: ١٢٤/١٦ أبواب الأمر والنهي، باب: ح ٢٠

ذكرناها في خطابات سابقة.

ثامناً: الانضمام إلى الأنشطة الاجتماعية المثمرة كالأعمال الخيرية والخدمية والتنموية والتوعوية والعلمية والثقافية ورعاية المواهب والكفاءات وإيجاد فرص العمل وقضاء حوائج الناس وتزويج المتعففين فهذه كلها من الدين وقد قال تعالى ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ (الأنفال:٧٢).

ويحذّر الله تبارك وتعالى من التقاعس عن هذه النصرة ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٣) وقد ضمّنها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديثه عن مخاطر ترك سنة الزواج[1].

القيام الفاطمي نصرة لله تعالى:

أيها السيدات والسادة الموالون للنبي وآله الكرام (صلوات الله عليهم أجمعين):- لقد خرجت السيدة الزهراء (عليها السلام) من دارها وهي العقيلة الخفرة التي كانت تكره الخروج من منزلها وقد قالت ذلك لأمير المؤمنين (عليه السلام) (خرجْتُ كاظمةً وعُدتُ راغمة)[2]، لكنها خرجت تلبية لهذا النداء الإلهي العظيم، لتنصر الله تعالى ورسوله ووليّه الأعظم، ولتعيد الحق إلى نصابه، وتصون

---

(١) في الكافي والتهذيب عدة روايات معتبرة عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال (اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجّوه، الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) (وسائل الشيعة: ٧٦/٢٠ أبواب مقدمات النكاح، باب ٢٨).

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ١٣٧/١

الدين من الانحراف والتشويه، وتحمي الأمة من الفساد والضلال وتستنهضهم وتستثير هممهم للدفاع عن الحق، فتخاطب الأنصار بقولها (إيها بني قيلة، وأنتم ذوو العدد والعدّة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجُنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت)[1].

فما كان عذرهم إلا أن قالوا (يا سيدة النساء، لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر قبل أن يبرم العهد ويحكم العقد، لما عدلنا عنه إلى غيره) فقالت (عليها السلام) (إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم)[2].

وببركة ذلك القيام الفاطمي المخلص لله تبارك وتعالى تعززت مسيرة نصرة الدين وإقامة أحكامه ورفض الظلم والفساد والانحراف، وسار على خطاها المؤمنون الصادقون، فلا تقصروا في الالتحاق بهذا الركب المبارك وعدم إدخار أي جهد عن نصرة الدين وأهله وهنا يحثّنا أمير المؤمنين (عليه السلام) على بذل كل الجهود في هذه المجالات المتنوعة لنصرة الله تعالى قال (عليه السلام) (أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ)[3].

وهذه هي الدعوة التي نعلن تلبيتها عند زيارة الامام الحسين (عليه السلام)

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١٣٣/١

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ١٤٠/١

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣

فنقول له (لبيّك داعي الله إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري)[١].

وقد كتب الله تعالى على نفسه ان ينصر من نصره ويثبّت قدمه على الصراط المستقيم قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧) وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٣) وقال تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:٤٧) وقال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١) أي في الدنيا والآخرة بالتمكين وقوة الحجة وظهور أمر الدين.

وقال تعالى ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠) وقال تعالى ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ (آل عمران:١٥٠).

نعم قد يتأخر نصر الله تعالى لحكمة يعلمها ولا نعلمها، أو لتمحيص الناس وتمييز الصادق من المدعي والمخلص من المنافق ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (الحديد:٢٥)، وقد يمرّ المؤمنون بصعاب ومكاره وشدائد تزلزل نفوسهم، إلا أنها تقوي إيمانهم وتنقّي إخلاصهم، وأنهم في

(١) مفاتيح الجنان: ٤٧٣ الزيارة المخصوصة في أول رجب والنصف منه ومن شعبان.

النهاية هم المنتصرون ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤) وقال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يوسف:١١٠) وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام:٣٤).

واعلموا أن من يتقاعس ويتخاذل ويبخل فإنه لا يضر إلا نفسه وإن الله غني عن العالمين وسيأتي بقوم آخرين يقومون بهذا الواجب ويفوزون بثوابه العظيم ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ (التوبة:٤٠) وقال تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨).

أيها الأحبة:

إن جهودكم وتضحياتكم في نصرة الدين وتعظيم هذه الشعائر الإلهية بعين الله تعالى وأوليائه العظام وهي مدّخرة لكم عنده تبارك وتعالى، وأنقلُ لكم هذه البشارة على لسان الإمام الصادق (عليه السلام) لكل الموالين العاملين المخلصين حيث فضّلهم الإمام (عليه السلام) على حواري عيسى (عليه السلام)، فقد روى الشيخ الكليني (قدس سره) بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إِنَّ حَوَارِيَّ عِيسَى (عليه السلام) كَانُوا شِيعَتَهُ، وَ إِنَّ شِيعَتَنَا حَوَارِيُّونَا، وَ مَا كَانَ حَوَارِيُّ عِيسَى بِأَطْوَعَ لَهُ مِنْ حَوَارِيِّنَا لَنَا، وَ إِنَّمَا قَالَ عِيسَى (عليه السلام) لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ

الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ، فَلَا وَ اللَّهِ مَا نَصَرُوهُ مِنَ الْيَهُودِ وَ لَا قَاتَلُوهُمْ دُونَهُ، وَ شِيعَتُنَا وَ اللَّهِ لَمْ يَزَالُوا مُنْذُ قَبَضَ اللَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ رَسُولَهُ (صلى الله عليه وآله وسلم) يَنْصُرُونَّا وَ يُقَاتِلُونَ دُونَنَا وَ يُحْرَقُونَ وَ يُعَذَّبُونَ وَ يُشَرَّدُونَ فِي الْبُلْدَانِ جَزَاهُمُ اللَّهُ عَنَّا خَيْراً وَ قَدْ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) وَ اللَّهِ لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ مُحِبِّينَا بِالسَّيْفِ مَا أَبْغَضُونَا وَ وَ اللَّهِ لَوْ أَدْنَيْتُ إِلَى مُبْغِضِينَا وَ حَثَوْتُ لَهُمْ مِنَ الْمَالِ مَا أَحَبُّونَا)[١].

نسأل الله تعالى ان يثبّتنا على دينه وولاية أهل البيت (عليهم السلام) وان يجعلنا ممن ينتصر بهم لدينه ويرضى عنهم ببركة السيدة فاطمة الزهراء وأبيها وبعلها وبنيها والسر المستودع فيها (صلوات الله عليهم أجمعين).

(١) الكافي (الروضة): ٢٦٨/٨ ح ٣٩٦، تفسير البرهان: ٢٩٢/٩ ح ٢

القبس/٢١١

الجمعة:٩

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾

قال الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الجمعة:٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾:خطاب مؤكّد ب (يا) و(أي) و(ها) موجّه للمؤمنين عموماً، وإنما خصّهم بالخطاب اهتماماً بشأنهم وإظهاراً لقربهم من الله تعالى، ولأنهم من يتوقع منهم الاستجابة، وإلا فالوجوب شامل لجميع الناس حتى الكفار، غاية الأمر:أن عليهم تصحيح عقيدتهم وأن يؤمنوا بالإسلام أولاً ثم يمتثلوا الأحكام الشرعية لتصحّ منهم.

﴿إِذَا نُودِيَ﴾:المراد بالنداء للصلاة الأذان لها ويشهد لهذا أنهم أطبقوا على تفسير النداء في قوله تعالى:﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة:٥٨) بالأذان فإنّ أعداء الإسلام في زمن نزول الآية وفي كل زمان يسخرون من أذان المسلمين وصلاتهم ويستهزئون بها.

وفي التعبير بالنداء لصلاة الجمعة كناية عن دخول وقتها وإن لم يُرفع الأذان خارجاً، ولعله لهذا جيء بالفعل (نودي) مبنياً للمجهول فأنه يكفي في تحقق النداء دخول وقت الأذان وما فيه من حث ودعوة للمبادرة إلى الصلاة

والفلاح وخير العمل من دون مدخلية لرافعه خارجاً.

وعلى هذا فإنّ (إذا) هنا ليست شرطية توجب المفهوم للجملة بحسب المصطلح بحيث ينتفي الجزاء وهو وجوب السعي إلى الجمعة إذا انتفى الشرط وهو وقوع الأذان خارجاً، وإنما هي ظرفية سيقت لبيان تحقق الموضوع وإنه إذا حلّ الوقت وجبت إقامة الصلاة؛ لوضوح أن بعض المقدمات كالسعي إلى محل إقامتها وإنهاء الشواغل عنها كالمتجر ومحل العمل مما يجب قبل الأذان.

ويمكن أن تكون (إذا) شرطية بناءً على معنى آخر للنداء بأن يراد به أمر الفقيه الجامع للشرائط المتصدي للأمور العامة وإدارة شؤون الأمة بإقامتها، وسيأتي بيان مبررات هذا المعنى إن شاء الله تعالى، وكلا المعنيين صحيحان فالأول ظرف إقامتها، والثاني شرط وجوب إقامتها.

﴿لِلصَّلاةِ﴾:أي صلاة الجمعة فقد ثبت بالإجماع أن الصلاة المنادى إليها هي الجمعة وليس الظهر لان النداء الى الظهر لا يختص بيوم الجمعة، ولا يوجد احتمال ثالث غيرهما فاللام عهدية.

ولأن ظرفية دخول الوقت لتحقق الوجوب لا يختص بصلاة الجمعة وإنما هو عام لكل الصلوات اليومية المفروضة فقد أتي بلفظ الصلاة مطلقاً وليس مقيداً بالإضافة إلى الجمعة.

وفي ضوء هذا كله:لا يصحّ ما قيل[١] إن المراد بالنداء لها إقامتها بشروطها فاذا أقيمت وجب السعي اليها، لأنه يستلزم اتحاد النداء والمنادى له،

(١) راجع ما قاله السيد الخوئي (قدس سره) في ذلك ومناقشتنا له في فقه الخلاف: ٢/ ٢٤١.

فتكون إقامة صلاة الجمعة نداءً لإقامتها، وهو تحصيل حاصل لا مسوّغ له، مضافاً إلى مخالفته للواقع عند نزول الآية إذ لم تكن إقامتها سبباً لوجوب إقامتها بل حلول وقتها والأذان لها، وقد كانت الجمعة مقامة قبل نزول السورة بسنوات[1]، وإنما نزلت السورة لتوبيخ تاركيها في حادثة معينة يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى. لا لتأسيس وجوب إقامة صلاة الجمعة فهذا التفسير غير صحيح، وما ترتب عليه من عدم وجوب الحضور فيها إلا إذا أقيمت مثله، والشاهد على عدم صحته ما ذكرناه من عدم إضافة الصلاة إلى الجمعة مما يعني أن هذا النداء ليس أمراً مغايراً للنداء إلى الصلوات المفروضة الأخرى، وهو الأذان عند دخول الوقت.

فإذا حل وقت صلاة الجمعة وجب على المؤمنين السعي لإقامتها كلٌّ بحسبه، فالإمام يسعى لإمامتها، وبقية المؤمنين لحضورها، أما الأذان الفعلي فليس أزيد من كونه إعلاماً بدخول الوقت، واجتماع العدد ليس شرطاً للوجوب حتى يسقط إذا لم يجتمعوا بل هو شرط للواجب إذ على المؤمنين أن يجتمعوا لتوفير العدد المطلوب إلا ذوي الأعذار.

ولأهمية هذا النداء فقد مهّدت له الآيات السابقة من سورة الجمعة، حيث بدأت بالإخبار عن أن كل ما في الوجود يسبّح لله تبارك وتعالى فلا بد أن يكون الإنسان جزءاً من هذه الحركة لأنه خليفة الله في أرضه، ثم بيان سمو

---

(١) روى الطبرسي في (مجمع البيان :٧/١٠) أن النبي (صلى الله عليه وآله) أقام الجمعة في اليوم الخامس من وصوله قبا قبل دخوله المدينة، والسورة نزلت بعد الهجرة بسنوات لقرائن ذكرناها في فقه الخلاف، وأورد في مجمع البيان بعض خطبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في اول صلاة جمعة.

غرض الرسالة المحمدية وهو التزكية والتعليم فضلاً من الله تعالى ورحمة، ثم توبيخ وتحقير من حُمِّلوا رسالة الله تعالى ولكنهم لم يلتزموا بها مع أنهم يدّعون أنهم الأُمناء عليها والقائمون بها، فيختبر صدقهم بتمني الموت ولكنهم لا يفعلون لأنهم كاذبون غارقون في حب الدنيا، وفي هذه الأجواء المهيئة عقلياً وقلبياً ونفسياً يأتي النداء للحث على السعي والاجتماع لإقامة صلاة الجمعة واعقبها الأمر بترك البيع وسائر الشواغل، حتى لا يجد المتلقي سبباً للتقاعس وعدم الامتثال لما فيها من النهي عن كل ما يشغل عن الحضور فيها

والخطاب في الآية عام فيشمل المؤمنين في كل مكان وزمان إلى قيام يوم الساعة، وهو مطلق لا يقيَّد إلا بدليل، وقد ورد في خطبة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه بالجمعة:يوم الجمعة)[1] كما روى الفريقان أن النبي (صلى الله عليه وآله) خطب في أول جمعة أقامها في المدينة فقال (إن الله تعالى افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في مشهدي هذا، في عامي هذا، إلى يوم القيامة، فمن تركها استخفافاً بها أو جحوداً لها فلا جمع الله له شمله، ولا بارك له في أمره، ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حج له، ألا ولا صيام له، ألا ولا برَّ له، ولا بركة له حتى يتوب، فمن تاب تاب الله عليه)[2] وفي صحيحة منصور بن حازم عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال:(والجمعة واجبة

---

(١) بحار الأنوار: ٢١١/٨٩ نقلاً عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/ ٣٠٢، أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ١، ح ٢٨، ط. مؤسسة أهل البيت (عليهم السلام)، ورواه الشهيد الثاني في رسالة الجمعة، الدر المنثور: ٣١٨/٦، سنن ابن ماجة ٤٣٣/١ باب فرض الجمعة.

على كل أحد)[1].

﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾:تعزيز للوجوب باستعمال صيغة الأمر بالسعي الذي هو السير الحثيث مع العناية والاهتمام، وذكر الله أعم من أن يكون الصلاة والخطبتان، روى جابر بن يزيد عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال:(قلت له:قول الله عز وجل:﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال:قال:اعملوا وعجلوا فإنه يوم مضيق على المسلمين فيه، وثواب أعمال المسلمين فيه على قدر ما ضيق عليهم، والحسنة والسيئة تضاعف فيه. قال:وقال أبو جعفر (عليه السلام) والله لقد بلغني أن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله كانوا يتجهزون للجمعة يوم الخميس لأنه يوم مضيق على المسلمين)[2].

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾:تأكيد آخر على أهمية إقامة الفريضة بعد الأمر بالسعي إليها من خلال النهي عن ممارسة أي فعل يعيق أداء هذه الفريضة العظيمة، وإنما خُصّ البيع بالذكر لأنه الحالة الخارجية الواقعة التي أوجبت نزول الآية حيث قيل إن قافلة تجارية وردت من الشام فلما أشرفت على المدينة ضربوا بالدفوف لإعلام أهلها بوصولهم فهرع إليها أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتركوه قائماً يخطب ولم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وروي أقل من ذلك[3] وان النبي (صلى الله عليه وآله) قال (لقد نظر الله إلى مسجدي يوم الجمعة، فلولا هؤلاء الثمانية

(١) وسائل الشيعة: ٣٠٥/٧ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٢ ح٧.

(٢) وسائل الشيعة: ٧ / ٣٥٣ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٣١ ح ١.

(٣) مجمع البيان: ٨/١٠، الدر المنثور: ١٦٥/٨

الذين جلسوا في مسجدي لأُضرمت المدينة على أهلها ناراً، وحصبوا بالحجارة كقوم لوط)[1] والمورد لا يخصّص الوارد.

أو لأنه أهم ما يشغل الإنسان من أمور الدنيا ويعطّل أدائه للفريضة فمن باب أولى دخول غيره في النهيّ قال في مجمع البيان ((وفي هذه الآية دلالة على وجوب الجمعة، وفي تحريم جميع التصرفات عند سماع اذان الجمعة، لان البيع إنما خُصَّ بالنهي عنه لكونه من أهم التصرفات في أسباب المعاش))[2] بل أن النهي يشمل حتى الشواغل الأخروية كالصلوات المستحبة إذ (لا قربة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض)[3]، نعم إذا حصل شاغل أهم في نظر الشارع المقدس كحفظ النفس من الهلاك أو العرض من الشين سقط الوجوب.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:فإن في صلاة الجمعة مصالح دنيوية وأخروية عظيمة سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى، فالخير كله في هذا السعي ولا خير في ما سواه، وليس التعبير هنا على نحو صيغة التفضيل أي أن في الآخر خيراً لكن هذا أفضل منه، كما في قوله تعالى ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (البقرة:٢٢١) وقوله تعالى ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٣).

إن هذا الخطاب القرآني الذي يوجب على المؤمنين إقامة صلاة

---

(١) البرهان: ٣٠٠/٩ ح ١٥، ١٠

(٢) مجمع البيان: ٩/١٠

(٣) نهج البلاغة: ج٤، ص ٣٧

الجمعة والسعي إليها عام لا يختص بجماعة دون جماعة، ومطلق لا يختص بزمان دون زمان ولا بحال كحضور المعصوم (عليه السلام) دون حال كغيبته(عليه السلام)، وهو ما أكدته الروايات الشريفة المتواترة[1]، منها صحيحة زرارة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال (إنما فرض الله عز وجل على الناس من الجمعة إلى الجمعة خمساً وثلاثين صلاة، منها صلاة واحدة فرضها الله عزّ وجلّ في جماعة وهي الجمعة، ووضعها عن تسعة:عن الصغير، والكبير، والمجنون، والمسافر، والعبد، والمرأة، والمريض، والأعمى، ومن كان على رأس فرسخين)[2].

أقول: الرواية صريحة في الوجوب التعييني لصلاة الجمعة عند زوال يوم الجمعة في جميع الأزمنة وأن الفرض في هذا الوقت هي صلاة الجمعة لا الظهر، وقد ذكرت الرواية بمعونة غيرها شرط إقامتها وهو وجود إمام يخطب لأنها لا تعقد إلا جماعة وبخطبتين، ومراعاة شرط المسافة، وذكرت عناوين المعذورين، فالقول بالوجوب التخييري غير ظاهر ودليله غير تام، بل غير

(١) حكى المحقق صاحب الحدائق (قدس سره) عن الشيخ محمد تقي المجلسي والد صاحب البحار (قدس الله روحيهما) قوله في رسالة الجمعة (فصار مجموع الأخبار الدالة على الوجوب مئتي حديث، والذي يدل على الوجوب بصريحه من الصحاح والحسان والموثقات وغيرهما، أربعون حديثاً، والذي يدل بظاهره على الوجوب خمسون حديثاً، والذي يدل على المشروعية في الجملة تسعون حديثاً، والذي يدل بعمومه على وجوب الجمعة وفضلها عشرون حديثاً، والذي يدل بصريحه على وجوب الجمعة إلى يوم القيامة حديثان، والذي يدل بظاهره على عدم اشتراط الإذن ستة عشر حديثاً). وضعّف صاحب الجواهر (قد) دلالة هذه الاحاديث على الوجوب العيني (جواهر الكلام :١١/١٧٤).

(٢) وسائل الشيعة: ٧ / ٢٩٥، أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ١ ح ١.

متصوَّر وأنَّ فريضة عظيمة مثل صلاة الجمعة بالغ القرآن الكريم والروايات الشريفة في التأكيد على إقامتها والحضور فيها، وذمّ من تخلّف عنها لا يعقل أن يكون أمرها بيد المكلفين إن شاؤوا أقاموها وإن شاؤوا تركوها.

أما الإمام المذكور في بعض الروايات فهو إمام الجمعة وخطيبها، كما في صحيحة زرارة قال (قلت لأبي جعفر (عليه السلام): على من تجب الجمعة؟ قال: تجب على سبعة نفر من المسلمين، ولا جمعة لأقل من خمسة من المسلمين، أحدهم الإمام، فإذا اجتمع سبعة ولم يخافوا أمّهم بعضهم وخطبهم)[(١)] وصحيحته الأخرى عن أبي جعفر (عليه السلام) قال (صلاة الجمعة فريضة، والاجتماع إليها مع الإمام فريضة)[(٢)] وموثقة سماعة قال (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الصلاة يوم الجمعة؟ فقال: أما مع الإمام فركعتان، وأما من يصلي وحده فهي أربع ركعات بمنزلة الظهر، يعني إذا كان إمام يخطب، فإن لم يكن إمام يخطب فهي أربع ركعات وإن صلّوا جماعة)[(٣)].

وقد تواترت الروايات في فضل صلاة الجمعة وثواب من يشارك فيها، كالذي ورد في حديث المعراج أن النبي (صلى الله عليه وآله) رأى ملائكة يدعون:(اللهم اغفر للذين يحضرون صلاة الجمعة، اللهم اغفر للذين يغتسلون يوم الجمعة)[(٤)] وورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله:(ألا أخبركم بأهل الجنة؟ من لا يشغله عن الجمعة

(١) وسائل الشيعة: ٧ / ٣٠٤، أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٢ ح ٤.

(٢) وسائل الشيعة: ٧ / ٢٩٩، أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ١ ح ٨، ١٢.

(٣) وسائل الشيعة: ٧، ٣١٠ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٦ ح ٨

(٤) مستدرك الوسائل: ٦/ ٩١

حر شديد، ولا برد شديد، ولا ردغ)[١] وفي صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال (إذا كان يوم الجمعة نزل الملائكة المقرّبون معهم قراطيس من فضّة، وأقلام من ذهب، فيجلسون على أبواب المسجد، على كراسي من نور، فيكتبون الناس على منازلهم الأول والثاني حتى يخرج الإمام، فإذا خرج طَووا صحفهم، ولا يهبطون في شيء من الأيّام إلاّ يوم الجمعة)[٢] وقورنت صلاة الجمعة بالحج فقد جاء إعرابي يشكو إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) عدم الاستطاعة إلى الحج فقال (صلى الله عليه وآله) له:(عليك بالجمعة فإنها حج المساكين)[٣].

وهي من مظانّ إجابة الدعاء، فقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله (أول وقت الجمعة ساعة تزول الشمس إلى أن تمضي ساعة فحافظ عليها فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: لا يسأل اللهَ عبدُ فيها خيراً إلا أعطاه)[٤] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (ما من قدمٍ سعت إلى الجمعة إلا حرم الله جسدها على النار)[٥] وروى الشيخ الصدوق (قده) في الأمالي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (أما يوم الجمعة فيوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فما من مؤمن مشى فيه إلى الجمعة إلا خفف الله عليه أهوال يوم القيامة، ثم يأمر به إلى الجنة)[٦].

---

(١) كنز العمال: الحديث ٢١٠٨٥، والردغ: الماء والطين والوحل الشديد.

(٢) وسائل الشيعة: ٧ / ٣٤٧ أبواب صلاة الجمعة وآدابها باب ٢٧ ح ١.

(٣) التهذيب: ٢٣٧/٣، وسائل الشيعة: ٧/ ٣٠٠، نفس الأبواب، باب ٢، ح ٧.

(٤) وسائل الشيعة: ٧ / ٣٢٠ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٨ ح ١٣، ١٩.

(٥) وسائل الشيعة: ٧ / ٢٩٧ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ١ ح ٧.

(٦) وسائل الشيعة: ٧ / ٢٩٨ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ١ ح ٩.

ويستحب السفر إلى محلّ إقامتها للحضور فيها، في موثقة سماعة عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه (عليهما السلام)، أنه قال (أيما مسافر صلى الجمعة رغبة فيها وحباً لها أعطاه الله عزّ وجلّ أجر مائة جمعة للمقيم)(١).

وتصل أهمية الحضور إلى درجة وجوب إطلاق سراح المسجونين في الديون من أجل حضورها، قال الإمام الصادق (عليه السلام) (إن على الإمام أن يخرج المحبسين في الدين يوم الجمعة إلى الجمعة ويوم العيد إلى العيد، ويرسل معهم، فإذا قضوا الصلاة والعيد ردهم إلى السجن)(٢).

وورد في ذم التقاعس عن الحضور صحيحة زرارة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال (فإن ترك رجل من غير علة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض، ولا يدع ثلاث فرائض من غير علة إلا منافق)(٣).

مضافاً إلى ذلك فقد عبّرت الأحاديث الشريفة عن هذا الاهتمام، بصيغ متعددة كالنهي عن السفر يومها، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (من سافر من دار إقامته يوم الجمعة دعت عليه الملائكة، لا يُصحَب في سفره ولا يعان على حاجته)(٤) ومن كتاب لأمير المؤمنين (عليه السلام) إلى الحارث الهمداني (لا تسافر يوم الجمعة حتى تشهد الصلاة، إلا ناصلاً -أي خارجا- في سبيل الله أو في أمر

---

(١) وسائل الشيعة: ٧ / ٣٣٩ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ١٩ ح ٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/ ٣٤٠ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٢١ ح ١.

(٣) وسائل الشيعة: ٧ / ٢٩٧ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ١ ح ٨.

(٤) كنز العمال: ٦، ٧١٥ ح ١٧٥٤٠

تعذر به)[١] وروي عنه (عليه السلام) أنه قال (لا يشرب أحدكم الدواء يوم الخميس، فقيل:يا أمير المؤمنين ولم ذاك؟ قال: لئلا يضعف عن إتيان الجمعة)[٢] وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله (من استأجر أجيراً فلا يحبسه عن الجمعة فيأثم، وإن لم يحبسه اشتركا في الأجر)[٣].

ويظهر من الفقهاء (قدس الله أرواحهم) اعترافهم بدلالة الكتاب والسُنة على الوجوب التعييني ولكنهم برروا القول بالتخيير بوجود الإجماعات المنقولة على حرمتها زمن الغيبة، والجمع بينهما يقضي بالتخيير بينها وبين الظهر.

أقول: هذه الإجماعات لا يعتَّدُ بها لأنها مُخالِفةُ لحكم قطعي ثابت في الكتاب والسنة، وهي باعترافهم منقولة ليست حجة، ولو تمت فإنه إجماع مدركي منشأه بعض الروايات التي يمكن توجيهها، أو عدم إقامة الأئمة (عليهم السلام) لها وهو إشكال سيأتي جوابه بإذن الله تعالى، وقد فصّلنا الكلام في البحث الفقهي الاستدلالي عن وجوب صلاة الجمعة تعييناً[٤].

وقال صاحب الحدائق (قدس سره): ((فالمستفاد من الآية المذكورة الأمر بالسعي إلى صلاة الجمعة لكل واحد من المؤمنين متى تحقق الأذان لها أو دخول وقته وحيث أن الأصل عدم التقييد بشرط يلزم عموم الوجوب بالنسبة

(١) نهج البلاغة: ١٤٣/٣، وسائل الشيعة: ٤٠٧/٧ باب ٥٢ ح ٦ وفيه عن الصحاح: نَصَل الحافر: خرج عن موضعه

(٢) وسائل الشيعة: ٧، ٣٥٣ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٣١ ح ٢

(٣) مستدرك الوسائل: ج٦، ص ٧

(٤) فقه الخلاف: ٢٣٣/٢ – ٣٢٦.

إلى زمان الغيبة والحضور))[١].

نعم قد يقال: إن صلاة الجمعة إذا كانت واجبة تعييناً فلماذا لم يقمها الأئمة المعصومون (عليهم السلام)؟ فإذن هي إما واجبة على نحو التخيير بينها وبين صلاة الظهر أو إن إقامتها مشروطة بوجود سلطة شرعية مبسوطة اليد، وهي لم تكن متحققة للأئمة المعصومين (عليهم السلام) بعد الإمام الحسن المجتبى (عليه السلام).

وجوابه واضح مما تقدم في صحيحة زرارة بأن وجوب إقامتها مشروط بعدم الخوف، وقد كان الأئمة (عليهم السلام) يعيشون في ظل حصار قاسٍ وملاحقة شرسة من الطواغيت الذين يعتبرون أنفسهم سلطة شرعية وإن إقامة الجمعة من وظائفهم، ومن نازعهم فيها فهو بنظرهم خارجي يستحق القتل، وقد انتهت حياتهم (عليهم السلام) فعلاً بالشهادة، أما غيرهم ممن لا يخافون الضرر فتجب عليهم، ففي صحيحة زرارة قال (حثنا أبو عبد الله (عليه السلام) على صلاة الجمعة حتى ظننت أنه يريد ان نأتيه، فقلت: نغدو عليك؟ فقال: لا، إنما عنيت عندكم)[٢]، فعدم إقامتها لا لقصور مقتضي دليل الوجوب التعييني كما فهم المشهور وإنما لوجود المانع، وقد صحّح الإمام بنفسه هذا الوهم لدى بعض أصحابه وحثّهم على إقامتها في الأمصار التي لا تعاني من رقابة السلطة، ففي موثقة عبد الملك قال (قال ابو جعفر (عليه السلام): مثلك يهلك ولم يصلِّ فريضة فرضها الله، قلت: كيف أصنع؟ قال: صلّوا جماعة يعني صلاة الجمعة)[٣].

---

(١) الحدائق الناضرة: ٩/ ٣٩٩.

(٢) وسائل الشيعة: ٧ / ٣٠٩ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٥ ح ١.

(٣) وسائل الشيعة: ٧ / ٣١٠ أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٥ ح ٢.

ولذا لم يقمها رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مكة قبل الهجرة لأنه كان في حال الاستضعاف والخوف، لكن المسلمين من أهل يثرب الذين بايعوا النبي (صلى الله عليه وآله) في العقبة أقاموها والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يهاجر الى المدينة بعدُ بإمامة أسعد بن زرارة وصلّى بهم يومئذٍ ركعتين وذكّرهم[1].

ورُوي[2] عن أبن عباس وابي مسعود الانصاري: أنه أُذن للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بصلاة الجمعة في مكة قبل أن يهاجر ولم يستطع أن يجمع بمكة، فكتب الى مصعب بن عمير -الذي بعثه النبي (صلى الله عليه وآله) الى المدينة قبله للتبليغ والدعوة-أن يقيمها في المدينة فكان أول من أقام الجمعة بالمدينة قبل أن يقدمها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولأهمية حفظ المؤمنين من الضرر فقد لوحظ هذا الشرط حتى في صلاة الجماعة يوم الجمعة خشية أن ينقل خبر عنهم إلى الظلمة بأن لهم جمعة غير جمعة السلطة، ففي موثقة ابن بكير (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوم في قرية ليس لهم من يجمع بهم الصلاة أيصلّون الظهر يوم الجمعة في جماعة؟ قال: نعم إذا لم يخافوا)[3].

أما تعليق الوجوب التعييني على حضور الإمام المعصوم (عليه السلام) وعدمه في الغيبة فمما لم يتم عليه دليل كما فصّلنا في البحث الفقهي، وهو لا يناسب الاهتمام العظيم للشارع المقدس بإقامة صلاة الجمعة والعقوبة الشديدة لتاركها

(١) الدر المنثور :١٥٩/٨، مجمع البيان :٧/١٠

(٢) الدر المنثور :١٥٩/٨، مجمع البيان :٧/١٠

(٣) وسائل الشيعة: ٧ / ٣١٠، أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ١٢ ح ١.

من غير عذر، والمصالح الدنيوية والأخروية المترتبة عليها، فهي رمز وحدة المسلمين وتآلفهم وقوّتهم وعزّتهم ومنعتهم، وباجتماعهم للجمعة تتوثق الأواصر بينهم وتكون باباً لمشاريع الخير والتعاون بينهم، لذا لم تشرع في المدينة الواحدة إلا صلاة جمعة واحدة، وفي خطبتيها زادٌ فكري ومعنوي يحصلون عليه أسبوعياً، ويتعرّفون من خلالها على حل مشاكلهم والمواقف المطلوبة إزاء مختلف القضايا والتحديات التي تواجههم، حيث جعل الأئمة (عليهم السلام) من حق المسلمين على إمام الجمعة (أن يعلمهم من أمره ونهيه ما فيه الصلاح والفساد)[١] وروي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله:(إنما جعلت الخطبة يوم الجمعة لأن الجمعة مشهد عام فأراد أن يكون للأمير سبب إلى موعظتهم وترغيبهم في الطاعة وترهيبهم من المعصية، وتوقيفهم على ما أراد من مصلحة دينهم ودنياهم، ويخبرهم بما ورد عليهم من الآفاق من الأهوال التي لهم فيها المضرة والمنفعة، ولا يكون الصابر في الصلاة منفصلاً وليس بفاعل غيره ممن يؤم الناس في غير يوم الجمعة، وإنما جعلت خطبتين ليكون واحدة للثناء على الله والتمجيد والتقديس لله عز وجل، والأخرى للحوائج والأعذار والإنذار والدعاء، ولما يريد أن يعلمهم من أمره ونهيه ما فيه الصلاح والفساد)[٢].

ولا يمكن تصوّر أن وجوبها مقتصر على عدة سنوات من حكم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخلافة أمير المؤمنين والحسن (صلوات الله عليهما) ، ولا يوجد ما

---

(١) وسائل الشيعة: ٤٠/٥ . المصدر من ط مؤسسة أهل البيت.

(٢) وسائل الشيعة: ٧/ ٣٤٤، أبواب صلاة الجمعة وآدابها، باب ٢٥، ح ٦.

يصلح لتقييد إطلاق صحيحة زرارة المتقدمة التي حدّدت المعذورين، وما استدل به من الروايات على هذا الشرط غير تام وغاية ما يفهم منه أن إقامة صلاة الجمعة من الواجبات الاجتماعية -بحسب مصطلحنا- التي يكون أمرها بيد الإمام المعصوم (عليه السلام) عند حضوره ونائبه الخاص أو العام أي الفقيه الجامع للشرائط ، وعليه تحمل كلمات فقهائنا (رضوان الله تعالى عليهم اجمعين) قال المحقق الحلي (قدس سره):((السلطان العادل أو نائبه شرط وجوب الجمعة وهو قول علمائنا))[1]، وقال المحقق الكركي (قدس سره):((يشترط لوجوب الجمعة السلطان العادل وهو الإمام أو نائبه عموماً أو في الجمعة بإجماعنا))[2]،

فلا يجوز لأحد غير الفقيه المتصدي للأمور العامة بعنوان المرجعية العامة أو ولي الأمر ونحوهما إقامتها إلا بإذنه، شأنها في ذلك شأن إقامة الحدود والقضاء بين الناس والجهاد، وقد دلت على هذا عدة روايات كقوله في دعائم الإسلام روينا عن علي (عليه السلام) أنه قال: لا يصلح الحكم ولا الحدود ولا الجمعة إلا للإمام أو من يقيمه الإمام)[3] والمروي عن كتاب الأشعثيات (إن الجمعة والحكومة لإمام المسلمين)[4]، وكذا روي عنهم (عليهم السلام):(لنا الخمس ولنا الأنفال ولنا الجمعة ولنا صفو المال)[5] والنبوي المشهور (أربع إلى الولاة الفئ

---

(١) المعتبر في شرح المختصر: ٢/ ٢٧٩، جواهر الكلام: ١١/ ١٥٣.

(٢) جامع المقاصد: ٢/ ٣٧١، جواهر الكلام: ١١/ ١٥٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج١ / ٤١٣

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج١ / ٤١٣

(٥) وسائل الشيعة: ج ٩ /ص ٥٣٢

والحدود والصدقات والجمعة)[١]، وفي رسالة الفاضل ابن عصفور روى مرسلاً عنهم (عليهم السلام) (ان الجمعة لنا والجماعة لشيعتنا)[٢]

وفي الصحيفة السجادية المعلوم أنها من السجاد (عليه السلام) في دعاء يوم الجمعة وثاني العيدين (اللهم إن هذا المقام مقام لخلفائك وأصفيائك ومواضع أمنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها قد ابتزوها وأنت المقدر لذلك- إلى أن قال- حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزين يرون حكمك مبدلاً- إلى أن قال- اللهم العن أعداءهم من الأولين والآخرين ومن رضي لفعالهم وأشياعهم لعناً وبيلا).

ولذا ورد في خبر عبد الله بن ذبيان[٣] عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال:(يا عبد الله ما من يوم عيد للمسلمين أضحى ولا فطر إلا وهو يجدد الله لآل محمد عليهم السلام فيه حزناً، قال: قلت: ولم؟ قال: إنهم يرون حقهم في أيدي غيرهم)[٤].

---

(١) منتهى المطلب (ط.ق) : ج ١ /ص ٣١٧

(٢) من لا يحضره الفقيه : ج١ / ٤١٣، جواهر الكلام: ١١ / ١٥٨

(٣) بحسب التهذيب، وفي الكافي (دينار)، وفي الفقيه (سنان).

(٤) وسائل الشيعة: ٧/ ٤٧٥، كتاب الصلاة، أبواب صلاة العيد، باب ٣١، ح ١.

القبس/٢١٢

المعارج:١

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾

موضوع القبس: في من رفض التسليم بحديث الغدير

قال الله تبارك وتعالى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (المعارج:١-٣).

﴿سَأَلَ﴾ بمعنى طلب واستدعى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣) أي لا أطلب، وقوله تعالى ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ (الدخان:٥٥) كقولنا (سألته شيئاً) أي طلبته منه، وهو يأخذ مفعولين، وليس بمعنى استفهم واستفسر، لأن الثاني يتعدى ب (عن)[1].

فيكون المعنى دعا داعٍ بعذاب على نفسه مستعجلاً إياه، وهذا الطلب منهم كان سخرية واستهزاءاً وتكذيباً، ومحاولة لإظهار عجز رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) ذكرت بعض التفاسير أن الباء هنا بمعنى (عن) كما في قوله تعالى (فأسأل به خبيراً) (الفرقان:٥٩) وذكروا قول علقمة شاهداً:

فإن تسألوني بالنساء فإنني   خبير بادواء النساء طبيب

فيكون السؤال بمعنى الاستفهام، ويمكن أن يفيد معنى الاستعجال كما في قوله تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ (الحج:٤٧)، وقوله تعالى ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ (الشورى:١٨)، ومن بلاغة القرآن تعدية (سأل) بالباء ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام والدعاء والاستعجال (التحرير والتنوير:١٤٤/٢٩)

عن تنفيذ ما يتوعدهم به مستغلين حلم الله تعالى وطول اناته في غضبه، وإعطائه أطول فرصة للمذنبين كي يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم رحمة بهم، وتعظيماً لمقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣).

وقد تكرر منهم هذا الاستدعاء للعذاب الإلهي كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (ص:١٦) وقوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس:٤٨)، وقوله تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ (الحج:٤٧) وقوله تعالى ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (الشعراء:٢٠٤) وكانوا يوهمون أنفسهم وأتباعهم بأنهم على الحق وان ما نقله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من وحي السماء هو باطل ـ والعياذ بالله ـ ويتباهلون على ذلك ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢).

فتؤكد الآية الكريمة ان العذاب واقع صدقاً وحقاً كقوله تعالى في آية أخرى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (الطور:٧-٨) لكن دار الحساب والجزاء هي الآخرة.

كما يظهر من باقي الآيات الكريمة ان هذا العذاب مختص بالكافرين لا يدفعه عنهم دافع ولا ينفعهم شيء ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام:١٥٨) أما المؤمنون فيمكن أن يدفع

العذاب عنهم بتوبة أو شفاعة أو عمل صالح يكفرَّ به عن سيئاتهم ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء:٣١)، وهذا العذاب يكون بأمر الله تبارك وتعالى.

﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ وهو موضع العروج أي الصعود مرتبة بعد مرتبة كما في المجمع والمعارج جمع مِعَرج والاظهر انها معارج الملائكة أي مقامات الملائكة التي يتوجّهون منها الى قربه تعالى، وهي درجات متصاعدة يعرج اليها الملائكة عند رجوعهم إلى الله سبحانه على ما يفسّره قوله بعد ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج:٤) فله سبحانه معارج الملكوت ومقاماتها المترتبة علواً وشرفاً بحسب قربهم من الله سبحانه وليست بمقامات وهمية واعتبارية(١).

وقيل انها المقامات المعنوية التي يرتقي فيها السالكون للقرب من الله تعالى أعم من ان تكون للملائكة أو للمؤمنين، وتختار الآية الكريمة هذا الاسم من الأسماء الحسنى(٢) للتعبير عن الاستعلاء والهيمنة والتسلط على هؤلاء الجهلة التافهين وللاشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه، فان المعارج من خصائص منازل العظماء، قال تعالى ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/٢٠

(٢) روى في الدر المنثور (٢٧٨/٨) أن سعد بن أبي وقاص سمع رجلاً يقول: لبيك ذي المعارج فقال: إنه لذو المعارج، ولكنّا كنّا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يقول ذلك) أقول: وينافيه ما ورد في استحباب التلبية عند الاحرام بالقول (لبيك ذا المعارج لبيك) (الكافي: ٢٣٥/٤)

عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (الزخرف:٣٣) ولكل درجة من درجات المعارج قوم عملوا لنوالها قال تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة:١١).

ويأمر الله تعالى نبيّه بأن لا يستفزَّه تحدّيهم واستكبارهم فيستعجل لهم العذاب ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف:٣٥) فان الله تعالى لا يعجل لظلم العباد، وهنا تقول الآيات التالية من السورة ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝﴾ (المعارج: ٥-٧) فان المدة القصيرة الفانية التي يمهلهم الله تعالى فيها ليستدرجهم لا قيمة لها في عمر الزمن الطويل وفي مقابل الحياة الاخرة الباقية، ولا تستحق أن تكون ثمناً لمعصية الله تعالى وتحصيل عقابه الأكيد، لكنهم لجهلهم وقصر نظرهم يرون يوم الانتقام بعيداً وكأنه لا يقع فيغترون ويتمادون في باطلهم، ولكنه سرعان ما يتحقق وعد الله الصادق، وفي هذا دعوة إلى عدم تضييع العمر القصير في توافه الأمور واستثماره في طاعة الله تعالى.

وقد دلّت الروايات الكثيرة من كتب الفريقين[1] على ان السائل المقصود هو النعمان أو النضر بن الحارث الفهري حين رفض التسليم لأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمبايعة أمير المؤمنين (عليه السلام) ولياً لأمر الأمة من بعده في واقعة الغدير المشهورة

(١) نقل العلّامة الأميني (رضوان الله تعالى عليه) في سفره القيّم (الغدير: ٢٣٩/١-٢٤٦) عن ثلاثين من علماء أهل السنة المشهورين نزول الآية في هذه الواقعة.

فقد روى الطبرسي في مجمع البيان بسنده عن الحاكم الحسكاني صاحب شواهد التنزيل بسنده عن سفيان بن عيينه عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ(عليهما السلام)، عَنْ آبَائِهِ(عليهم السلام) قَالَ: لَمَّا نَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) عَلِيّاً(عليه السلام)يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ، وَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ، شَاعَ ذَلِكَ فِي الْبِلادِ، فَقَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ(صلى الله عليه وآله وسلم) النُّعْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ الْفِهْرِيُّ، فَقَالَ: أَمَرْتَنَا عَنِ اللَّهِ أَنْ نَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَمَرْتَنَا بِالْجِهَادِ وَالْحَجِّ وَ الصَّوْمِ وَ الصَّلاَةِ وَ الزَّكَاةِ فَقَبِلْنَاهَا، ثُمَّ لَمْ تَرْضَ حَتَّى نَصَبْتَ هَذَا الْغُلاَمَ، فَقُلْتُ: مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ، فَهَذَا شَيْءٌ مِنْكَ أَوْ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: بَلَى وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، إِنَّ هَذَا مِنَ اللَّهِ، فَوَلَّى النُّعْمَانُ بْنُ الْحَارِثِ وَهُوَ يَقُولُ: اَللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَمَاهُ اللَّهُ بِحَجَرٍ عَلَى رَأْسِهِ فَقَتَلَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)[1].

وروى الشيخ الكليني (قدس سره) في الروضة بسنده عن أبي بصير قال (بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) ذَاتَ يَوْمٍ جَالِساً إِذْ أَقْبَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) إِنَّ فِيكَ شَبَهاً مِنْ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ لَوْ لَا أَنْ تَقُولَ فِيكَ طَوَائِفُ مِنْ أُمَّتِي مَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لَقُلْتُ فِيكَ قَوْلًا لَا تَمُرُّ بِمَلَإٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ يَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ قَالَ فَغَضِبَ الْأَعْرَابِيَّانِ وَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَ عِدَّةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَهُمْ فَقَالُوا مَا رَضِيَ أَنْ يَضْرِبَ لِابْنِ عَمِّهِ مَثَلًا إِلَّا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) فَقَالَ- وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ

---

(١) مجمع البيان: ٥٢٩/١٠، البرهان: ٣١/١٠ ح ١٠

مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ يَعْنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ- مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ قَالَ فَغَضِبَ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو الْفِهْرِيُّ فَقَالَ اللَّهُمَ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ يَتَوَارَثُونَ هِرَقْلًا بَعْدَ هِرَقْلٍ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَقَالَةَ الْحَارِثِ وَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ- وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ثُمَّ قَالَ لَهُ يَا ابْنَ عَمْرٍو إِمَّا تُبْتَ وَ إِمَّا رَحَلْتَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ بَلْ تَجْعَلُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ شَيْئاً مِمَّا فِي يَدَيْكَ فَقَدْ ذَهَبَتْ بَنُو هَاشِمٍ بِمَكْرُمَةِ الْعَرَبِ وَ الْعَجَمِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله وسلم) لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيَّ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ قَلْبِي مَا يُتَابِعُنِي عَلَى التَّوْبَةِ وَ لَكِنْ أَرْحَلُ عَنْكَ فَدَعَا بِرَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا فَلَمَّا صَارَ بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ أَتَتْهُ جَنْدَلَةٌ فَرَضَخَتْ هَامَتَهُ ثُمَّ أَتَى الْوَحْيُ إِلَى النَّبِيِّ ص فَقَالَ سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ بِوَلَايَةِ عَلِيٍ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ قَالَ قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّا لَا نَقْرَؤُهَا هَكَذَا فَقَالَ هَكَذَا وَ اللَّهِ نَزَلَ بِهَا جَبْرَئِيلُ عَلَى مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) وَ هَكَذَا هُوَ وَ اللَّهِ مُثْبَتٌ فِي مُصْحَفِ فَاطِمَةَ (عليها السلام) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) لِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ انْطَلِقُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ فَقَدْ أَتَاهُ مَا اسْتَفْتَحَ بِهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ- وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)[1] .

---

(١) الكافي: ٥٧/٨ ح ١٨، البرهان: ٢٩/١٠ ح ٦.

وأورد ابن تيمية في كتاب (منهاج السنة)[١] وغيره[٢] اشكالاً على هذه الروايات بأن سورة المعارج مكية وان واقعة الغدير حصلت في السنة العاشرة من الهجرة، فلا يصح ان تكون نازلة في هذه الواقعة.

ويمكن جوابه بوجوه:

١- ان تقسيم السور إلى مكية ومدنية وترتيب السور بحسب تاريخ نزولها لم يرد الينا بطريق معتبر وإنما هي في الغالب اجتهادات من العلماء فلا تكون حجة، وقد تثبت في بعض الموارد بمقتضى قرائن ترجّح هذا أو ذاك كما لو عرف سبب نزولها وتاريخ الواقعة التي نزلت فيها.

٢- ولو قلنا بأن السورة مكية بشهادة السياق ونحوه، فإن كثيراً من السور المكية تضمنت آيات مدنية وهذا مثبت في بعض نسخ المصحف الشريف فلتكن الآيات منها.

٣- ما قيل من ان الآيتين من هذه السورة ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج:٢٤-٢٥) مدنيتان[٣] ويراد منهما الزكاة المفروضة وقد وجبت في المدينة وهما جزء من مقطع لا يقبل التفكيك أوله ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ (المعارج:٢٢-٣٥) (ومدنية هذه الآيات الواقعة تحت الاستثناء تستدعي ما استثنيت منه وهو على

(١) منهاج السنة: ١٣/٤.

(٢) كالألوسي في (روح المعاني: ٨٨/٢٩)

(٣) نسبه في (مجمع البيان: ٦٥/١٠) إلى الحسن

الأقل ثلاث آيات، قوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (المعارج:١٩) إلى قوله﴿مَنُوعًا﴾ (المعارج:٢١) على ان قوله ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ (المعارج:٣٦) متفرع على ما قبله تفرّعاً ظاهرا وهو وما بعده الى آخر السورة ذو سياق واحد فتكون هذه الآيات أيضاً مدنية.

ومن جهة أخرى: مضامين هذا الفصل من الآيات تناسب حال المنافقين الحافين حول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن اليمين وعن الشمال عزين، وهم الرادّون الى بعض ما أنزل الله من الحكم وخاصة قوله ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (المعارج:٣٨) وقوله ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ (المعارج:٤١) الخ، وموطن ظهور هذا النفاق المدينة لا مكة، ولا ضير في التعبير عن هؤلاء بالذين كفروا فنظروا ذلك موجود في سورة التوبة وغيرها[١].

أقول: هذا الوجه مبني على ما ذكره من إرادة الزكاة الواجبة، لكن توجد لدينا روايات عديدة تشير إلى أن هذا الحق المعلوم غير الزكاة المفروضة كما في موثقة سماعة عن ابي عبد الله (عليه السلام) في حديث قال (ولكن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة فقال سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ (المعارج:٢٤) فالحق المعلوم غير الزكاة وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله)[٢].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٢٠

(٢) الكافي: ٤٩٨/٣ ح ٨، البرهان: ٣٤/١٠

٤- المروي[١] ان السورة نزلت عند دعاء السائل ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢) فهو ناظر إلى ما جاء في سورة الأنفال التي هي مدنية فسورة المعارج مدنية متأخرة عن سورة الأنفال.

٥- ان بعض السور والآيات تنزل أكثر من مرة عندما يتكرر الموجب لها، فلعل قوله تعالى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ نزل أول مرة في مكة جواباً على ما ذكرته جملة من الآيات المتقدمة عن استعجال المشركين العذاب، فيكون موضوعها عاماً، شاملاً لكل موقف استهزاء بالحق وتكذيب به، ثم نزلت نزولاً خاصاً من باب التطبيق في قضية الفهري، فما ذكرته الروايات من ان الآيات نزلت في هذه القضية يراد به النزول الخاص، كما في رواية[٢] أبي بصير عن الإمام الصادق (عليه السلام).

وأفادت بعض الروايات أنها نزلت في أبي جهل يوم بدر فقد روى القمي في تفسيره أنه (لما اصطف الخيلان يوم بدر رفع أبو جهل يده، فقال: اللهم اقطعنا للرحم وآتنا بما لا نعرفه فأجئه العذاب، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾)[٣].

وأورد ابن تيمية إشكالاً آخر بأن الله تعالى قال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

(١) أخرجه الآلوسي في (روح المعاني: ٨٨/٢٩) عن جملة من اعلام مفسري العامة.

(٢) الكافي: ٣٤٩/١ ح ٤٧، البرهان: ٢٩/١٠ ح ٥

(٣) تفسير القمي: ٣٨٥/٢ نور الثقلين، ج٥، تفسير سورة المعارج: ح ٨

وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣) فكيف نزل العذاب بهذا السائل؟

أقول: وهو إشكال واهٍ لأن المرفوع عن الأمة هو عذاب الاستئصال ونحوه واما العقوبات الفردية النازلة على الأشخاص عقوبة لتماديهم في الظلم فأنها غير مشمولة بالآية وقد دعا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على جماعة وأراه الله تعالى استجابة دعائه كقتل النضر بن الحارث يوم بدر وهو ممن روي عنه أنه قال ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[1] (الأنفال:٣٢) ونحو ذلك وتوجد إشكالات أخرى لا تستحق الاطالة في عرضها والاجابة عليها[2].

جعلنا الله تعالى من المسلّمين لأمره المطيعين لحججه والثابتين على الإسلام وولاية امير المؤمنين (عليه السلام) وأولاده المعصومين (سلام الله عليهم اجمعين)

---

(١) الدر المنثور: ٨/٢٧٧

(٢) أوردها ملخصة في تفسير الأمثل (١٤ / ٤٢٦) وأجاب بحقائق تاريخية ناصعة في الغدير: ١/ ٢٤٧ – ٢٦٦

القبس/٢١٣

نوح: ١٠-١١

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾

الارتباط الوثيق بين الاستغفار وتواتر النعم

قال الله تبارك وتعالى وهو يحكي الرسالة التي كان يؤديها النبي العظيم نوح (عليه السلام) إلى قومه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح: ١٠-١٢).

تبيّن الآية الكريمة احدى السنن الإلهية الجارية في البشر وهي الارتباط الوثيق والفاعل بين صلاح البشر وصلاح الأوضاع الكونية العامة المؤثرة في حياة الإنسان، أي أنهم كلما تابوا ورجعوا إلى ربهم وأقاموا الدين في حياتهم، واقلعوا عن ذنوبهم ومعاصيهم وأصلحوا نفوسهم وغيّروا واقعهم الفاسد، فان الله تبارك وتعالى يغدق عليهم بالخيرات وينعم عليهم بحياة طيبة هنيئة، ويزيل عنهم النكد والضيق والمنغصات، فالإيمان والعمل الصالح يجلبان للفرد والمجتمع الحياة الهنيئة والعيش الرغيد، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧) وقال تعالى ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦).

وأشار الى هذه الحقيقة أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة الاستسقاء بقوله

(وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الِاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ) ثم قرأ الآية المباركة وقال (عليه السلام) (فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَءاً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ)[١].

ويعدهم الله تعالى ويتعهد لهم بالاستجابة اذا طلبوا المغفرة فأنه تعالى موصوف بالمغفرة ومن شأنه ذلك ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ فان (كان) هنا شأنية والمغفرة صفة ثابتة له، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (أكثروا من الاستغفار فان الله عزوجل لم يعلمكم الاستغفار الا وهو يريد ان يغفر لكم)[٢]، وتتسع مغفرته لكل الذنوب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٥٣) ولكن اذا طلبها العبد من ربه فقد ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (إن الله تعالى يغفر للمذنبين الا من لا يريد أن يُغفَر له! قالوا يا رسول الله من الذي يريد أن لا يُغفَر له؟ قال: من لا يستغفر)[٣].

وتذكر هذه الآيات والتي سبقتها نماذج من هذه النعم التي يجلبها الاستغفار فمنها إطالة الأعمار وتأخير الآجال، حيث تقدم عليها قوله تعالى ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (نوح:٣-٤).

ثم ذكرت بعض النعم التي يفهمها المخاطبون وتناسب حياتهم كونهم

(١) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ج٢، ص ٢٩٠، الخطبة ١٤١

(٢) ميزان الحكمة: ٤٣١/٦ عن تنبيه الخواطر: ٥/١، الدر المنثور: ٨/ ٢٩٠ بسنده عن سلمان.

(٣) ميزان الحكمة: ٤٣١/٦ عن مستدرك الوسائل: ١٢٢/١٢ ح ١٣٦٨٥

أهل زراعة وأنعام فقال تعالى ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ويراد بالسماء المطر[(١)]، أو يراد بها السماء المعروفة وأنها لكثرة ما فيها من مطر كأنها تسقط عليها فيطلق الله تعالى ما فيها غزيراً يدّر بمائه المبارك على الأرض والإنسان بما يحمل معه من خيرات، والدُرور والدر: تتابع السيلان.

﴿وَيُمْدِدْكُمْ﴾ أي يواصل إمدادكم بما يقوّيكم ويمكنكمّ من سدِّ احتياجاتكم الحياتية الهائلة، وأوضح مصاديق الإمداد: الأموال والبنون فان الثروة المالية والبشرية قوام إعمار الحياة بخلاف من يدعون إلى تحديد النسل وتقليل الإنجاب وهي دعوة تتفق مع مشروع الماسونية لإهلاك البشرية ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ وهي بساتين النخيل والأعناب التي تحتاج الى سقي ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ تجتمع فيها هذه المياه النازلة لتحمي الناس ومزروعاتهم وممتلكاتهم من الغرق، ولتنقل الماء الى الأراضي الأخرى التي لم يسقط عليها المطر ولتستصلح به الأراضي للزراعة التي هي قوام حياة البشر والحيوانات، ولتكون بيئة لحياة الحيوانات المفيدة للبشر كالأسماك، ولتكون وسطاً ناقلاً لأشخاصهم وبضائعهم فالنقل النهري والبحري يشكل عصب الحياة، وعلى الأنهار تقام المدن والحضارات وبها تعمر الحياة، مضافاً الى كونها محلاً للنزهة والترفيه، وسبباً للحفاظ على التوازن البيئي وتلطيف الجو،

---

(١) روي في الموطأ والصحيحين عن زيد بن خالد الجهني أنه قال (صلّى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل) وقال معاوية بن مالك بن جعفر:

اذا نزل السماء بارض قومٍ   رعيناه وإن كانوا غضابا

وغيرها من الفوائد.

وقوله تعالى ﴿يَجْعَلْ﴾ لا يعني على نحو المعجزة بحيث تنزل عليهم جنات كاملة من السماء وإنما يهيء لهم أسباب النجاح وظروفه وعلى الإنسان استثمارها لتحقيق النتائج المطلوبة بإذن الله تعالى وفضله وكرمه.

وفي الآية إشارة إلى أنهم أصيبوا بقحط وجفاف وانقطاع الأرزاق وفقدان الولد بسبب طغيانهم وكفرهم وهو مروي في مجمع البيان[(١)] فعلّمهم النبي نوح (عليه السلام) طريق التخلص من تلك المحن والكوارث وإصلاح أوضاعهم المعيشية.

ولابد من الالتفات الى الآثار المعنوية لهذه النعم فانزال الماء كناية عن تطهير القلوب والنفوس من الادران والكدورات والأوهام الباطلة وإعمارها بالإيمان والعمل الصالح (تعطروا بالاستغفار لا تفضحكم روائح الذنوب)[(٢)] .

وقد تكرّر بيان هذه السنة الإلهية في القرآن الكريم، وان تقوى الأفراد وإقامة النظام الاجتماعي العادل كفيلان بجلب الخير والسعادة للناس، كما في قوله تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ٥٢) وقوله تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي

---

(١) مجمع البيان: ١٠ / ٤٥٧، بحار الأنوار: ٢٧٨/٩٣ ح ٧

(٢) البحار: ٩٣ / ٢٧٨ / ٧.

فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (هود: ٢-٣).

وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦) وقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (المائدة: ٦٦).

والأحاديث الشريفة الدالة على ذلك كثيرة، فقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً)[١] وعنه(صلى الله عليه وآله وسلم) قال(من كثرت همومه فعليه بالاستغفار)[٢] وفي الخصال عن علي (عليه السلام) في حديث الأربعمائة (أكثر الاستغفار تجلب الرزق).

وهذه السنة جارية في الاتجاه المقابل أيضاً، فان الناس اذا ابتعدوا عن الله تبارك وتعالى واعرضوا عن العمل بشريعته فان البلاء ينزل عليهم ويحرمون من الخيرات والحياة الكريمة، قال تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١) وقال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠).

وروي في تطبيق الآية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (توقّوا الذنوب، فما

---

(١) ميزان الحكمة: ٤٣٥/٦ عن الدعوات: ٢٩/٨٦

(٢) الكافي: ٩٣/٨ ح ٦٥

من بليّةٍ ولا نقص رزق الا بذنب، حتى الخدش والكبوة والمصيبة)[(١)] وكشف الإمام الصادق (عليه السلام) عن حقيقة عجيبة يجب التوقف عندها ودراستها حيثما قال (عليه السلام) (من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال)[(٢)] وقال الإمام الرضا (عليه السلام) (كلما أحدث العباد من الذنوب مالم يكونوا يعملون أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون)[(٣)].

وقد شرحنا في خطاب سابق[(٤)] وجهاً لذلك للرد على من يسخر من هذه الملازمة ويفسِّر الأحداث تفسيراً مادياً وضربنا مثالاً تخلّف بعض الدول كالولايات المتحدة عن التوقيع على معاهدة كيوتو للمحافظة على البيئة وهو عصيان وتمرد على هذا القانون الإنساني وأدى ذلك الى حصول ظاهرة الاحتباس الحراري وارتفاع درجة الحرارة مما أدى إلى الحرائق الواسعة وتلوث البيئة والتصحر والفيضانات وغيرها من الكوارث المدمّرة فهذا مثال لتقريب فكرة ان المعصية تنتج المصائب.

والآية الكريمة في الوقت الذي تثير فيه المحفزات لدى الناس للرجوع الى الله تعالى والالتزام بالمنهج الرباني فإنها ترد على عقيدة المشركين الذين

---

(١) بحار الأنوار: ٣٥٠/٧٣ ح ٤٧

(٢) ميزان الحكمة: ٤٣٥/٦ عن الدعوات: ٢٩/٨٦ مثلاً ينظر في جهاز الموبايل وهو يقود السيارة أو يخالف الإشارات المرورية فيرتكب حادثاً مفجعاً بسبب هذا الخطأ، أو يلقي تهماً من غير دليل فتحصل فتنة واقتتال يزهق أرواح الناس وهكذا.

(٣) الكافي: ٢٧٥/٢ ح ٢٩

(٤) خطاب المرحلة: ١ / ٣٩٤

يسلّمون بأن الله تعالى هو الخالق ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان: ٢٥)، الا أنهم يعتقدون أنَّ تدبير الكون وتسيير أموره بيد الهة أخرى فإله للخصب وآخر للانتصار في الحرب وآخر لتحصيل الولد وآخر للصحة وهكذا فتقرّر الآية الكريمة ان مدبر الأمور كافة والمهيمن على الخلق أجمعين هو الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له فهو تبارك وتعالى الذي ينزل المطر من السماء ويجعل للناس جنات وأنهار أو ويمددهم بأموالٍ وبنين.

وينبغي إيضاح بعض التفاصيل المتعلقة بهذه الآية الكريمة من خلال نقاط:

الدين مشروع لإعمار الدنيا:

١- ان الأنبياء حينما كانوا يؤدون رسالتهم في دعوة الناس الى الله تعالى وتطبيق شريعته، لم يكونوا يكتفون بوعد الناس بالجنة ان آمنوا والوعيد بالنار إن كفروا، أي انهم لم يقتصروا على الجزاء في الآخرة بل تعهّدوا لهم بجلب المصالح الدنيوية أيضاً من رفع مستوى الرفاه الاقتصادي وتحسين الأمن والخدمات، لأن الناس بطبيعتهم يريدون أثراً ايجابياً ملموساً في العاجل ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (القيامة: ٢٠) حتى يثبت الإيمان في قلوبهم ويثقوا بأن ما اختاروه من النظام هو الصحيح، وهذا المعنى يستفاد من قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (القريش: ٣-٤) فمطالبتهم بالعبادة واتباع الدين بعد ان ضمن لهم أهم عنصرين

لاستقرار حياة الإنسان الغذاء والأمن، وهذه النتائج العاجلة ساهمت في تثبيت قلوب كثير من المؤمنين بالإسلام وبالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهم لمسوا بركات الدين الجديد في حياتهم، حيث توحدّوا وتآلفت قلوبهم بعد أن مزقتهم الحروب الدامية وأهلكتهم، وتكوّنت منهم أمة موحدّة قوية، ووجدوا الرفاه الاقتصادي حينما بسطوا نفوذهم على تمام الجزيرة العربية وفتحوا بلاد الفرس والروم وأصبحوا أسياد الدنيا وصارت لهم دولة مهابة.

فعلى العاملين الرساليين والساعين لإقناع الناس بمشروع الإسلام أن يعوا هذا الدرس فلا يكتفوا بالمواعظ والشعارات والادعاءات، وتأجيل الثواب والعقاب إلى يوم القيامة، بل عليهم أن يقدّموا حلولاً عملية لمشاكل الناس ويقودوا مبادرات لتحسين أوضاعهم حتى يلمس الناس بركات المشروع الإسلامي وما يجلب لهم من مصالح خصوصاً اذا مكّن الله تعالى لهم في الأرض وجعل لهم نفوذاً وسلطة، بل عليهم أن يَسعَوْا لهذا التمكين حتى يستطيعوا أن يقدموا تلك الخدمات للناس فان هذا واجب على من يستطيع منهم ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ (النساء: ٧٥) ، ومقدمة الواجب واجبة كما قالوا، وهذا باب ينفتح منه ألف باب يفهمها أهلها من النخب والكفاءات.

٢- ان الاستغفار له حقيقة تتضمنها كلماته وليس مجرد تحريك اللسان بها، وهذه الحقيقة عبارة عن برنامج متكامل من المواقف والأفعال، وقد شرح أمير المؤمنين (عليه السلام) هذه الحقيقة عندما سمع قائلاً بحضرته: استغفر الله فقال

(عليه السلام) (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، أَتَدْرِي مَا الْإِسْتِغْفَارُ؟ الْإِسْتِغْفَارَ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا: النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى. وَالثَّانِي: الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً، وَالثَّالِثُ: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللهَ أَمْلَسَ لَيسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، وَالرَّابِعُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، وَالْخَامِسُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ، حَتَّى يَلْصِقَ الْجِلْدُ بِالْعَظْمِ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، وَالسَّادِسُ: أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلاَوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذلِكَ تَقُولُ: (أَسْتَغْفِرُ اللهَ))[1].

لذلك روي ان علياً (عليه السلام) علّم شخصاً الاستغفار لتوسعة الرزق ففعل ولم يحصل تغيير في حياته، فقال (عليه السلام) (لعلك لا تُحسن ان تستغفر، قال: علمني، قال (عليه السلام): أخلص نيّتك وأطع ربَّك)[2].

٣- الاستغفار المقصود بالآية له معنى أسمى وأرقى وأوسع من المعنى الخاص للاستغفار الذي هو الندم على ذنب ارتكبه وطلب العفو والصفح عما صدر منه من الذنوب التي وقع فيها وصدرت منه فعلاً لأنه هنا يعني مطلق العودة الى الله تعالى والإيمان به والالتزام بشريعته ولو بقرينة الآيات المشابهة المتقدمة عليها في نفس السورة التي صرّحت بذلك ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ (نوح:٣-٤) فهي دعوة إلى سبب المغفرة بلسان طلبها وبيان لموجبها وحث عليه: وهو الإيمان وطاعة الله

(١) نهج البلاغة: ج ٤ / ص ٩٧

(٢) ميزان الحكمة: ٤٣٥/٦ عن كنز العمال: ٣٩٦٦

ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) والعمل الصالح قال تعالى ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١) وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال: ٢٩) وقال تعالى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١) فالآية الكريمة تدعو الى طلب العصمة والوقاية من الوقوع في الذنب أصلاً بالاشتغال بالطاعة وبالالتفات إلى الآثار السيئة للذنوب وعاقبتها القاسية، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (عجبت لأقوام يحتمون الطعام مخافة الأذى كيف لا يحتمون الذنوب مخافة النار)(١) وبالالتفات أيضاً إلى الأثر المبارك لاجتناب الذنب ونشوة النصر على النفس والشيطان، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله (من أعرض عن محرم أبدله الله به عبادة تسرُّه)(٢) وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال (غضوا أبصاركم ترون العجائب)(٣) وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال (ما من مسلم ينظر امرأة أول نظرة ثم يغضوا بصره الا أحدث الله تعالى له عبادة يجد حلاوتها في قلبه)(٤) وفي حديث آخر عن الامام الصادق (عليه السلام) (من نظر إلى امرأة فرفع بصره إلى السماء أو غمض بصره لم يرتد اليه بصره حتى يزوّجه الله

(١) تحف العقول: ٢٠٤

(٢) بحار الأنوار: ١٢١/٧٧، ح ٢٠

(٣) بحار الأنوار: ٤١/١٠٤ ح ٥٢

(٤) ميزان الحكمة: ٤٦/٩ عن كنز العمال: ١٣٠٥٩

من الحور العين)[١] فالآية الكريمة تدعو الناس إلى طلب المعونة من الله تعالى على أن يسدَّد العبد ويعينه على طاعته وتجنب معصيته أي الاستغفار بالدفع لا بالرفع روي عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قوله (إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب؟ وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض)[٢] وفي الدعاء (اللهم ارزقنا توفيق الطاعة وبعد المعصية) وفي أدعية أيام شهر رمضان (اللهم قرّبني فيه إلى مرضاتك وجنبني فيه سخطك ونقماتك)، وورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (اجتناب السيئات أولى من اكتساب الحسنات)[٣] ووجه الأولوية أن ارتكاب الذنب له أثر يبقى وإن غفر الذنب وسقطت عقوبته، فالمطلوب عدم الوقوع في الذنب أصلاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال (من قارف ذنباً فارقه عقل لا يرجع إليه أبداً)[٤] وان كان المأمول من كرم الله تعالى أن يزيل كل الآثار بل يبدّل السيئات الى حسنات ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠).

٤- قد يقال بأننا نرى أمماً فاسقة معرضة عن الله تعالى وهي تتنعم بالرفاهية والعيش الرغيد وهذا خلاف السنة المذكورة، وجوابه بوجوه:

أ/ ربما كان نعيمهم هذا جزاءاً لالتزامهم ببعض القيم الإنسانية التي يحبّها الله تعالى كما ينقل عنهم ـ وهذه من ميراث الأنبياء والعلماء الصاحين الذين

---

(١) ميزان الحكمة: ٤٦/٩ عن مكارم الأخلاق: ٥٠٥/١ ح ١٧٤٧

(٢) بحار الأنوار: ٣٠١/٧٨ ح ١

(٣) غرر الحكم: رقم ١٥٢٢

(٤) ميزان الحكمة: ٣٧٠/٣ عن المحجة البيضاء: ١٦٠/٨

أسّسوا ـ فما يتنعمون به ليس خارجاً عن هذه السنة الإلهية بل دليل عليها.

ب/ إنهم مرّوا بكوارث كثيرة كالحربين العالميتين اللتين أزهقتا أرواح حوالي مئة مليون من البشر والحروب الداخلية الطاحنة التي استمرت قروناً، وانتشار الأوبئة الفتاكة، فالنظر إلى نعيمهم الحالي فيه قصور واقتصار على حلقة يسيرة من زمن طويل.

ج/ ان في هذا استدراجاً لهم واغراءاً ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القلم: ٤٤) لاستحقاق المزيد من العذاب ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران: ١٧٨).

٥- وقد يصاغ الاشكال في الجانب الآخر فيقال بأننا نرى أشخاصاً مؤمنين ملتزمين بالشريعة قد ضيق عليهم في المعيشة وابتلوا بمصائب متنوعة، وجوابه: أن ظاهر الآية الكريمة أنها تقرّر هذه السنة بلحاظ مجموع الأفراد أي الأمم والمجتمعات وأنها كلما صلحت وتحلّت بالفضائل وأقامت نظاماً صالحاً عادلاً أغدقت عليها النعم لأنها ستكون نتيجة طبيعية لهذا الصلاح ولا يتحقق هذا النظام الا بتطبيق الشريعة الإلهية والواقع يشهد بذلك فالنتيجة حتمية.

لكن هذا لا يعني عدم جريانها في حق الأفراد أيضاً لكن على نحو الاقتضاء لا العلّية كما في المصطلح أي أنها تقبل الاستثناء ويمكن أن تتخلّف النتيجة، اذا وجد مانع فيه مصلحة للفرد نجهلها، ولولا هذا المانع لأوجب الاستغفار هذه النتيجة جزماً، اذ قد يكون الأصلح للعبد أن يمرَّ بهذا الضيق

لتكامله ورفعة درجاته أو لتحصيل شيء أفضل مما كان يطلبه فيضحي بالقليل من أجل الكثير كما في الآية الشريفة ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦) وفي دعاء الافتتاح (ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور).

ومما يدلّ على جريانها للأفراد تعليم الأئمة (عليهم السلام) مضمونها لمن طلب الولد أو السعة في الرزق، فقد روى الشيخ الصدوق في الفقيه عن الامام السجاد (عليه السلام) أنه قال لبعض أصحابه: (قل في طلب الولد: رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين واجعل لي من لدنك وليا يرثني في حياتي ويستغفر لي بعد موتي واجعله لي خلقا سويا، ولا تجعل للشيطان فيه نصيبا، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك إنك أنت الغفور الرحيم " سبعين مرة، فإنه من أكثر من هذا القول رزقه الله تعالى ما تمنى من مال وولد ومن خير الدنيا والآخرة، فإنه يقول: استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهار)[1].

وفي الكافي بسنده قال (شكا الأبرش الكلبي إلى أبي جعفر (عليه السلام) انه لا يولد له فقال له: علمني شيئا قال: استغفر الله في كل يوم أو في كل ليلة مائة مرة فإن الله يقول: (استغفروا ربكم انه كان غفارا) إلى قوله (ويمددكم بأموال وبنين))[2].

---

(١) من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق - ج ٣ - الصفحة ٤٧٤

(٢) الكافي: ٦ / ٨ح ٤، نور الثقلين: ٢٥٦/٥ ح ١٠ ، البرهان: ٤٠/١٠ ح ١

وفيه أيضاً بسنده عن سعيد بن يسار قال: قلت لابي عبدالله (عليه السلام): **لا يولد لي**، فقال (عليه السلام) (استغفر ربَّك في السحر مائة مرة، فان نسيته فاقضه)[1].

(١) الكافي: ٦/٩ ح٦، البرهان: ١٠/٤٠ ح ٣

القبس/٢١٤

النبأ: ﴿٩﴾

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾

كثيرة هي نعم الله تبارك وتعالى على العباد جلّت عن العد والإحصاء ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤) (النحل: ١٨) وإن كثيراً منها مغفول عنها، يتنعّم بها الناس من دون التفات إليها؛ للجهل بها أو لاعتيادها، وقد يعرفونها ويدركون قيمتها لكنهم يجحدون المنعم والمسبب الحقيقي ويتشبثون بالأسباب المادية الظاهرة، ومنها نعمة[1] النوم ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ (الفرقان: ٤٧) حيث تتعطل الكثير من الحواسّ والأعضاء عن وظائفها ويدخل الإنسان في حالة سبات أي حالة انقطاع عن العمل وتعطيل الحركة من أجل الراحة والاستجمام ويحصل بسببه تجديد النشاط، مما يعني أن حركةً ما تحصل خلال النوم حتى أن المريض يجد تحسّناً في حالته، وقد أفادت بعض المصادر العلمية بأن

---

(١) ونذكر هنا باختصار من فوائد النوم بحسب ما ورد في عدة مصادر علمية متخصصة فقالوا: إن الحصول على القدر الكافي من النوم له أهمية في المحافظة على قوة الجهاز المناعي، إذ وجدت الدراسات أن قلة النوم تجعل الإنسان أكثر عرضة للإصابة بالأمراض المختلفة كالانفلوانزا. وأنه يقلل خطر الإصابة بأمراض السكر والقلب والضغط والسمنة. وأنه يحسّن من إنتاجية الشخص وتركيزه في عمله. ويحافظ على كفاءة التواصل بين الخلايا العصبية ويطرد السموم المتراكمة في الدماغ خلال اليوم. ويقلل من التوتر العصبي ويقوّي الذاكرة ومراكز صنع القرار. يحسّن المزاج ويحافظ على التوازن العاطفي تجاه الحوادث.

(الإنسان لا يستطيع الإدمان في الشغل وترك النوم لأكثر من عشرة أيام، ثم الموت قطعاً)[(١)].

والآية الكريمة تقع ضمن سلسلة من الآيات تبدأ بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ (النبأ: ٦-٩) إلى آخر الآيات، فالسؤال ليس فقط لمجرد إلفات النظر إلى هذه النعم حتى يؤدي الإنسان حق شكرها، وإنما للاستدلال بهذه الآيات الكونية والأنفسية ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣) على عظمة الله وسعة رحمته وحكمته وقدرته على البعث والنشور بهذا الخلق في الحياة الدنيا ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الإسراء: ٥١) ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٨-٧٩)، ولِنَقل الإنسان إلى عوالم معنوية لا يدركها إلا من خلال هذا التأمل والتدبّر في آيات الله تعالى.

فالآية الكريمة تستنطق الفطرة وتستثير الضمير بهذه التساؤلات ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً..﴾ وتُشهد العقل ليكون الإيمان بالله تعالى راسخاً لأنه عن

---

(١) الفرقان في تفسير القرآن: ٢٩/ ٢٩٦. النوم والإنامة (هيبنوتيزم: ١٢).

وعي ومعرفة وتأمل، فإن هذه الآيات كافية للوصول إلى العقائد الحقة، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (الروم: ٢٣) فكما أن الحركة والنشاط والسعي في الأرض من آيات الله تعالى، فإن السبات آية أخرى.

وإن في النوم والاستيقاظ بعده مثالاً يقرّب حالة الموت والبعث بعده لأن النوم موت مصغّر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٦٠).

لذلك يذكّرنا أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذه النعمة وهو يدعو في كل صباح: (يا من أرقدني في مهاد أمنه وأمانه، وأيقظني إلى ما منحني به من مننه وإحسانه، وكفّ أكفّ السوء عني بيده وسلطانه)[1].

ويدرك قيمة هذه النعمة المحتاج إليها أكثر من غيره كالذي حصل في معركة أحد للمسلمين المهزومين المثقلين بالقتل والجراح وتأنيب الضمير ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، وكذا قبيل معركة بدر حينما أرعبهم جيش المشركين بتفوقه في العدة

(١) مفاتيح الجنان: ١٢٦، دعاء الصباح. بحار الأنوار: ٨٤/ ٣٣٩، عن كتاب الاختيار.

والعدد قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ (الأنفال: ١١).

وقد لا يعرف الإنسان قيمة هذه النعمة حتى مع تذكيره بها لكنه إذا تصوَّر أنه كم مريض قضى ليلته وهو يتقلّب على فراشه من الألم، وكم من مسجون طال ليله وهو يعاني قسوة التعذيب بأيدي الجلادين، وكم من مهجّر أو مسافر زاده الليل اضطراباً وهو في وحشة الطريق ومفارقة الأهل والأوطان، وكم من خائف فاقدٍ للأمن والاستقرار يُرعبه الليل الثقيل حتى ظن أنه لا ينقضي، وكم من جندي يقاتل الأعداء لا يستطيع أن يطبق جفونه خوفاً من مباغتة العدو، وكم من شخص قضى ليلته هذه في قبره وحيداً فريداً تخلّى عنه الأهل والأحباب وبقي مرتهناً بعمله، وأنت معافى من ذلك كله تتمتع بنومة هادئة هنيئة، وتستيقظ معافى.

هذه الحالة التي يصفها دعاء الجوشن الصغير المروي عن الإمام الكاظم (عليه السلام) وفيه قوله: (إلهي، وَكَم مِنْ عَبْدٍ أَمْسى وَأَصْبَحَ خائِفاً مَرْعُوباً مُشْفِقاً وَجِلاً هارِباً طَرِيداً مُنْجَحِراً فِي مَضِيقٍ وَمَخْبَأَةٍ مِنَ المَخابِي قَدْ ضاقَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ بِرُحْبِها، لا يَجِدُ حِيلَةً وَلا مَنْجى، وَلا مَأْوى، وَأَنا فِي أَمْنٍ وَطَمْأَنِينَةٍ وَعافِيَةٍ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ، فَلَكَ الحَمْدُ يا رَبِّ مِنْ مُقْتَدِرٍ لا يُغْلَبُ، وَذِي أَناةٍ لا يَعْجَلُ، صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَاجْعَلْنِي لِنَعْمائِكَ مِنَ الشّاكِرِينَ، وَلآلآئِكَ مِنَ الذّاكِرِينَ)[1]، وفي هذا الدعاء فقرات كثيرة تنتهي كلها بهذه الصلوات والشكر.

ويرتبط النوم بالليل ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ

---

(١) مفاتيح الجنان: ٢٠٢، دعاء الجوشن الصغير. بحار الأنوار: ٩١/ ٣٢٢-٣٢٣.

مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النمل: ٨٦)◉ وقد توصّل العلم الحديث إلى حقيقة أن النوم في الليل هو الذي يحقق الغرض التام من النوم للأعصاب وسائر الأعضاء الأخرى كتعزيز الجهاز المناعي وتنظيم السكّر وزيادة التركيز والحيوية والمحافظة على الوزن. لذلك فإن الذين يسهرون في الليل وينامون في النهار كالحراس الليليين أو العابثين[1] بالأجهزة الإلكترونية لا يحصلون على نفس النتائج بغضّ النظر عن أهل المقام المحمود الذين ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (الذاريات: ١٧) فإن لهم عالمهم الخاص، لذا يذكّرنا الله بهذه النعمة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص: ٧٢).

فهل يحتاج المشككون في الخالق العظيم إلى أزيد من هذا؟

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (النحل: ٧٢).

---

(١) ذكرت المصادر العلمية أن من أضرار السهر:

تعب العقل فلا تعمل بكفاءةٍ، وتصبح الأخطاء في الأداء والدراسة والعمل أكثر شيوعاً. والشعور بالنعاس طوال النهار وفقدان النشاط والحيوية، العصبية والانفعال والعدوانية في التصرفات. والصداع المؤلم والمزعج. ونسيان المعلومات، حيث يعمل النوم على حفظ المعلومات التي يتلقاها الإنسان خلال يومه. والتأثير على عمل ونشاط القلب، فيؤدي السهر المتكرر إلى تقليل نشاطه.

اضاءات قرآنية (١)

لطيفة قرآنية: لا توقف في عمل المؤمن الرسالي

ولنأخذ مثلا على ذلك من سيرة النبي نوح (عليه السلام) فأنه استمر في دعوة قومه إلى الله تبارك وتعالى تسعمائة وخمسين عاماً ولم يتوقف أو يتواني في عمله رغمعنادهم واستكبارهم عن قبول الحق جيلاً بعد جيل[١] حتى أنزل الله تبارك وتعالى قوله ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (هود: ٣٦) و قد دلّت[٢] الروايات على انه حينئذٍ دعا على قومه قائلاً ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح:٢٦-٢٧).

وبالمقابل فان الروايات[٣] دلّت على ان ما أصاب النبي يونس (عليه السلام) الذي حكاه الله تعالى بقوله ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي

---

(١) روى السيوطي في الدر المنثور: ٢٨٩/٩) (أنه كان يذهب الرجل بابنه الى نوح فيقول لابنه: احذر هذا لا يغرّنك فأن أبي قد ذهب بي وأنا مثلك فحذّرني كما حذّرتك).

(٢)) نقلها في نور الثقلين: ٧١١/٢، تفسير سورة هود، حديث ٦٤ عن روضة الكافي، حديث ٦٥ و٦٧ عن تفسير علي ابن إبراهيم، وحديث ٦٦ عن علل الشرائع.

(٣)) عن نور الثقلين ٢٧١/٣حديث ١٣٦ عن عيون اخبار الرضا .

الْمُـؤْمِنِينَ﴾ (الأنبيـاء: ٨٧- ٨٨) انما حصل لأنه لما أخبره الله تعالى انه سينزل العذاب على قومه هجرهم وترك المدينة ولم يستمر بدعوتهم إلى التوبة لعل العذاب يكشف عنهم ثم انهم تابوا وتوسلوا إلى الله وتعالى فرفع عنهم العذاب فلما رجع إلى قريته ووجدهم أحياء وأمورهم طبيعية ذهب عنهم مغاضباً خشية اتهامهم إياه بالكذب لإنه (عليه السلام) اخبرهم بنزول العذاب جزماً.

ولعل من اسرار تشريع قراءة (وذا النون) في صلاة الغفيلة كل ليلة هو لإلفات نظرنا الى هذه الحقيقة وان علينا ان نستغفر من هذا الشعور بالإحباط واليأس والضجر والكسل ونعترف بخطئنا وظلمنا أنفسنا وحينئذٍ يأتي الله تعالى بالفرج والنجاة.

وقد تجسَّد القلب الكبير وروح المثابرة والمصابرة والمجاهدة بأسمى صورة الى حد التضحية من اجل الارتقاء بالإنسان في أفق السعادة والكمال في النبي محمد وآله المعصومين الطاهرين (صلوات الله عليهم اجمعين).

فقد منَّ الله تعالى على هذه الأمة بالنبي الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كلُّه رحمة للعالمين و كلُّه رأفه بالأمة وحرص عليهم، قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤)

وهكذا كان الائمة الطاهرون (صلوات الله عليهم اجمعين) من

بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يدخِرون أي جهد او إمكانية ويُضّحون بأنفسهم من اجل هداية الأمة وصلاحها ونجاتها من شقاوة الدنيا والاخرة.

روى الشيخ الكليني بسنده عن الامام موسى بن جعفر (عليهما السلام) قوله (ان الله عز وجل غضب على الشيعة فخيّرني نفسي او هم، فوقيتهم والله بنفسي) (١).

ولا يعني الحديث مثل ما تقوله النصارى من أن عيسى (عليه السلام) صُلِبَ ليفتدي أمته من العذاب على الذنوب والمعاصي مما دفعهم الى ارتكاب الكبائر والموبقات باعتبار ان نجاتهم مضمونه وصكوك الغفران جاهزة، وهذا معنى باطل لقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر:٣٨) وغيرها من الآيات الكثيرة.

وانما يمكن فهم الحديث على أكثر من معنى، أحدها: أنَّ كثيراً من الشيعة قد ضَعُف ارتباطهم بالإمام، وقد انغمسوا في حب الدنيا واتّباع الشهوات، وضعُف ورعهم وتقواهم والتزامهم بأحكام الدين، فاستحقوا بذلك البلاء لكن الامام (عليه السلام) اختار ان يمضي في طريق الشهادة ولا يسأل الله تعالى الفرج وخروجه من السجن، ليحدث صدمة في ضمير أتباعه حتى يرجعوا الى ربهم فيندموا ويستغفروا ويشعروا بتقصيرهم ويحاسبوا أنفسهم فيثوبوا الى رشدهم وإيمانهم ويصحوا من غفلتهم وهذا أحد الأسباب التي دعت الإمام الحسين (عليه السلام) للخروج بحسب فهم السيد الشهيد الصدر الأول (قدس سره) ودعته هو (قدس سره) للعزم

(١) أصول الكافي: ١/٢٦٠، باب ان الائمة يعلمون متى يموتون، ح٥.

على الشهادة.

فكان على الأمة أن تستيقظ من نومها وتفزع الى قادتها وتطيعهم فيما يأمرونها به حتى تستفيد أكثر من الوجود المبارك للإمام (عليه السلام) نسأل الله تعالى ان ينبّهنا من نومة الغافلين ويجعلنا من أهل البصيرة اليقظين بفضله وكرمه.

اضاءات قرآنية (٢)

المرأة والمعارف القرآنية

لا شك إن الأحاديث الشريفة التي بيّنت فضل حملة القرآن وثواب تعلّمه مطلقةٌ، وتشمل الرجال والنساء على حد سواء، كقول النبي (صلى الله عليه وآله): (أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)[1] وقوله (صلى الله عليه وآله) (خياركم من تعلّم القرآن وعلّمه)[2] وقوله (صلى الله عليه وآله): (لا يعذّب الله قلباً وعى القرآن)[3]، وقد منَّ الله تعالى عليكنّ بهذا الفضل العظيم وهو تعلم القرآن فاشكرن الله تعالى عليه وحافظنَّ على هذه النعمة بالاستمرار عليها.

وأنتم الآن تطوون المسافة في النصف الأول من الطريق وهو (تعلّم القرآن) بالتدبّر والتأمل في معانيه، ومعرفة القواعد العامة للتفسير، والتزود بالأدوات التي تمكنّكم من تفسير الآيات الكريمة وفهم المراد منها، الى أن تصبح عندكم القابلية للانتقال الى النصف الثاني وهو تعليم القرآن وتفسيره، وإيصال ما ينفتح لكم من معانيه الى الناس، ليكتمل العطاء الإلهي وتكونوا من خيار الناس كما في الحديث السابق.

ولا شك أن الإحاطة بمعاني القرآن مستحيل على امثالنا، لان معاني القرآن لا حدود لها، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ

---

(١) وسائل الشيعة :١٦٧/٦-١٦٨.

(٢)وسائل الشيعة:١٦٧/٦-١٦٨.

(٣) وسائل الشيعة:١٦٧/٦-١٦٨.

الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف : ١٠٩) وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان : ٢٧) وبحسب الظاهر فأن ألفاظ الكلمات لها عدد محدود، لان عدد الحروف محدود، وكذلك عدد حروف كل كلمة، ويعرف بقوانين الاحتمالات مجموع عدد الكلمات في اللغة العربية مما استقصته المعاجم اللغوية، فكيف تقول الآية إن كلمات الله تعالى سبحانه لا نفاد لها؟

وقد عرضتُ وجوهاً لتفسيرها، أحدها أن المراد معاني كلمات الله تعالى أي بتقدير مضاف فإنها لا تنفد، بل تتجدد وتتكثر كلما ازداد الوعي وتعمّق العلم وتطورت الحياة واتسعت شؤونها وقضاياها، وقد عبَّر أمير المؤمنين (عليه السلام) عن هذه الصفة للقرآن بقوله: (لا تفني عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به)[1].

وإنما نتحدث عما يتيسر لنا من فهم كتاب الله تعالى، وما يفتح الله تعالى علينا من معانيه، وهو لا ينال فقط بالدراسة والتعلم، بل يحتاج الى اخلاص وصفاء النفس، وقد ذكر السيد الشهيد الصدر(قدس سره) في بعض رسائله في(قناديل العارفين) ان من علامات اهل السلوك الصالح الى الله سبحانه أنه سبحانه ينفتح لهم عدة وجود ومعانٍ للآيات الكريمة، قال السيد الحكيم(قدس سره) في كتابه حقائق الأصول: ((حدَّث بعض الأعاظم دام تأييده - أنه حضر يوما منزل

(١) بحار الأنوار: ج ٢/ ص ٢٨٤.

الآخوند (ملا فتح علي[١] قدس سره) مع جماعة من الأعيان منهم السيد إسماعيل الصدر (ره) والحاج النوري صاحب المستدرك (ره) والسيد حسن الصدر دام ظله فتلا الآخوند (ره) قوله تعالى: (واعملوا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الايمان... الآية) ثم شرع في تفسير قوله: تعالى فيها: حبب إليكم... الآية وبعد بيان طويل فسرها بمعنى لما سمعوه منه استوضحوه[٢] واستغربوا من عدم انتقالهم إليه قبل بيانه لهم، فحضروا عنده في اليوم الثاني ففسرها بمعنى آخر غير الأول فاستوضحوه أيضا وتعجبوا من عدم انتقالهم إليه قبل بيانه، ثم حضروا عنده في اليوم الثالث فكان مثل ما كان في اليومين الأولين ولم يزالوا على هذه الحال كلما حضروا عنده يوما ذكر لها معنى إلى ما يقرب من ثلاثين يوما فذكر لها ما يقرب من ثلاثين معنى وكلما سمعوا منه معنى استوضحوه، وقد نقل الثقات لهذا المفسر كرامات قدس الله روحه))[٣].

وأمام هذا التجدد والتكثر لمعاني القرآن لا يجوز لنا التوقف عند فهم جيل معين والاكتفاء بما أبدعه السلف الصالح الى زماننا المعاصر من تفاسير، وينقل عن السيد الطباطبائي (قدس سره) صاحب تفسير الميزان انه كان يقول ان الامه

---

(١) وهو الميرزا علي محمد النجف آبادي، قال عنه تلميذه الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (اعلى من حضرت عليه في الحكمة والعرفان العارف الإلهي الذي كان أكبر أساتذة الحكمة والعرفان وكان درسه في (الأسفار) ولكنه يتّفجر بينابيع الحكمة) (عقود حياتي:٥٩-٦١).

(٢) أي وجوده واضحاً وظاهر الانطباق على الآية.

(٣)حقائق الأصول: ج ١ /ص ٩٦.

بحاجة الى تفسير جديد للقرآن كل سنتين، يعني أنه خلال إنجازه لتفسير الميزان الذي استغرق عشرين عاماً لا بد أن تصدر عشرة تفاسير منوعة.

إذن علينا أن نتعب أنفسنا في تهيئة المقدمات التي تمكننا من فهم كتاب الله تعالى وروايات أهل البيت (عليهم السلام) وتحمّل علومهم، لنكون ممن شملهم دعاء الإمام (عليه السلام) بالرحمة فيما رواه الشيخ الصدوق في معاني الأخبار بسنده عن الهروي (قال: سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: رحم الله عبد أحيا أمرنا فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟ قال: يتعلم علومنا ويعلمها الناس)[(١)] فهاتان نفس المرحلتين اللتين ذكرهما النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهما التعلّم اولاً والتعليم ثانياً.

وعلومهم (عليهم السلام) لا تختص بالأحكام الشرعية المعروفة بالفقه في المصطلح المتداول، وإنما تشمل كل علومهم وعلى رأسها تفسير القرآن، فقد وردت عنهم فيه آلاف الروايات ، وخصصوا جملة من أصحابهم لهذا العلم كعبد الله بن عباس في الصحابة وسعيد بن جبير في التابعين وجابر الجعفي في تابعيهم، حتى يستفيد منهم الناس الذين حرموا من بركات الاتصال المباشر بأهل البيت(عليهم السلام)، بسبب التشويه والتضليل والحصار والمقاطعة والعقوبات القاسية لمن يرتبط بهم (عليهم السلام)، لكنهم (عليهم السلام) لم يتركوا الأمة وإن اعرضت عنهم تأسياً بجدهم المصطفى(صلى الله عليه وآله وسلم) الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة : ١٢٨) فكانت هذه إحدى طرق

(١) بحار الأنوار: ج ٢ /ص ٣٠.

تواصلهم مع الأمة.

وقابليات المرأة العقلية والذهنية والمعرفية لا تقلّ عمّا عند الرجل، فيمكنها المشاركة في هذا الجهد المبارك أذا أتت البيوت من أبوابها، واتقنت المقدمات المطلوبة.

وأنصح الأخوات أن يتوجهن بعد تحصيل القدرة على فهم معاني القرآن وتفسير آياته على نحو الترتيب في المصحف والمعروف بالتفسير التجزيئي، الى تطبيقها على نحو التفسير الموضوعي فيعالجن برؤية قرآنية قضايا اجتماعية وتربوية واخلاقية وحقوقية وتشريعية تعني المرأة، وهي كثيرة في القرآن الكريم يمكن تشخصيها بمساعدة الأساتذة المتخصصين، وأشرت الى كثير منها في تفسير (من نور القرآن).

وانني أرى أن هذا المنهج في التفسير أكثر عطاء وتركيزاً على القضايا والمشاكل والمعالجات وإجابة الأسئلة، ويمكن أن تتصدى مجموعة من الفاضلات لمعالجة قضية معينه وفق الرؤية القرآنية ثم تجمع هذه الجهود المباركة لنحظى بتفسير متميّز.

وأجد نفسي متفائلاً بقطف هذه الثمرة المباركة مع توفر الرغبة الأكيدة والهمة العالية والإخلاص والمثابرة وتعاون الجميع، فقد وعد الله تعالى المؤمنين بالنصر والتثبيت والتأييد إن هم نصروه في أي مجال وبأي شكل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧) .

ملحق

الذاريات: ﴿٥٠﴾

اضاءات قرآنية (٣)

الحج وصدق الفرار الى الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الذاريات: ﴿٥٠﴾) وهو أمر بالفرار إلى الله تعالى وقد شرحنا ذلك في قبس سابق[1] ضمن عدة نقاط ويمكن مراجعتها، مثلاً إن الآية ذكرت الفرار إلى الله تعالى ولم تذكر ممن الفرار؟ وأجبنا إن الفرار منه سبحانه أيضاً وليس في ذلك أي تناقض فنحن نفرّ من عدله إلى كرمه وتفّضله، ومن غضبه الى رحمته، وقد تضمنت الأدعية الشريفة هذه المعاني، كما في مناجاة الراغبين للإمام السجاد (عليه السلام): (وَها أَنَا....... فَارٌّ مِنْ سَخَطِكَ إلى رِضاكَ، هارِبٌ مِنْكَ إِلَيْكَ).

وقد دلّت الروايات الشريفة أن الحج هو من أعظم طرق الفرار إلى الله تبارك وتعالى، فقد روى الشيخ الكليني في الكافي والشيخ الصدوق في معاني الأخبار بالإسناد عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير الفرار الى الله قال: (حجّوا الى الله عز وجل)، وروى الشيخ الصدوق في الفقيه بسنده عن زيد الشهيد عن أبيه السجاد (عليه السلام) قال: (يعني حجّوا إلى بيت الله، يا بنيَّ إن الكعبة بيت الله، فمن حجّ بيت الله فقد قصد إلى الله) ويضيف الإمام (عليه السلام) توسعة لذلك لمن

---

(١) تفسير (من نور القرآن):٥/١٤-٢١.

لم يتيسر له الحج فقال (عليه السلام): (والمساجد بيوت الله فمن سعى إليها فقد سعى الى الله وقصد إليه)[1].

أن الحياة في ضيافة الرحمن وفي تلك الأراضي المقدسة من نعم الجنة التي عجلها الله تعالى لعبادة المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة ليريهم نعم الجنة وجداناً ويشوّقهم إليها.

فمدة السفر إلى الديار المقدسة أيام خالصة لله تبارك وتعالى شرفها الله تعالى وأكرمها بارتباطها به تبارك وتعالى، وقد أكدّ دعاء العشرة الأولى من ذي الحجة هذا المعنى (اللهُمَّ هذِهِ الأيامُ الَّتي فَضَّلتَها عَلى الأيامِ وَشَرَّفتَها وَقَد بَلَّغتَنيها بِمَنِّكَ وَرَحمَتِكَ) و المتوقع من الحاج الذي تجرد عن وطنه وأهله وأحبائه وماله ومنصبه وموقعه الاجتماعي أن يفرِّغ نفسه فيها لله تعالى، ويبدأ الاستعداد لهذه السفرة الإلهية قبلها بمدة فيبحث عن القافلة التي فيها مرشد ديني فاضل وورع وعامل، ومتعهد مخلص أمين، وأن يبرئ ذمته من حقوق الله تعالى و الناس المادية والمعنوية، ويسترضي خصومه، و ان يتفقه في مسائل الحج حتى يكون عارفاً بها من أولّها ولا يفوته شيء منها، فتجد من يحرِم من المطار ولا يلتفت الى أن التظليل بسقف الطائرة مخالفة شرعية، وأن يصحب معه ما يعينه على طاعة الله مما سنذكر إن شاء الله تعالى، ومما يستحب قبل السفر توفير الشعر من أول ذي القعدة وهكذا.

والفرار إلى الله تعالى له مراتب يحصل الحاج في بعض مراتبه العالية على

---

(١) راجع مصادر هذه الروايات في تفسير البرهان:١٣٤/٩.

نور يسددّه في حياته كلها، فكيف نحقق أفضل مراتب الفرار في هذا الموسم العبادي؟

١- الورع عن محارم الله كالغيبة والاختلاط غير المشروع بين الرجال والنساء والممازحة باعتبار طول الرفقة في السفر وتجنب مجالس البطالين والأحاديث الفارغة واللغو التي لا تخلو غالباً من المحرمات كالغيبة والغمز واللمز فالحجاج في ضيافة الرحمن وليسوا في مقهى أو على أرصفة الطرقات، وأن تلتزم النساء بمقتضيات الحياء والعفة ويتجنبنّ ما ينافيهما فإنهما رأس كل خير، قال تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(البقرة: ١٩٧).

٢- عدم إضاعة الوقت فيما لا نفع فيه كالتسكع في الأسواق والتفرّج على أنواع البضائع فيها ويكفيه شراء ما يتحف أهله ومحبيه من هدايا تبركاً من الديار المقدسة، واستثمار الوقت بما ينفع حاله كذكر الله تعالى فقد ورد عن رسول الله (ﷺ) في فضل التسبيحة الرباعية قوله: (من قال: سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ومن قال: الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة ومن قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة فقال رجل من قريش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير، قال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك أن الله عز وجل يقول: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا

تبطلوا أعمالكم."[(١)]

أقول: هذه النيران هي المعاصي كالغيبة وظلم الآخرين وايذائهم وغير ذلك.

٣- زيارة البيت الحرام يومياً والصلاة والدعاء فيه والإكثار من الطواف حول الكعبة وهو أفضل من إكثار الصلاة للحجاج الآفاقيين، وإن مجرد النظر إليها عبادة وان ينوب في هذه العبادات وغيرها عن المعصومين (عليهم السلام) ثم عن جميع المؤمنين ليتضاعف أجره بعددهم.

٤- الالتفات الى الأسرار المعنوية[(٢)] لشعائر الحج ومعانيها الحقيقية والأغراض المقصودة منها لتكتمل الاستفادة منها فان جوائز الحجاج على مراتب، أدناها لمن اقتصر على الشكليات قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ (الحج: ٣٧) وتوجد كتب مؤلفة في هذا المجال.

---

(١) بحار الأنوار ٩٠، ص١٦٨.

(٢) أتذكر انني في حج سنة ١٤٣١ كنت ألقي كلمة أخلاقية عن الآداب المعنوية للحج في إحدى القوافل تأثروا بها ومما ذكرت من أسرار الحج هو ابتداء الحج بعد الاحرام بالخروج الى عرفة وهي خارج الحرم وفيه رسالة أنكم لا تستحقون بأعمالكم إلا الخروج من حرم الله تعالى الآمن المبارك لكنهم بعد أن يصدقوا في الاستغفار والدعاء في عرفة وإكثار الذكر في مزدلفة يؤذن لهم بدخول الحرم في منى فيرجمون شياطين الجن والإنس وينحرون الأهواء والمطامع وشهوات النفس الأمارة بالسوء ويحلقون رؤوسهم اعلاناً للنصرة التامة لدين الله تعالى ثم يعودون الى البيت الحرام راضيين مرضيين.

٥- الالتزام بالصلاة في أوقات فضيلتها فمن المعيب أن ينام الحاج عن صلاة الصبح أو يؤخر صلاته عن وقت الفضيلة لانشغاله بأمور الدنيا.

٦- الحرص على حضور صلاة الجماعة التي يقيمها المرشدون، فإن فيها ثواباً لا يحصى وبركات لا تعدّ.

٧- المواظبة على الاستماع الى المحاضرات الدينية وحضور مجالس الوعظ والإرشاد وتعليم الأحكام الشرعية عموماً وما يتعلق بالحج خصوصاً.

٨- الإكثار من تلاوة القرآن الكريم فقد نزل على النبي (صلى الله عليه وآله) في هذه الأرض المباركة، وأن يعيش أجواء الآيات الكريمة وظروف نزولها وورد استحباب إكمال ختمة قرآن في مكة.

٩- أداء الصلوات المستحبة كالنوافل اليومية خصوصاً صلاة الليل فقد قال الله تعالى في جزاء من يؤديها ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(السجدة: ١٧) وصلاة جعفر الطيار في المشاهد المشرفة خصوصاً في ضحى يوم الجمعة، وصلاة ركعتين يوم الجمعة بين الظهر والعصر بالحمد والتوحيد سبعاً مع دعائها القصير، وصلاة أربع ركعات بالحمد والتوحيد ثلاثاً والمعوذتين كل أحد من ذي القعدة وبعدها الاستغفار والدعاء وصلاة ركعتين بالحمد وآية ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى﴾(الأعراف : ١٤٢) في العشر الأوائل من ذي الحجة، وصلاة أول الشهر حيث سيهلّ عليهم شهر الحجة وهم في الديار المقدسة وغير ذلك مما جرت عليه سيرة الصالحين.

١٠- وما دام الحاج ينوي الإقامة في مكة فإنه يستطيع الصوم من هذه

الناحية، فلا يفوته صوم الأيام المستحبة كيوم دحو الأرض وأول خميس من الشهر وآخر خميس والأربعاء في الوسط وصوم الخميس والجمعة والسبت من الأشهر الحرم ومنها ذو القعدة وذو الحجة، كما يستحب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذي الحجة.

١١- الإكثار من الأدعية المنصوصة في الأوقات المخصوصة وغيرها، أو ما يُنشئه الحاج نفسه مما يعبّر عن عمق صلته بالله تعالى وشدة فقره واحتياجه إلى فضله وإحسانه تبارك وتعالى.

١٢- مطالعة كتب المناسك للتفقه في أحكام الحج وأدائها بأحسن كيفية والسؤال عن الأحكام التي لا يعرفها.

١٣- أن يحسن معاشرة الآخرين وصحبتهم ويكون لطيفاً وودوداً ساعياً في خدمتهم قدر الإمكان ويؤثرهم على نفسه إن حصل تزاحم في أمر ما كالطعام أو المكان ولا يؤذيهم، وقد عقد صاحب الوسائل كتاباً مفصلاً لروايات أهل البيت (عليهم السلام) في آداب العشرة قبل الدخول في مسائل كتاب الحج.

١٤- وتوجد مستحبات خاصة بمناسك الحج كاستحباب الإحرام من المسجد الحرام للخروج الى الحج وإن كان الإحرام من المنزل مجزياً وغير ذلك مما ذكرته كتب المناسك، وقد يصعب أداء بعضها بسبب تنظيم حركة القوافل وحفظ الحجاج من الضياع كالمبيت ليلة عرفه في منى وكذا الليلة الثالثة عشرة لمن لم تجب عليه فلا بد من الاتفاق بين المتعهد والمرشد الديني.

١٥- إظهار وحدة الشعب واستثمار هذه الفرصة حيث يجتمع الحجاج

من كافة الطوائف والقوميات والمناطق وتذويب جميع الخلافات والتذكير بالقواسم المشتركة التي أرادها الله تعالى ورسوله (ﷺ) ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران: ١٠٣).

١٦- الاهتمام بقضايا المسلمين جميعا في شرق الأرض وغربها والتعاطف معهم والمساعدة في حل مشاكلهم ولو بكلمة مواساة او نصيحة أو بنقل مشاكلهم الى المعنيين، وتبادل الرؤى النافعة مع جميع المسلمين قال الله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾(الحج: ٢٨).

ملحق

التوبة: ١٢٢

اضاءات قرآنية (٤)

التبليغ رسالة الأنبياء (عليهم السلام) التي ورثتها الحوزة العلمية

أكّد المرجع الديني سماحة الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) على ضرورة النظر بعين الاهتمام والمسؤولية للجنبتين المتلازمتين اللتين دعت إليهما آية (النفر) الشريفة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢)، وعدم التفكيك بينهما بحالٍ من الأحوال، وهما طلب العلم والدعوة إلى الله وتبليغ أحكامه.

وتأسّف سماحتُهُ (دام ظله) - خلالَ كلمةٍ ألقاها بمكتبهِ في النجف الأشرف، على جمعٍ من الفضلاء وطلبة العلم، قبل شروعهم بمهمة التبليغ الديني، خلال أيام الزيارة الاربعينية المباركة- على الثقافة السائدة في أوساط الحوزة العلمية وبين الكثير من طلبة العلم حيث يُقصِرون إهتمامهم على المسؤولية الأولى التي دعت اليها الآية الكريمة، وهي طلب العلم والتحصيل والاشتغال بالدروس فقط، دون النظر الى المسؤولية الأخرى، وهي الدعوة الى الله تعالى وتبليغ أحكام الدين والعقائد الحقة، وتوعية الناس وتبصرتهم.

وأعتبر سماحتُهُ (دام ظله) أن هذا النمط من التفكير يكشف عن قصورٍ في

فهم هذه الآية الكريمة وخللٍ في تطبيق مصاديقها على أرض الواقع، ومخالفةٍ لما أرادهُ الشارع المقدس عبر الموروث الروائي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، إذ ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن تلك المجالس أحبها، فأحيوا أمرنا، فرحم الله من أحيا أمرنا)[1].

وروى الهروي في عيون أخبار الرضا (عليه السلام) قال: (سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يقول: رحم الله عبد أحيا أمرنا فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟ قال: يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)[2].

فترى الملازمة بين الوظيفتين واضحة في بيان الإمام الرضا (عليه السلام)، وهذا من أوضح مصاديق تتمة الآية الكريمة ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، لافتاً الى عدم كفاية الانكِفاء على الدروس والتحصيل (لأن ذلك يمثل نصف الطريق، ولا تتحقق به الغاية أبداً) مالم يقترن بالفهم الصحيح لمسؤولياتنا كطلبة علمٍ، فلنلتزم بها ونتحرك باتجاهها، على أوسع نطاق وبكل الوسائل المتاحة (الممكنة).

وأوضح سماحتُهُ إن التبليغ هو رسالة الأنبياء (عليهم السلام) ووظيفتهم ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (الأحزاب:٣٩)، وفي ضوء ذلك ينبغي لطلبة العلم أن يقتدوا بهم

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٢٨٢، الحديث رقم ١٤.

(٢) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ٣٠ عن معاني الأخبار، عيون أخبار الرضا (عليه السلام).

(عليهم السلام) وأن يتحلّوا بالشجاعة وأن يخرجوا من ربقة القيود التي فرضتها التقاليد الموضوعة وأصبحت متعارفة الآن، ولا أساس شرعياً لها، بل هي خلاف سيرة المعصومين (عليهم السلام) وما جرى عليه الكثير من العلماء العاملين الذين قالوا كلمتهم وأخلصوا لله تبارك وتعالى ولم يضعوا نصب أعينهم الا الله عز وجل فَخَلُدَ ذِكرهم في سجل الخالدين، وما قيل أو يقال في تثبيط عزائم الحوزة العلمية، وتبرير قعودهم عن أداء رسالة التبليغ، وهمٌ من تسويلات الشيطان ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥)

وأبدى سماحته (دام ظله) أسفهُ لهذا الحال ولشيوع هذه (الثقافة) التي يعمل (البعض) على تكريسها فيجري عليها السواد الأكبر من طلبة العلم بطريقة السلوك الجمعي من دون تفكير أو تأمل.

وتساءل سماحتُهُ مستغرباً!! ألم يكن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خطيباً؟ ألم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام) خطيباً؟ ألم يكن الإمامان الحسن والحسين (عليهما السلام) خطيبين؟! إذن فلماذا يعتبر حديث العلماء المباشر مع الأمة نقصاً أو مثلبةً؟! ولماذا لا تسمع الامة مباشرةً من قادتها وتأخذ الكلام من عين صافية، وبين أيدينا الكثير من تراث الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وكان من جملة توصياته لقثم بن العباس عاملِهُ على مكة (ولا يكن لك الى الناس سفيراً الا لسانك ولا حاجباً الا وجهك)[1]، اي لتسمع الناس منكم مباشرة من دون واسطة تتحدث

(١) نهج البلاغة – ج ٣ – ص ١٢٧.

نيابة عنكم ونحو ذلك، وهذه هي سياسة أمير المؤمنين (عليه السلام) وهذا هو أدب المعصومين (عليهم السلام) الذي ينبغي السير على هداه والأخذ به.

وكرّر سماحتُهُ (دام ظله) دعوتهُ لاغتنام أجواء الزيارة الاربعينية المباركة في الدعوة الى الله تبارك وتعالى، وتوعيه الناس وإرشادهم ونبذ كل عوامل التفرقة والتقاطع، فقد أخذت الناس ترتقب هذه الزيارة من عام إلى عام وهي فرصة كبيرة للملايين لأن يلتقوا بطلبة الحوزة العلمية ويسمعون منهم مباشرةً ويشاهدون مواكب الوعي والإرشاد ويعيشون أجواء روحية سامية يفيضها الله تعالى كرامة لأبي الأحرار (عليه السلام) لأنهم منقطعون طول السنة عن مراكز الاشعاع الديني ومنشغلون بهموم الحياة.

كما أن هذه الزيارة المباركة أصبحت بفضل الله وبمرور الزمن ملتقىً عالمياً كبيراً تجتمع فيه مختلف الجنسيات والقوميات، وهي سوق رائجة للدعوة إلى الله وبث الوعي والمعرفة، مستشهداً بالحديث الشريف الذي روته السيدة الزهراء (عليها السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قالت سمعت أبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: (إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في إرشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف خلعة من نور، ثم ينادي منادي ربنا عز وجل: أيها الكافلون لأيتام آل محمد والناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم)[1].

وأشار سماحتُهُ الى الأمرين المهمين الواردين في الحديث وهما شرط

(١) بحار الأنوار – ج ٧ – ص ٢٢٥

الفوز بخلع الكرامات، وأولها (كثرة علومهم) وهذا وحده لا يكفي لتحقق المطلوب، بل يعود بالنفع على نفس الطالب بأن يصبح (علّامة) مثلاً، أو يُلقي الدروس العالية كـ(الكفاية والمكاسب) ويجتمع حوله عدد من الطلبة، كل هذا وحده لا يكفي، ما لم يتحقق الشرط الثاني وهو (جِدُهم في إرشاد عباد الله) وهذا هو الهدف الأهم والغاية من ذلك، ففي تتمة الحديث الشريف (أيها الكافلون لأيتام آل محمد، الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم، فهؤلاء الناس أيتام انقطعوا عن آبائهم الحقيقيين (يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة)[1]، وحُرِموا من بركاتهم.

ثم وجه سماحتُهُ خطاباً الى هذا التجمع من الفضلاء والى جميع أساتذة وفضلاء الحوزة العلمية الشريفة: (وأنتم أيها العلماء ورثة الانبياء كما جاء في الحديث الشريف (العلماء ورثة الأنبياء)، وأنتم أيضاً بمثابة الآباء لهذه الأمة وهؤلاء (أيتامكم) ويقعون تحت مسؤولياتكم، فبادروا ولا تدّخِروا وسعاً في هدايتهم ورعايتهم، فمن يدري لعل بعض هؤلاء (الأيتام) يستوقفنا يوم الحساب ويأخذ بتلابيبنا، ويقول أنا جارك أو أنا البقال الذي كنت تشتري منه أو: أنا سائق التكسي الذي كنت تستأجرُهُ أو أنا زميلك في العمل أو رفيقك في سفرة الحج، وقضينا أياماً معاً ولم تعلمني هذه المسألة ولم تصحّح لي الوضوء والصلاة ولم ترشدني الى هذا الخير، ولم تحذرني من ذلك السوء، ولم تذكرني بهذه الموعظة، ونحو ذلك.. وعلى ذلك يمكنكم أن تقيسوا غيرها،

(١) بحار الأنوار – ج ٣٦ – ص ١١.

فكم من شخص سيوقفنا يوم القيامة وسنسأل عنه، وعن حقه؟

وفي ختام كلمته دعا سماحته (دام ظله) المبلغين لأن تكون لهم نظرة ميدانية فاحصة بحيث يعرفون ما ينبغي التحدث به مع الزوار بمختلف أجناسهم وجنسياتهم وأعمارهم وانتماءاتهم، وبما يقتضيه الوضع الراهن والمناسبة والتحديات المعاصرة والمسائل والمشاكل المستحدثة فكرياً وعقائدياً واجتماعياً وأخلاقياً، وعلى رأس هذه الأمور حثّ الناس على إقامة صلاة الجماعة في كل أوقات الصلاة، وشرح الأحكام الشرعية الأساسية كالوضوء والصلاة ووجوب الرجوع إلى المرجع الديني الجامع للشرائط في سائر الأمور، مضافاً إلى كلمات الموعظة والإرشاد والتوجيه بما ينفعهم في ظل الفتن المتتالية على العالم الإسلامي، حتى لايكونوا فريسة للمطامع الشبهات والمزالق.

وأن يقرأوا حركة الإمام الحسين (عليه السلام) بوعي وبصيرة ونحن نصفه (عليه السلام) في الزيارة الأربعينية بأنه (بَذَلَ مُهْجَتَهُ فيكَ لِيَسْتَنْقِذَ عِبادَكَ مِنَ الْجَهالَةِ وَحَيْرَةِ الضَّلالَةِ)[1] فلا يصح أن تعود الملايين من زيارته (عليه السلام) وهي خالية من الزاد الروحي.

كما أوصى سماحته (دام ظله) بالتذكير بالأمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) والتعريف بقضيتهِ المقدسة وسُبل إحيائها، والتمهيد لها بالشكل الصحيح وتفنيد الادعاءات التي تنسب له بشكل أو بآخر.

---

(١) مفاتيح الجنان – الزيارة الاربعينية.

اضاءات قرآنية (٥)

الرد الحاسم على أعداء القرآن الكريم

شكر الله تعالى جهود كل الذين دفعتهم غيرتهم على المقدسات إلى المساهمة بإخلاص في الفعاليات المتنوعة للدفاع عن القرآن الكريم وإظهار مكانته السامية، ونرجو أن يدخلهم الله تعالى في شفاعة القرآن فإنه (شافع مشفَّع) أي مقبول الشفاعة قطعاً كما في الحديث الشريف، و أن يقودهم إلى رضوان الله تعالى، وهو بنفس الوقت (ماحل مصدّق) أي خصم لا تُردُّ دعواه و مصدَّق في حجته غالب على من يحاول الإساءة إليه ويصدّ الناس عن الاهتداء به، فالخزي والذل والهوان لكل من انتهك حرمة القرآن سواء كانوا حكومات أو مؤسسات أو افراد، فقد فضحتهم أفعالهم هذه وأظهرت وجوههم القبيحة ونواياهم الخبيثة التي طالما زيّنوها بشعارات برّاقة مزيفة كالحرية وحقوق الإنسان والتعبير عن الرأي وغير ذلك، لكن النار لما تصل إليهم كما في اضطرابات فرنسا الحالية تنقلب مواقفهم إلى النقيض فيطالبون بمحاسبة الآباء بدعوى أنّهم لم يربّوا أولادهم المشاركين في الاحتجاجات، وبنفس الوقت هم يمنعون الآباء من تأديب أولادهم بحجة العنف الأسري ويسحبونهم منهم ، وهذا من تناقضات حضارتهم البائسة، فالحمد لله الذي فضحهم وأكذب أحدوثتهم.

لكن على المؤمنين أن يلتفتوا إلى أن الأعداء يراهنون على أن تقتصر ردود الأفعال على حدود العواطف والانفعالات الثورية التي لا تدوم فيعودون إلى أفعالهم الشنيعة مرة أخرى لأنهم ماضون في حربهم على الإسلام بل على

الفطرة الإنسانية ، وما هذه التفاهات التي تثار هنا وهناك الا حركات استفزازية ضمن هذه الحرب المسعورة ، وهم مصرّون على تنفيذ مشاريعهم الشيطانية التي تريد إلهاء الناس و تحويلهم إلى قطيع من الحيوانات لا تفقه من الحياة شيئاً إلا تلبية غرائزها وشهواتها، ويبقون هم متحكمين في مصير البشرية، لذلك فإنهم يجدون في القرآن الذي يوقظ البشر وينبههم من غفلتهم ويهديهم إلى المبادئ السامية، ويعتمده المسلمون دستوراً لهم ، وفي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام) الذين يترجمون رسالة القرآن إلى واقع عملي يجدون فيهم عدّوهم اللدود الذي يجب القضاء عليه وفصل الناس عنه.

فعلينا أن نتخذ مواقف وإجراءات حازمة ضمن إستراتيجية ثابتة واضحة الأهداف، لنحوِّل جرائمهم إلى انتصار وتقدّم حقيقي للإسلام، فإن أعداءنا حمقى مع خبثهم ومكرهم ولا يعلمون إن أية قضية يزيدون الطرق عليها فإنها تثبت وتستقر أكثر، وتزداد وضوحاً ويقيناً، وتدفع المؤمنين إلى ترسيخها والدفاع عنها وإجابة كل الشبهات المثارة عليها، كما حاولوا طمس الهوية الإسلامية وإسقاط حجاب المرأة، ونشر الرذيلة في المجتمع من خلال الترويج للإلحاد والشذوذ الجنسي وزواج المثليين مخالفين بذلك الفطرة الإنسانية وليس الدين فقط، فانقلبت عليهم بالضد وزاد تمسك المسلمين بهويتهم وإيمانهم، وحاولوا محو الشعائر الدينية والسخرية منها فازداد تعلق المؤمنين بها حيث ترى الملايين من أصقاع العالم يؤدون مناسك الحج ويحضرون في المساجد ويتلون القرآن ، كما انتعشت مسألة الإمامة وولاية أهل البيت (عليهم السلام) والشعائر الحسينية وأمثالها بكثرة الطرق عليها.

وهذا من لطف الله تعالى بعباده أن يحوِّل الأفعال الشرّيرة لبعض البشر إلى أسباب لصلاح الناس وتقوية الإيمان في نفوسهم، كما جعل الله تبارك وتعالى من فعلة بني أمية بقتلهم الحسين (عليه السلام) سبباً لانتشار الدين وهداية الناس به ودوامه إلى يوم القيامة.

إن الإسلام يمتلك القدرة الفائقة على التأثير في الناس، وإصلاح أشد الناس قسوة وهمجية كالمغول وغيرهم من الأمم المتوحشة التي اكتسحت بلاد المسلمين وعاثت فيها فساداً وقتلاً وتدميراً، لكنها سرعان ما آمنت بالإسلام وأذعنت له خلال مدة قصيرة، ويتحدث كثير من الذين اعتنقوا الإسلام من الأمم الأخرى عن كيفية تأثرهم بآية من آيات القرآن لأنها حلّت لهم مشكلة أو أجابت عن سؤال عويص ونحو ذلك، وأوجبت هذا التحول في حياتهم، كآية التوحيد التي فسّرت لهم انسجام الخلق، أو آية الخلود في الآخرة التي أعطت الثقة بأنفسهم بأنهم لم يخلقوا عبثاً وإنما لغاية، أو ما دلّ على إن الله معكم وإنه قريب من عباده يسمع دعاءهم ويقترب إليهم أكثر مما يقتربون إليه ونحو ذلك.

والمهم أن نكون نحن أبناء القرآن حمَلَةً حقيقيين له بأن نذوب فيه حتى يكون هو عيننا التي نبصر بها والأذن التي نسمع بها واللسان الذي نتحدث به وعقلنا الذي يملي علينا قراراتنا وقلبنا الذي ينبض بمشاعرنا في الحب والبغض، فهل عبدة العجل من بني إسرائيل أولى بالتعلق بمعبودهم الجماد الذي لا يضرّ ولا ينفع كما وصفهم الله تعالى ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ (البقرة : ٩٣)، أو الذي قال في كرة القدم أن حبها يجري في عروقي كالدم، وأمثالهم من

الذائبين في التفاهات، فهل هؤلاء افضل منا في أن نُشرِب في عروقنا حب الله تعالى واوليائه العظام وكتابه الكريم، حتى يكون هو المحرِّك لحياتنا؟ ولنعلم بان هذا الذوبان يحتاج الى مقدمات ومؤهلات وصحبه وتفاعل مع القران[(١)] كما في الحديث الشريف عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه ودمه)[(٢)].

فالرد الحقيقي على هذه الإساءات والذي يرعب الأعداء ويجعلهم يتندمون على فعلتهم هما أمران:

١- وحدة المسلمين ونبذ الفرقة بينهم بعد أن ميزّوا من خلال هذه الانتهاكات بين الصديق والعدو، فليس من أتباع القرآن من عادى أخاه المسلم الذي انتفض معه غيرة على القرآن، ويوالي العدو الذي يتبجّح بالإساءة إلى القرآن.

٢- التمسك بتعاليم القرآن وأحكامه وانظمته وقوانينه ، والتدبر في آياته وإحياء دوره في حياة الأمة ، واتخاذه قائداً وهادياً لا نحيد عن نهجه وصراطه المستقيم ، فإنه الثقل الأكبر والحبل الممدود من السماء الذي لا يضل من تمسّك به، وعلينا أن نجعله ميزاناً لأعمالنا فنفعل ما يأمرنا به ونجتنب ما ينهانا عنه من دون مجاملة لأحد أو خوفٍ من آخر ، أو نغلِّب أهواءنا وعواطفنا وشهواتنا على ما

---

(١) راجع كلمة سماحة المرجع حول هذا المعنى في كتاب خطاب المرحلة بعنوان (قابلية الدين الإسلامي العظيم على صناعة التغيير والإصلاح شرط ان يذوب أبناؤه في مبادئه السامية وفي مضامين القرآن الكريم) خطاب المرحلة :ج١٣/ ص؟؟؟

(٢) بحار الأنوار : ج ٧ /ص ٣٠٥

يريده الله تعالى، وبذلك نحبط محاولات شياطين الإنس والجن الذين همُّهم وغرضهم إبعاد الناس عن الله تعالى وإضلالهم عن طريق الحق ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦) ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٣٩).

وهذان الأمران اعني إقامة دين الإسلام ووحدة الامة هما الغرض الأسمى للقران الكريم بل لكل الشرائع السماوية، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

وفي ضوء هذه الآية الكريمة يعرف الترابط الوثيق بين القران والامامة التي صدع بها النبي الاكرم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) في يوم الغدير، وبتعبير اخر بين الثقلين بحسب الحديث النبوي المشهور لدى الفريقين، فبالولاية حفظ القران من التحريف والتأويل، وضَمِن ديمومة بقائه الى نهاية الدنيا لتهتدي به البشرية الى سعادة الدنيا والاخرة ، وليوّحدها على المبادئ الإنسانية العليا.

وهنا نقول بكل ألم وأسف أن ما يقوم به بعض المسلمين من منكرات كوضع الانظمة والقوانين المخالفة للقران والحكم بغير ما انزل الله تعالى ، والإثراء بغير حق على حساب قوت الشعب وحرمانه من حقوقه ، أو نشر بؤر الفساد الأخلاقي كمحلات الخمور والملاهي وحفلات المجون ، وظهور النساء متبرجات أمام الرجال الأجانب، وترك الصلاة وغير ذلك ، فضلاً عن إراقة الدماء وانتهاك الأعراض وتعطيل مصالح الناس من أجل أطماع شخصية أو تعصباً لجهة معينة ، لهو أشد إساءة إلى القرآن الكريم وأقسى إيلاماً لقلب النبي الأكرم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) من حرق المصحف هنا أو نشر صور مسيئة هناك، وهو ما

يشكو منه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بحسب قوله تعالى (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) (الفرقان :٣٠) فانتبهوا أيها المسلمون ولا يخدعنّكم الشيطان بمكره.

وعلى أي حال فإنَّ هذه النهضة القرآنية الظافرة لها عدة أدوات ومظاهر منها:

١- أن يجعل الخطباء مادتهم في المجالس والمحاضرات من تفسير الآيات الكريمة، واستلهام الدروس والعبر منها، وبيان القضايا العقائدية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها التي تتناولها، وهو منهجنا في تفسير (من نور القرآن) واخترنا منه أربعين مجلساً قرآنياً في كتاب (المعارف القرآنية والمنبر الحسيني).

٢- أن يدأب أئمة المساجد على قراءة صفحتين من القرآن الكريم عقب كل صلاة جماعة قبل أن يتفرق المصلّون وهي لا تحتاج إلى أزيد من بضع دقائق.

٣- تلاوة القرآن باستمرار ولو في أوقات الصلوات المفروضة فقد ورد استحباب قراءة خمسين آية يومياً.

٤- الاستفادة من الأجهزة المحمولة للاستماع إلى التلاوات المباركة بأصوات جهابذة القراء في أوقات الانتظار أو السفر أو وقت الاستراحة والخلوة.

٥- مطالعة التفاسير المختصرة كتفسير شبر والمعين للإلمام بالمعاني العامة للآيات الكريمة وتهيئة الذهن للتدبر فيها.

٦- عقد محافل الانس بالقرآن الكريم واختيار القرّاء الذين يشدّون المستمعين إلى آياته.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن أستضاء بنور القرآن وسار على نهجه القويم ونصره وانتصر به والحمد لله رب العالمين.

الفهرست

القبس/١٨٦﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾البقرة: ١٠٩ .... ٥

موضوع القبس: سبب عداء الكفار للمسلمين ٥

القبس/١٨٧﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ البقرة: ١٩٥ .... ١٢

أبواب الإنفاق ومساحاته كثيرة ١٧

كيف يؤدي عدم الانفاق الى التهلكة: ٢١

هل ألقى الامام الحسين (عليه السلام) نفسه في التهلكة ٢٧

القبس/١٨٨﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾ البقرة: ١٦٧ .... ٣١

موضوع القبس: لنحذر الحسرة يوم القيامة ٣١

تجسّم الاعمال في القيامة: ٣٥

القبس/١٨٩﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ آل عمران: ١٤٠ .... ٤٢

موضوع القبس: الشهادة كرامة إلهية ٤٢

سعة معنى الشهادة: ٤٦

القبس/١٩٠ ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ النساء: ١٤٨ .... ٥٦

موضوع القبس: مسؤولية الاعلام والنشر ٥٦

ملحق / الثبات على الحق في زمان الفتن ٦٤

القبس/١٩١﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ المائدة: ٦٤ ....٦٨
موضوع القبس: المسلمون وحرب الجيل الخامس... العراق انموذجاً ٦٨
أدوات الحرب الناعمة:...٧٣
القبس/١٩٢﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾الأنعام: ١٠٨ ....٧٨
تنزيه الأمة الإسلامية عن السبّ...٧٨
درس قرآني في علمي السياسة والاجتماع:.................................٨٥
القبس/١٩٣﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾الاعراف: ٩٦ ....٨٧
موضوع القبس: دعوة إلى إقامة دين الله تعالى وإتباع الأمناء عليه ٨٧
القبس/١٩٤﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ الأعراف:١٧٦..٩٣
القبس/١٩٥﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة: ١٢٨........................... ١٠٢
القبس/١٩٦﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ يونس:٩٨........ ١٠٨
موضوع القبس: من البلاء ما نستطيع دفعه ١٠٨
القبس/١٩٧﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ يوسف: ٣٢ .... ١١٥
موضوع القبس: كيفية ضبط الغرائز والشهوات ١١٥

القبس/١٩٨﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾النحل: ﴿٩٧﴾ ١٣٣
موضوع القبس: الإسلام يحقّق الرفاه في الدنيا والسعادة في الآخرة ١٣٣
الدين مشروع لاعمار الدنيا وليس للآخرة فقط: ١٤٢
القبس/١٩٩﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ الإسراء: ﴿١٠٠﴾........................ ١٤٥
موضوع القبس: معالجات قرآنية لعدم الإنفاق ١٤٥
موارد البخل ومصاديقه: ١٥٤
القبس/٢٠٠﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الكهف: ﴿٢٨﴾ ١٥٧
موضوع القبس: مصاحبة الصالحين تحمي من الوقوع في الفتن............ ١٥٧
حل مشكلة التمايز الطبقي: ١٦١
حل مشكلة القلق والتخبّط في الفتن: ١٦٥
القبس/٢٠١﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ طه:﴿٧٢﴾ ١٧٢
موضوع القبس: مبدأ استراتيجي في الحياة ١٧٢
الانسان يمكن أن يرتقي الى الكمال بلحظة: ١٧٦
القبس/٢٠٢﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ النور:﴿٢١﴾ ١٨١
موضوع القبس: خطط الشيطان الناعمة للوصول الى غرضه ١٨١
القبس/٢٠٣﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ القصص: ﴿٢٥﴾ ١٩١
موضوع القبس: العفة والحياء يرفعان قيمة المرأة ١٩١

القبس/٢٠٤﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ الروم: ٤١ .... ٢٠٠

موضوع القبس: إرتباط فساد الحياة وصلاحها بأفعال الناس.............. ٢٠٠

تصحيح فكرة: إرجاع البلاء الى الله تعالى:.................................. ٢٠٥

القبس/٢٠٥﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾الأحزاب: ٥٦......... ٢١٠

موضوع القبس: فضل الصلاة على النبي وآله وآثارها المباركة ٢١٠

لا تتم الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله) الا بالصلاة على آله:................ ٢١٣

القبس/٢٠٦﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾فاطر: ١٥ .... ٢٢١

انما الصدقات الإلهية للفقراء الذين انقطعوا اليه تعالى:........................ ٢٢٧

القبس/٢٠٧﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾يس: ٨٢ ٢٣١

القبس/٢٠٨ ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ ص: ٦٢ .... ٢٤١

موضوع القبس: عاقبة التسقيط والاستهزاء الذي يتعرض له الرساليون...... ٢٤١

القبس/٢٠٩﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾الحشر: ٢ .... ٢٥١

موضوع القبس: أسباب انهيار الحضارات والدول ٢٥١

القبس/٢١٠﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ الصف: ١٤ .... ٢٥٩

دعوة الى نصرة دين الله تعالى وأوليائه العظام........................... ٢٥٩

القبس/٢١١﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾الجمعة:٩ ...... ٢٧١
القبس/٢١٢﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾المعارج:١ ...... ٢٨٧
موضوع القبس: في من رفض التسليم بحديث الغدير ٢٨٧
القبس/٢١٣﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾نوح: ١٠-١١ ...... ٢٩٧
الارتباط الوثيق بين الاستغفار وتواتر النعم ٢٩٧
الدين مشروع لإعمار الدنيا: ٣٠٣
القبس/٢١٤ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾النبأ: ٩ ...... ٣١١
اضاءات قرآنية (١) لطيفة قرآنية: لا توقف في عمل المؤمن الرسالي...... ٣١٦
اضاءات قرآنية (٢) المرأة والمعارف القرآنية ٣٢٠
اضاءات قرآنية (٣) الحج وصدق الفرار الى الله تعالى ٣٢٥
اضاءات قرآنية (٤) التبليغ رسالة الأنبياء (عليهم السلام) التي ورثتها الحوزة العلمية ٣٣٢
اضاءات قرآنية (٥) الرد الحاسم على أعداء القرآن الكريم ٣٣٨
الفهرست ٣٤٥